دراسات في الأدب والشعر

صفحات من تاريخ الأدب في عصري صدر الإسلام والأموي

(خبعة جديدة مزيدة ومنقحة)

الدكتورة

وجيهة محمد المكاوي

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دار الجديد للنشر والتوزيع

810.9

ا . و

المكاوي، وجيهه محمد .

دراسات في الأدب والشعر: صفحات مـن تـاريخ الأدب فـي عصري صدر الإسلام والأموي (طبعة جديدة مزيدة ومنقحة) / وجيهه محمد المكاوي.- ط١.- دسوق : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع ، دار الجديد للنشر والتوزيع.

٣١٨ ص ؛ ١٧.٥*٢٥

تدمك : 8 – 770– 308 – 977 – 978

١. الأدب العربي – تاريخ ونقد.

أ. العنوان

رقم الإيداع : ١٤١٧٤

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق – شارع الشركات– ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز

هاتـف– فاكس : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ محمول : ٠٠٢٠١٢٧٧٥٥٤٧٢٥–٠٠٢٠١٢٨٥٩٣٢٥٥٣

& elelm_aleman@yahoo.com

E-mail: elelm_aleman2016@hotmail.com

الناشر : دار الجديد للنشر والتوزيع

تجزءة عزوز عبد الله رقم ٧١ زرالدة الجزائر

هاتف : ٢٤٣٠٨٢٧٨ (٠) ٠٠٢٠١٣

محمول ٦٦١٦٢٣٧٩٧ (٠) ٠٠٢٠١٣ & ٧٧٢١٣٦٣٧٧ (٠) ٠٠٢٠١٣

E-mail: dar_eldjadid@hotmail.com

حقوق الطبع والتوزيع محفوظة

تحـــــذيـــــر:

يحظر النشر أو النسخ أو التصوير أو الاقتباس بأى شكل من الأشكال إلا بإذن وموافقة خطية من الناشر

2021

فهرس

المقدمة

اتفق المؤرخون على تحديد حقب اعتبارية بين القرون.. فالعصر الجاهلي يختلف عن عصر صدر الإسلام يختلف عن العصر الأموي.. عن العصر العباسي... وما تلاه من عصور.

ولا نستطيع أن نضع حدود صارمة بين هذه العصور، لأن الأثر قد يظهر عقب ظهور المؤثر مباشرة... وقد لا يظهر عقب ظهوره في حقب متوالية... والمؤثر قد يستمر في بث مفعوله لعدة سنوات أو قرون متوالية... والعصور الأدبية لا انفصام بينها ولا تأكل.. فقد يختفي الأثر ويعتليه أثر آخر نتيجة لظروف مختلفة وجو مهيئ... مما ينتج عنه ازدهار فن وتواري فن أخر... ثم يستبدلا الأماكن ويستحيل الخامل إلى نشيط والنشيط إلى خامل.

وفي هذا الكتاب إطلالة سريعة على عصرـ صر الإسلام والعصرـ الأموي مبرزين أثر الإسلام والقرآن في العصر وما صاحبه من مظاهر اجتماعية-تغيرات سياسية- مظاهر فنية. ويعد العصر بداية لنهج حكمي جديد إذا تحولت الحكم من خلافة إلي توريث وهو تغيير جوهري

وبذلك سحب رداء التغيير سحب على كل شيء وأهم الأشياء المتأثرة به الأدب... شعره ونثره... إذ بدت الأحزاب على السطح لكل منها مؤيديه مما مد الأدب بمعين إبداعي.

حينما جاء الإسلام مؤيدًا بالقرآن الكريم سحر القلوب واستولى على العقول... فشهد له الكافر قبل المؤمن... والعاصي قبل المطيع... وكيف لا وهو من لدن حكيم خبير نزل على قوم الكلام صنعتهم... والبيان فعلهم... والتعبير أدائهم.

وحينما فاقهم في ذلك انضووا تحت لوائه وأذعنوا له صاغرين مستسلمين ، حتى من أطلق لعنان لشيطانه وتوهم أنه برفضه للقرآن ومعارضته له سيغلب " لا تسمعوا لهذا القرآن وألغوا فيه لعلكم تغلبون" سرعان ما اكتشف عجزه وقدرته... وضعفه وقوته... وضعته وسموه... ثم بعد أن جاء التحدي له على سبيل السخرية "فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين".....

ثم على سيبل التعقل حين وسموه بالافتراء:فاتوا بعشرة سور مثله مفتريات".... ثم على سيبل التعجيز لهم ولمن آزرهم فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهدائكم من دون الله إن كنتم صادقين" ثم على سيبل حسم النزاع وجلاء الأمر " قل لأن اجتمعت الإنس والجن على يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا".

فالحق تبارك وتعالى مهد الطريق وجعلهم يقرون بأنفسهم بعجزهم عن محاكاته بعد أن قال أحدهم محاولًا تقليده... (إنا أعطيناك الوحواح... فصلى لربك وارتاح... إن أباه هو الكبش النطاح...) ويا لها من معارضة حائية –نسبة إلى حرف الحاء– وقد اختلفوا في سبب إعجاز القرآن ، وكلٌّ أرجعه إلى سبب رأي أنه متحقق فيه.. الإخبار عم فات.. التنبؤ بما هو أت.. الإعجاز بالصرفة.... وغيرها من الأسباب التي تحققت بالفعل في القرآن الكريم.

كـذلك الحـديث الشــريف ضرب المثـل الأروع في الدلالـة عـلى الفصـاحة والبلاغة وحسن البيان.

وقد وجه الإسلام الشعر وجهه أخرى وجعله يحتفل بالروحانيـات وحسـن الخلق وإتيان المعنى من أقرب موضع على عكس ما كان شائعًا من قبـل فنجـد أثـر الإسلام وكتابه القرآن واضحًا بينًا في كل ذلك.

والله الموفق

دكتورة/ وجيهة محمد المكاوي

القرآن الكريم

احتل القرآن الكريم منزلة رفيعة بين أرباب الفصاحة والبيان وذلك لأنه واضح المعنى ، ظاهر الدلالة، حلو الأسلوب ، ولقد دانوا له بالفضل لسمو بلاغته وإعجاز بيانه، وبديع نظمه ، وروعة تصويره وأحكام صيغته بالإضافة للروابط التي تربط بين السور والآيات بل بين الكلمات بعضها ببعض في شفافية عجيبة و روحانية فريدة.ومن ثم برزت جلية بعض أوجه إعجازه. أما الباقي فلازالت تتكشف على مر العصور على يد من أراد الله استنارته وإيمانه والآيات القرآنية متنوعة متعددة فيها الإنشاء وفيها الأمر تحوى القصص والزجر والنهي والترغيب والترهيب بلا اختلاف أو تباين. "ولو كان من عند غير الله لوجود فيه اختلافًا كبيرًا".

فكل باحث يجد فيه بغيته، وكل شارد يجد به ضالته، فلا ضياع لمن تمسك به ولا ضلال لمن ارتبط به... وصدق رسول الله حين قال تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا كتاب لله وسنة رسوله". فكلامه كلام عربي وليس من كلام العرب بل أنه جاء مخالفًا لجميع الفنون الأدبية والأنماط الكلامية لتي يتحدث بها العرب.

ويروى[1]أن عتبة بن ربيعة قال حين سمع القرآن: "يا قوم لقد علمتم أني لم أترك شيئًا إلا وقد علمته وقرأته وقلته، والله لقد سمعت قولًا ما سمعت مثله قط، ما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة.." وقال الوليد ابن المغيرة: قد عرفنا الشعر كله: رجزه وهزجه ومبسوطة ومقبوضة وما هو بشعر. ولما سمع آيات من كتاب الله يتلوها النبي قال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن

١ - الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام لحسن جاد وعبدالحميد المسلوت وعبد المعنم خفاجي صـ ٢٤٩ط – در التأليف ١٩٥٢.

أعلاه لمثمر، ما يقول هذا بشر[1] وسمع أعـرابي رجـلًا يقـرأ: " فلـما استيأسـوا منـه خلصوا نجيا،" فقال: أشهد أن مخلوقًا لا يقدر على مثل هذا الكـلام.[2]وقـال أبـو ذر: والله ما سمعت بأشعر من أخي أنيس، لقد ناقض اثنى عشر شاعرًا في الجاهليـة أنا أحدهم وأنه انطلق إلى مكة وجاءني بخبر النبي، قلت: فـما يقـول النـاس؟ قـال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر، لقد سـمعت قـول الكهنـة، فـما هـو بقـولهم ولقـد وضعته على أقراء الشعر فلم يلتئم، ولا يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شـعر هكـذا كان تأثير القرآن الكريم في نفوس العرب كبيرًا وعظيمًا حتى كان ينزع الرجـل بـين أهله وعشيرته كأنه مسلوب اللب والفؤاد.

يقول الباقلاني: (إن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام كلام العرب ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد.. وليس للعرب كلام يشتمل على هذه الفصاحة والبلاغة، والتصرف البديع والمعاني اللطيفة ، والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة، مع التناسب في البلاغة والتشابه في البراعة على هذا الطـول وعـلى هذا القدر).

وورد في رسائل الجاحظ ج ٣ حجج النبوة:

ومن عجيب إعجاز القرآن انك تحسب ألفاظه هـي التـي تنقـاد لمعانيـه فـإذا تعمقت فيه انتهت إلى معانيه منقادة لألفاظه وهذا التمازج بين الألفاظ ومعانيهـا أو بين المعاني وألفاظها مما لا يعرف مثله إلا في الصـفات الروحيـة العاليـة إذا تتجـاوز روحان قد ألفت بينهما حكمة الله فصارا كالشيء الواحد بحيث لا يجـري حكـم في هذا التجاذب على أحدهما حتى يشملهما جميعًا.

١ -سيرة ابن هشام جـ ١ صـ ٣٦٨ وما بعدها تحقيق محي الدين عبد الحميد.
٢ - الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام صـ ٢٥٠.

كان للقرآن فضل عظيم في الاهتمام بالدراسات اللغوية بل أنشأت علوم بأكملها لخدمة القرآن الكريم ، ووجد علماء أفذاذ جندوا أنفسهم للغوص في لألي القرآن الكريم –وما استطاعوا– ونشر بديع دره وكوامن جواهره وظهر علم التفسير الذي عرفه أبو حيان[1] بقوله:

((علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الأفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات ذلك)).

وإذا كان التفسير يعني الإيضاح والتبيين كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[سورة الفرقان: الآية ٣٣] أي بيانًا مأخوذًا من التفسير وهو الإبانة والكشف[2] فإننا نستطيع القول على حد قول الزركشي– إنه علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيهوبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه.

والتفسير والتأويل مترادفان[3] وكل العلوم القرآنية المتعلقة بالقرآن الكريم أفادت اللغة وأثرت في الأدب بشكل كبير.

الارتباط اللغوي بالقرآن:

أن تيارات التأثير والتأثر التي سرت بين القرآن الكريم وفصحانا كانت قوية بينة الأثر فالقرآن نزل بلغة العرب تلك اللغة التي بلغت حدًا كبيرًا في الفصاحة والبلاغة ومع ذلك كان القرآن أكثر تفوقًا وأعمق بلاغة منها لأنه من لدن خالق اللغة.

---

١ - البحر المحيط جـ ١ صـ ١٣ وما بعدها.

٢ - في القاموس المحيط والتفسير بمعني الإبانة وكشف المغطي فسر يفسر وتفسير.

٣- قيل التفسير اسم من التأويل وأكثر ما يستعمل التفسير في الألفاظ والتأويل في المعاني –وقيل كما قال البغوي في تفسيره أن التفسير هو الكلام عن أسباب نزول الآية ونشأتها وفقهها- أما التأويل صرف الآية إلى معنى محتمل يوافق ما بعدها وما قبلها غير مخالف للكتاب والسنة عن طريق الاستنباط.

لذلك كان النبيﷺ يتولى أمر التفسير والشرح والتوضيح من مثل ما رواه البخاري من أن عدي بن حاتم لم يفهم معنى قوله تعالى: "وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر". وبلغ من أمره أنه أخذ عقالًا أبيض وعقالًا أسود، فلما كان بعض الليل نظر إليهما فلم يستبينا فلما أصبح أخبر الرسول بشأنه فعرض بقلة فهمه وأفهمه أن المراد بياض النهار وسواد الليل[1]. ومن مثل ما روى أن أعرابيًا تساءل حين سمع قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾[سورة الأنعام: الآية ٨٢]. قائلًا: وأينا لم يظلم نفسه؟ وفسره النبي ﷺ بالشرك مستشهدًا بقوله تعالى: "﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾[سورة لقمان: الآية ١٣]

ومن مثل ما يرويه أبو هريرة عن رسول الله أنه قال إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضه اقرؤوا إن شئتم "فلا نقيم لهم يوم القيام وزنًا"[2].

وكان الصحابة يفهمون القرآن كلُ على قدر استيعابه، ويفهمون معانيه نظرًا لسليقتهم الفصيحة التي جبلوا عليها، وما أشكل عليهم كانوا يرجعون فيه إلى الرسول ﷺ كما سبق وبعد انتقالهﷺ.

اتجه الصحابة الأفذاذ إلى تفسيره تذكرًا لأقوال الرسول –باعتبار أن التعليم كان بالمشافهة والرواية والتلقين– فقد كانوا يحفظون ما قاله الرسول ثم يرددونه ، وكان بعضهم يتولى تفسير آيات الكتاب الحكيم وفق ما فهموه ، وتلقوه عن رسول الله ووفق ما يتمشى مع كلام العرب وأشعارهم ومن هؤلاء علي بن أبي طالب، وعبدالله بن مسعود، وأبي بن كعب، وكان علي بن أي طالب يشيد بابن عباس ويقول كأنما كان ينظر إلى الغيب من ستر رقيق". وقال عنه ابن مسعود: " نعم

١- فتح الباري جـ ٨ صـ١٢٧.
٢- ضحى الإسلام حـ ١ صـ ١٣٨.

ترجمان القرآن ابن عباس". وقال فيه ابن عمر: ابن عباس أعلم أمة محمد بما أنزل على محمد"[1]. دعا له النبيﷺ بقوله: "اللهم علمه الكتاب والحكمة" وفي رواية أخري "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل" ولذلك كان صاحب اجتهاد وجرأة فيما يعتقد أنه حق، وكثيرًا ما انتقد عليه ابن عمر جرأته على تفسير القرآن لكنه ما لبث أن رجع إلى قوله واعترف بمبلغ علمه ، وقد روي أن رجلًا أتى ابن عمر يسأله عن معنى قوله تعالى: "أو لم يرى الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما" فقال: اذهب إلى ابن عباس ثم تعال أخبرني فذهب فسأله فقال: "كانت السماوات رتقا لا تمطر، وكانت الأرض رتقا لا تنبت، ففتق هذه بالمطر وهذه بالنبات، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال: قد كنت أقول ما يعجبني جرأة ابن عباس على تفسير القرآن والآن قد علمت أنه أوتى علمًا[2].

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين إذا لم يجدوا التفسير في كتاب الله تعالى ولم يتيسر لهم أخذه عن الرسولﷺ رجعوا إلى اجتهادهم وإعمال رأيهم فيما يحتاج إلى نظر واجتهاد مستعينين على ذلك بمعرفة أوضاع اللغة وأسرارها وأساليبها ، وطرائقها في التعبير ومعرفة عادات العرب وتقاليدهم ، وأحوالهم وطباعهم، وبما تهيأ لهم من قوة الفهم وسعة الإدراك والإحاطة بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله مما ينبغي أن يحيط به علمًا كل من يتعرض للتفسير وبخاصة أساليب النزول يقول الواحدي[3]: لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها، وبيان نزولها".

١- أسد الغابة جـ ٣ صـ ١٩٢.
٢- التفسير والمفسرون جـ ١ صـ١ ٦٩ وما بعدها.
٣- منهج الفرقان جـ ١ صـ ٣٦.

وكان الصحابة يلجئون إلى الشعر لتفسير آية مـن الآيـات فقـد ورد أن عمـر كان على المنبر فقرأ: "أو يأخذهم على تخوف" ثم سأل عن معنى التخوف فقـال لـه رجل من هذيل: التخوف عندنا التنقص ثم أنشده:

تخوف الرجل منها تامكا القـرد   كـما تخـوف عـود النبعـة السـفن[1]

كما أخرج أبو عبيدة عن طريق مجاه عن ابـن عبـاس قـال: كنـت لا أدري مـا فاطر السموات حتى أتاني أعرابيـان يتخاصـمان في بئـر فقـال أحـدهما: أنـا فطرتهـا والآخر:أنا ابتدأتها".[2]

وهذا وقد وضعت كثير من كتب التفاسير وضعها القدامى كل مـنهم يتجـه اتجاهًا مختلفًا لذا بضمها بعضها إلى بعض يكون التفسير قد شـمل جوانـب عـدة في القرآن الكريم..... اللغوي –والبلاغي- البياني والمجازي الحقيقي منها.

ومن أشهر كتب التفسـير بـالرأي في اتجاهاتهـا المتنوعـة: تنزيـه القـرآن عـن المطاعن للقاضي عبد الجبار ت ٤١٥ هـ .

١- الموافقات جـ ٢ صـ٨٧ وما بعدها والتأمك: السنام- القرد: الذي تجعد شعره فكان كأنه وقاية للسنام- والنبع: شجر تتخذ منه القسي والسهام والسفن: كل ما ينحت به غيره.
٢- الاتقان للسيوطي جـ ٢ صـ ١١٣.

ومضات من إعجاز القرآن الكريم

سبب التسمية : القرآن الكريم كتاب الله المنزل على يدنا محمد اجتمع الكمال فيه، كمال أسلوبي، كمال لفظي ، كمال المعنى . وهو الكتاب السماوي الأوحد الموحد أي لا كتاب سماوى غيره جمع بين كونه المعجزة المؤيدة للرسول وكتاب التكليف المنزل .. وكلمة قرآن على مصدر " فعلان " بالضم " التُكلان الغفران ، نقول قرأته قراءة وقرآناً بمعنى واحد أى تلوته تلاوة ، وقد جاء المصدر فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ (١٨)﴾ " " ثم انحسر استعمال هذه اللفظة فلم تعد تطلق إلا على كتاب الله حتى صارت علماً له.﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ...﴾ ويطلق عليه الفرقان وهو الذى يفرق به بين الحق والباطل.

وهما كلمتان عربيتان وقال البعض أن كلمة الفرقان أصلها عبري وأنها تعنى " المخلص أو المنجى " وأن كلمة " القرآن " مشتقة من كلمة " قرياناً " السريانية والتي معناها القراءة المقدسة ثم عُدلت لوزن فعلان حتى تناسب الذوق العربي ، .. وهذا كلام يحتاج للتمحيص وفرضاً لو كان صحيح فالعبرية والسريانية من الأسرة السامية أي اللغة الأم للعربية والسيامية والعبرية وغيرهما

الكلمات الأعجمية والغريبة في القرآن: " ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذين يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين " أدعى المشركون أن رسول الله يجلس ويحدث غلاماً للفكه بن المغيرة يدعى جبر قائلين " والله ما يعلم محمداً إلا جبر النصراني " وأدعى آخرون أن أبا ميسرة النصراني هو الذي يعلمه لأنه يتكلم الرومية .. وهذا افتراء دحضه القرآن الكريم ونفاه ووجود كلمات أعجمية أو غريبة لا يستطيع أحد القطع بذلك فاللغات التي تنتمي للسامية من

السهل استعمال كلمة مكان أخرى تؤدى المعنى وهذا شائع قديم ولا نستطيع الوقوف على بداياته لتوغل تاريخ ذلك في القدم والإبهام والغموض ، كما أن كثير من الألفاظ استقرت فى اللغة العربية " حتى أصبحت جزءاً منها وصارت من مفرداتها التي يروج استخدامها بين العرب كما أن من المستحيل الآن – بسبب غموض التاريخ للغات السامية – أن نحدد من اقتبس هذه الألفاظ المشتركة من الآخر العربية أم العبرية [1]" ومن الكلمات التي قالوا أنها أعجمية غير عربية الزكاة –السكينة– السجيل –.. والزكاة من : زكا يزكو فهو ذاك وأصل هذه المادة هي الطهر والنماء ، وكذلك السكينة بمعنى : الثبات والقرار ، ضد الاضطراب ، ولها جذر لغوى عميق فى اللغة العربية يقال : سكن بمعنى أقام ، وكلمة سجيل عربية أيضا وهى : الشديد من الحجارة ، أو الطين المطبوخ حتى يصير بمنلة " الآجر" وقد استعملت بمعنى الشديد

ورجلةٍ يضربون البيض ضاحية　　　ضرباً تواصى به الأقدام سجيلا

استخدام ألفاظ جميلة للمستقبح من المعاني : القرآن الكريم استخدم ألفاظاً للدلالة على معاني لا نستطيع أن نعبر عنها في لغتنا العادية بهذا الرقى والتسامي فقد وردت لفظة : المنى – الفرج – الترائب

المنى ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة القيامة: الآية ٣٧] استخدمت اللفظة للإشارة لمراحل خلق الإنسان وللسائل الثمين الذي تسبح فيه الحيوانات المنوية إذ تلتقي البويضة ويكون بداية الخلق، وهناك إشارة أخرى للعملية الزوجية على نفس القدر من الرقى " هن لباس لكم وأنتم لباس لهن " حيث شبه الزوجين وهما فى مخدعهما باللباس المشتمل على لابسه وأراد الإشارة لالتصاقهما والتحامهما ولكن بأسلوب راق مهذب

(1) الدفاع عن القرآن ضد منتقديه د عبد الرحمن بدوى صـ ٦٢.

الفرج : وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن " سورة النور"هو الثغر أو الشق بين شيئين وما بين الرجلين وكُنى به عن السوءة وكنى به عن السوءة ، وغلب عليها وكثُر حتى صار كالصريح ، وهو قبل الإنسان أو دبره " اللسان فر ج" ولا نجد لفظاً راقياً دالاً على العورة ولا يستقبح ذكره مثل كل لفظ ورد فى القرآن الكريم.

الترائب: يخرج من بين الصلب "سورة الطارق " والترائب" عظم صدر المرأة

إبداع أسلوبي – تناقض:

القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين يلتمس إفصاح والإفهام من خلال الطرق المختلفة ومن الطرق الثرية ببث المعاني " التضاد "

" فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى " فقد أثبت لهم القتل والرمي ثم نفاه عنهم ، وهذا فيه تناقض إذ قتل المسلمون المشركين يوم بدر وأثبت للرسول الرمي و الحق أن لا تعارض ، فالمنفى حقيقة الحدث الرمي والقتل أى إزهاق الأرواح لأن ذلك بيد الله وحده ، والمثبت هو الجهاد بالرمي وقتال العدو وهو من كسب العباد. " فلم تقتلوهم " لم تخرجوا أرواحهم من أجسادهم لأن مالك ذلك هو الله ،ولكنكم قاتلتموهم فقتلهم الله " قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم " وما رميت أُمر رسول الله بأخذ حفنة من تراب ويقذف بها المشركين " فلم فعل ذلك وهو يقول " شاهت الوجوه " ولوا بأمر الله مدبرين فنهزموا فالفعل " الرمى " قام به رسول الله ، أما الأثر المترتب عليه "إهلاك المشركين " فهو بقدرة الله عز وجل .

التكرار:

ورد التكرار فى القرآن الكريم بصور مختلفة قد يكون تكرار القصة كلها أو تكرار فاصلة أو كلمة أو أداة ، والتكرار أسلوب مطروق فى اللغة العربية يؤكد

المعنى ويبرزه ويوضحه ، والتكرار القرآني مترامي المقاصد والأهداف لتأييد الرسول ووعده بالنصر وتهديد المشركين ووعدهم بالهزيمة وزجرهم ، من خلال تجارب مرت بمناوئين أمثالهم لحق بهم العذاب ليتعظوا ويدبروا القرآن الكريم "كتاب هداية وإرشاد وتشريع لا يخلو منها فن من فنونه – وأهم ما يؤديه التكرار هو تقرير المكرر وتوكيده وإظهار العناية به ، ليكون فى السلوك أمثل وللاعتقاد أبين".[1]

هناك تكرار للقصص القرآني للتوضيح ولتثبيت المعاني فى الصدور فكلما شرف العلم كثر ترديده، وتُلذذ بمداومة ذكره ، فهناك تكرار لقصص الأنبياء إذ ترد كل قصة فى سياق متناسب مع الصورة مسهبة أو موجزة ، ذكر فيها الحدث أو المحدث بتركيز وكثافة ،فمثلاً وردت قصة أدم سبع مرات فى سبع سور وترتيب السور بترتيب النزول كالأتي: –

- أولاً : في مكة (ص –الأعراف –طه – ألإسراء – الحجر – الكهف).
- ثانياً: في المدينة (البقرة).

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ... ﴾

[سورة البقرة: الآية ٣٥]

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ... ﴾

[سورة الأعراف: الآية ١٩]

فهناك أحرف تزاد في أي ولا تزاد في الأخر للدلالة على المقصد .وهناك تكرار للفاصلة كما ورد في سورة الرحمن " فبأي آلاء ربكما تكذبان " إذ وردت في معرض تعداد النعم على الإنس والجن ، وهناك تكرار للكلمة "يزيد السياق حسناً والمعنى بهاءً " " أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك

(١ كمال اللغة القرآنية بين حقائق الإعجاز وأوهام الخصوم د محمد داوود صـ١٧٠ دار المنار

أصحاب النار هم فيها خالدون " فتكرار لفظة " أولئك " وجه تلقاء المعنى المقصود ، فالتكرار أضفى معاني وأشع أخباراً متلاحقة .

وهناك تكرار للأداة : مما يفيد المعنى " ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ **[سورة النحل: الآية ١١٠]**

كررت إن فأحدثت جمال وتوافق. مثل الجمال فى الإتساق اللفظي، والإيقاع الداخلي " فى قوله: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة القمر: الآية ١١]

أثر القرآن في اللغة والأدب

أولاً : أثر القرآن الكريم في اللغة:

للأدب سلطان عظيم على النفوس يحـرك القلـوب ويلفـت الانتبـاه ويـوقظ الأذهان ،ولأن ذلك حقيقة مقررة فقد أورد القرآن الكـريم لآلـئ ونـص أدبي –إن صح التعبير– لا يشق له غبار، فالنفوس البشرية تميل إلى الرفعة وترنـوا إلى الكـمال الذي يحاكي المثل العليا في الحق والخير والجمال وإن انصرفت –تلـك النفـوس– إلى حين عن مسارها الطبيعي ، لذا عمقت الصلة بين الأدب والإسلام بكتابه ورسوله فالكتاب: يلفت الأنظار، والرسول: مفوَّهًا يتحدث بها لا يستطعه غيره.

ولا شك كان للقرآن الكريم بنظمه وآياتـه ومعانيـه اليـد العليـا عـلى الأدب شعره ونثره فلم يوجد شاعر ولا ناثر إلا وتـأثر بـالقرآن أياتـه ، ومعانيـه، حقائقـه ومجازه إيجازه وإطنابه فدانوا له بالفضل واعترفوا له بالريادة.

بوجود القرآن تواجـدت كثـير مـن المعـارف والفنـون ذات الصـلة الوثيقـة بالقرآن وهو المَوَلِد الأساسي لها مثل "الاتفاق في علوم القرآن للسيوطي".

يقول د/ عبدالله حسين في كتابه تيارات التأثر والتأثير:

حقًا لقد كان الأدب من خير الوسائل لنشر الدين والدعوة إليه في كـل مجـال فهما معًا كان –الأدب والدين– يقصدان إلى التهـذيب وهمـا معًـا يتـأثران بالإلهـام وأقدر الناس على النهوض برسالة الدين هم الأدباء الذين أوتوا من صدق الشعور وملكة البيان ما يعينهم على إدراك الفضائل الدينية وبثها في نفوس البشر وكان مـن ذلك أن أَشْرِبَ الأدب روح الدين واتجهت دراسته إلى تعرف إعجاز القرآن الكريم وتلمس ما فيه من قيم ومبـادئ ومُثـل عليـا وغايـات كريمـة ، وأهـداف سـامية ، وتوجيه النفس الإنسانية وجهة الخير والحب والسلام وتنقيتهـا مـن أكـدار الحـيرة والقلق والاضطراب وتحصينها بالأمن والطمأنينة والصفاء".

على أنه إذا كان من المقرر أن القرآن الكريم يعد نصًا أدبيًا مُعَجَزًا بكل ما يشتمل عليه ويتضمنه من أسرار بلاغية وصياغة بيانية ونظم عجيب وأسلوب فريد وحكم وأحكام وقصص وأمثال وعبر وعظات وأخلاق وآداب وعقيدة وتشريع أقوال: "إذا كان القرآن كذلك فإن تفسير القرآن وشرحه وتحليله والكشف عن أسرار بلاغته، ودلائل إعجازه، وسمو بيانه، وروائع قصصه، ودقة أحكامه، وعمق معانيه، وبديع تصويره، وروعة تأثيره، وقوة حجته، وسعة مداه -يعد بهذا الاعتبار نوعًا متميزًا من الأدب الوصفي الراقي الذي يشرح ويفسر ويوضح ويصور ويكشف عن أسرار معانيه وصدق بيانه ووجوه إعجازه وهو يقابل ما يعرف بالنقد الأدبي فيما يتعلق بالنصوص الأدبية البشرية تحليلًا لها وكشفًا عن وجود الجمال والإبداع فيها وما قد يعتريها من قصور وضعف مهما كانت منزلة منشئها ومبدعها في مجال الأدب وفنون القول مما لايرتبط بالوحي الإلهي.

وقد وقف القرآن وراء النهضة الكبرى التي شهدتها اللغة العربية يتجلى ذلك في أنه

١. جمع العرب على لغة قريش وكانت من قبل لغتها الخاصة ،ولكل قبيلة لهجة تتحدث بها.. فقرب القرآن الكريم بين هذه اللهجات وجعل السيادة للهجة القرشية .
٢. شاعت القواعد اللغوية التي وردت في القرآن وانتشرت بين القبائل ، إذا أنهم يتلونه أناء الليل وأطراف النهار فطلعوا على قواعده ما جاء منها على الأكثر على اللهجات والأقل. فاستمد منه النحاة آراءهم ونظرياتهم.
٣. استطاع القرآن أن يحفظ العربية من الاندثار والضياع كغيرها من اللغات التي ذهت ثم انزوت بموت أصحابها.
٤. جعل القرآن اللهجة القريشية هي اللهجة الأكثر شيوعًا من بعد انتشار الإسلام من أوساط آسيا إلى المحيط الأطلسي واتخذ قاطني تلك الأماكن اللغة العربية لسانهم واستبدلوا بها لغتهم الأصلية.

٥. أوجد الإسلام ألفاظًا جديدة لم تكن معروفة أو مستعملة من قبل وشاعت وانتشرت مثل الفرقان، الكفر، الإيمان، وغيرها من الألفاظ التي ظهرت بظهور الإسلام.

٦. نجح القرآن في تهذيب اللغة من الحوشية ومن اللفظ الغريب. والشعر الجاهلي مليء بالكلمات الصعبة والألفاظ الغربية فلمَّ القرآن شعث اللغة وتخلص منه وأبان مبهمها واستجلى غامضها فصار من يسمعها لا يملك حيالها إلا الانحناء والحرص على الاقتداء لجدارتها بذلك. فاللغة العربية في ظل القرآن الكريم اكتسبت شيات ومدت بتعبيرات جعلتها في ثراء متجدد استطاعت أن توجد لكل طالب بغيته في التعبير من الفصحى إلى العامية لكثرة مترادفاتها فيوجد أكثر من خمسمائة اسم للسيف وثلاثمائة للأسد، وغيرها من الكلمات المتعددة التي يلجأ إليها الشاعر وينتخب أكثرها تناسبًا مع ما يريد قوله .

القرآن الكريم والأدب العربي

الشعر بقسميه نظمه ونثره كائن حي يتأثر بالمؤثرات المختلفة... قوةً وضعفًا ولم يعرف التاريخ على مر العصور مؤثرًا قويًا مثل الدعوة الإسلامية الغراء.. ولا أداة فعالة مؤثرة مثل القرآن الكريم الذي أحدث ثورة في البناء الشعري والتركيب النثري شكلًا ومضمونًا.

وقد تأثر النثر –في بدء الدعوة الإسلامية– بالقرآن الكريم والشريعة السمحاء تأثرًا كبيرًا وذلك لاعتماد الدعوة على النثر في البداية من خلال الخطابة... الأداة الأولى لنشر الدعوة حيث أنها تستوعب أوامر الدين ونواهيه وفيها مندوحة للشرح والتفصيل حيث يلجأ المسلمون إلى شرح دينهم وبيان سمته وسماته من خلال الخطابة وغيرها من وسائل النثر.

فالأمة أمة شاعرة وقد كان رسول الله يدعو إلى دين الله من خلال الخطيب فالخطبة بها شرح لقواعد الدين وتوضيح لمعالمه نواهيه وأوامره، وحينما وجدت أن الشعر غير مقبول انصرفت كلية إلى النثر فأبدعت وأجادت في المدارين معًا... الفنون القديمة.. الخطبة.. الحكم.. الأمثال.. المواعظ.. وغيرها .. والفنون المستحدثة ... التي وجدت مع الإسلام وكانت تتجه لتأثر البلاغين والأدباء به وبكتابه مثل قصص المواعظ والمذكرين.

أولًا: أثر القرآن في النثر:

أثر القرآن في النثر تأثيرًا عظيمًا بإرسائه مناهجًا وأسس جديدة عدت ركائز بني على أعضادها الفنون النثرية.. فبعد أن كان العماد الأول المفاخرة بشتى أشكالها بالمال والأولاد والعدة والعتاد بصوت عال حاد. هدأت النبرة وسكنت تلك الحركة باستبدالها بالدعوة للإسلام وحديث المؤمنين عنه منهجًا... دينيًا ودنيويًا.

أولًا: الخطابة:

على الرغم من أن الخطابة كانت معروفة في العصر الجاهلي وشائعة بين العرب إلا أنها تغيرت تغيرًا كبيرًا بعد الإسلام ، فقد كانت عبارة عن أقوال وأحاديث متأثرة يقولها الخطيب كيفما اتفق يعتمد فيها على سجع يخلب الألباب ويستلب العقول فيفرغ فيها ما يريد ويحوز الإقناع ،إلا أنه بعد الإسلام صار للخطبة موضوعًا محددًا ، يلمَّ الخطيب أطرافه وأجزاءه... وإن كانت في عصر صدر الإسلام تخلصت من السجع، إلا أنها مع ذلك لم تهمل جزالة اللفظ ورصانته وتناسب الجمل وتناغمها ، إضافة إلي أنها قد أرست قواعدها ووسعت في إطارها مجالات النثر، وعمقته، وكثرت فروعه، وذلك لأن الرسول ﷺ كان دائمًا ما يتحدث بها ومن خلالها يوضح لما نعبد الله لأنه الذات العليا والقوى المسيطرة، الخالق لكل مخلوق الواجد لكل موجود.

ولابد أن يتنصلوا من تلك المعبودات التي لا تفيد ولا تضر حتى يحوز المرتبة العليا من القيم الروحية والاجتماعية والإنسانية ... وحينما صَّدروا الأذن الصماء ترك لهم خير البقاع وشد الرحال إلى البقعة المنورة المدينة المطهرة وجعلها منبرًا يرسل منها إشعاعات دعوته السمحاء ، وكانت الخطابة تسير في جنبات الأرض فما كاد رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدث في المسلمين موضحًا لهم دينهم كاشفًا أمام أعنيهم طريق كسب دينهم من خلال وضع الحلول لكثير من المشاكل[1] حتى تنتشر خطبته وتصك آذان المشركين وتهدي قلوب الموحدين .. فالخطابة النبوية متممة للقرآن الكريم –وهي على فصاحتها- أقرب من القرآن إلى فهم الخاص والعام من أُتى من الحكمة القليل أو الكثير.

١- اهتم الإسلام بالفرد منذ ولاته وبين أن له حقوقًا وعليه واجبات وسار معه في مراحل حياته المختلفة لاعبوهن سبع... وأدبوهن سبع ... صاحبوهن سبع ... ثم اترك له الحبل على الغارب موضحًا له معالم الطريق حتى يكون أسرة ويصير مسئولًا عنها وراعيها بعد أن كان مرعيًا من قبل .. كما نظم علاقته مع المجتمع وأوجب على الغني الزكاة للفقير ووجب على الفقير عدم الطمع فيما لا يملك كما نظم علاقة المجتمعات أو الأمم بعضها مع البعض وأوضح أن أرض الله واسعة ويجب أن يسود فيها العدل والسلام.

ويكفي الخطبة شرفًا أنها جزء من أهم الصلوات المكتوبة وهي صلاة الجمعة[1] كذلك توجد الخطبة في العيدين[2] والحج وكل هذه من خطب المناسك أما الخطب الأخرى فكثيرة ومتنوعة حفل بها التاريخ الإسلامي فلم تك تأتي وفود لرسول الله إلا متضمنة شاعر وخطيب مثلما أتى عطادر بن جماجم بن زراه مع وفد تميم وظل يفاخر بنسبه وقومه فندب له الرسول ثابت بن قيس بن الشماس أجابه وسرعانه ما اهتدوا للإيمان.

ومن خطب الرسول:

"الحمد لله أحمده واستعينه وأستغفره وأستهديه وأؤمن به ولا أكفره وأعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الأجل من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالًا بعيدًا وأوصيكم بتقوى الله، فإنه خيرًا ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله. فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرًا. وإن تقوى الله، لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه، عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة. ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكرًا في عاجل أمره وذخرًا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدًا بعيدًا. ويحذركم الله نفسه، والله رءوف بالعباد والذي صدق قوله، وأنجز وعده لا خلف لذلك، فإنه عز وجل قال: (مايبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد). فاتقوا الله في عاجل

١- أثر عن رسول الله وهو ما يسير عليه معظم الخطباء إلى اليوم أنه كان يقول في مستهل خطبة الجمعة: "الحمد لله نحمده ونستعينه ونؤمن به ونتوكل عليه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ومن يهده الله فلا مضل له ومن يضلل الله فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له".

٢-.لا تفتتح خطبة العيدين بالحمد لله بل بالتكبير سبع مرات ثم خمس مرات.

آمركم وأجله، في السر والعلانية (ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم لـه أجـرًا) ومن يتق الله فقد فاز فوزًا عظيمًا. وإن تقوى الله يوقي مقته ويـوقى عقوبتـه ويـوقي سخطه، وأن تقوى الله يبـيض الوجـوه، ويـرضي الـرب، ويرفـع الدرجـة، خـذوا بحظكم، ولا تفرطوا في جنب الله. قد علمكم الله كتابه، ونهـج لكـم سـبيله لـيعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين فأحسـنوا كـما أحسـن الله إلـيكم. وعـادوا أعـداءه، (وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم)[١] وسماكم المسلمين (ليهلـك مـن هلـك عن بينة ويحي من حى عن بينة) ولا قوة إلا بالله. فأكثروا ذكر الله، وأعملوا لما بعـد اليوم فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينـه وبـين النـاس، ذلـك بـأن الله يقضـي على الناس ولا يقضون عليه ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكـبر، ولا قوة إلا بالله العظيم".ثم بعد ذلك تنوعت الأغراض

واتسعت موضوعات الخطبة تبعًا لمناسبتها فحينما تولى خليفة رسول الله أبـو بكر الصديق بهت بتصدع البينان الإسلامي لانتقـال الرسـول فوقـف خطيبًـا يـوم السقيفة فقد علم أن المسلمين اجتمعوا في سقيفة بن ساعده يقولون منا أمير ومنكم أمير فخشي على المسلمين من الفُرقة فذهب إليهم ومعه عمر بن الخطاب وأبو عبيده في نفر من المهاجرين فخطب فيهم بضرورة الاجتماع على رجل واحد .. فتمـت لـه البيعة ، فوقف خطيبًا قائلاً .

"أيها الناس! إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإذا رأيتمـوني عـلى حـق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسدودني. أطيعـوني مـا أطعـت الله فـيكم، فـإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم. ألا أن أقواكم عندي الضـعيف حتـى آخـذ الحـق لـه، وأضعفكم عند القوى حتى آخذ الحق منه، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم".

١- اجتنباكم: اختاركم:

وكانت كل خطبة مستمدة من الكتاب والسنة يقـول في خطبـة: "إن الله عـز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه فأريدوا الله بأعمالكم، وأعلموا أن ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها، وحظ ظفـرتم بـه، وضرائـب أديتموهـا، وسلف قدمتموه، من أيام فانية لأخرى باقية، لحين فقركم وحاجتكم.

اعتبروا عباد الله بمن مات منكم، وتفكروا فيمن كان قبلكم أين كانوا أمـس وأين هم اليوم؟ أين الجبارون؟ ... أيـن الـذين بنـوا المـدائن وحصـنوها بـالحوائط وجعلوا فيها الأعاجيب؟ قد تركوها لمن خلفهم، فتلك مساكنهم خاويـة، وهـم في ظلمات القبور، هل تحـس مـنهم مـن أحـد أو تسـمع لهـم ركـزًا[1].... ألا إن الله لا له، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خـيرًا ولا يصرـف عنـه سـوءًا إلا بطاعته وإتباع أمره وأعلموا أنكم عبيد مدينون، وأن ما عنده لا يـدرك إلا بطاعتـه، أما أنه لا خير بخير بعده النار، ولا شر بشر بعده الجنة."

ويروى أن أخر دعاء أبو بكر في الخطبة الثانية –لصلاة الجمعة "اللهم اجعـل خير زماني أخره .... وخير عملي خواتمه .... وخير أيـامي يـوم لقائـك .. ولم يـك يلجأ إلى السجع أو ينشده وإنما كان يهتم بالعبارة جمالها وأداءها.

وحينما تولى عمر اتسعت مع ولايته الفتوحات ومجالات الخطب .. فمع كـل جيش يجهز كانت خطبة عصماء يلقيها أمير المؤمنين حاثًا لهم عـلى الجهـاد داعيًـا إلى نشر كلمة الله ونبذ الدنيا والزهد فيها ، وحـب الآخـرة والطمـع فيهـا ... وسـمح للوفود بالخطابة في مجلسه توضح حالة موفوديهم فقـد كـان حكمـه يتسـم بالسـعة والحرية .. وكان حريصًا على تقوى الله فصيحًا في نشر ذلك وجعلـه أسـلوبًا متبعًـا حتى قيل إنه لفصاحته يخرج الضاد من أي شـدقيه أراد ... فـما أن يقـف في النـاس خطيبًا حتى تنصاع له القلوب والعقول يقول:

١- الركز: الصوت الخفي.

"إن الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر، واتخذ عليكم الحجج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا من غير مسألة منكم له ولا رغبة منكم فيه، إليه فخلقكم تبارك وتعالى، ولم تكونوا شيئًا، لنفسه وعبادته.. وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، وحملكم في البر والبحر، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون. ثم جعل لكم سمعًا وبصرًا. ومن نعم الله عليكم نعم عم بها بني آدم، ومنها نعم اختص بها أهل دينكم، ثم صارت تلك النعم خواصها وعوامها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم، وليس من تلك النعم نعمة وصلت إلى امرئ خاصة إلا لو قسم ما وصل إليه منها بين الناس كلهم أتعبهم شكرها، وفدحهم حقها إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله، فأنتم مستخلفون في الأرض، قاهرون لأهلها، قد نصر الله دينكم ... والله المحمود مع الفتوح العظام في كل بلد ... فنسأل الله الذي لا إله إلا هو الذي أبلانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته والمسارعة إلى مرضاته."

ويروى أن كان يقول في الخطبة الثانية.

"اللهم لا تعني في غمرة ... ولا تأخذني في غرة .... ولا تجعلني مع الغافلين".

وكثرت الأمصار وشاعت بها الخطب وانتشرت متكئة على ركيزتين أساسيتين كتاب الله وسنة رسوله والسلف الصالح وصارت على ذلك في عصر عثمان تدور حول الوعظ وتحث على الجهاد في البداية، ولم يك عثمان على فصاحة سابقيه لكنه كان يخطب فيملأ النفوس تقوى وإيمان قال يوم أن بايعه الناس وأهل الشورى.

"إنكم في دار قلعة[1] وفي بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد أتيتم، صبحتم أو مسيتم. ألا وإن الدنيا طويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور. اعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا، فإنه لا

١- قلعة: انقلاع أي لا تدوم.

يغفل عنكم، أين أبناء الدنيا وأخواتها الذين آثروها وعمروها ومتعوا بها طويلًا؟ ألم تلفظهم؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلًا، فقال عز وجل: (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء، فاختلط به نبات الأرض، فأصبح هشيمًا تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرًا، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابًا وخير أملًا).

ثم تقع الفرقة وينشق الصرح الديني فقسم مع عثمان يؤيده ويناحره بالبنان واللسان ... وقسم يناهضه ويؤلب عليه وتعتلى الخطابة صهوة البيان كل يؤيد رأيه بوسائله ويركن إلى سبل الإقناع بطرائقه فقد كان الأشترالنخعي في الكوفة ومحمد بن أبي بكر في مصر يؤلبون على عثمان، وحينما قتل ثار الناس أكثر وظهر الخطباء وانتشرت الخطب في أصقاع الأراضي الإسلامية ، وماجت الساحة بمؤيدين ومعارضين . ويقرر عدد من الصحابة مثل طلحة والزبير ومعهم السيدة عائشة الخروج على ولاية علي ، ويقصدون البصرة ثم يتبعهم علي .. وينزل الكوفة وتكون موقعة الجمل وينتصر عليه وتتم له بيعته.

وفي أثناء ذلك ... يكثر الخطباء كل يؤيد فريق ضد آخر فقد كان أبو موسى وعمار بن ياسر وقيس بن سعد بن عباده وعدي بن حاتم الطائي وشبث بن ربعي ومن معه خطباء لعلي ... والأشعث بن قيس والاشتر النخغي ، وزيد بن سوحان وأخوه سمحان يؤلبون الناس عليه بخطب نارية وكان علي نفسه خطيبًا مفوهًا ، وكان عمرو بن العاص لسان معاوية الكالم، وانتصر علي نصرًا بينًا ولجأ معاوية إلى الخديعة ورفعوا المصاحف على ألسنة الرماح.

وهنا وقعت الفرقة الكبرى ... فقد غمد القراء –بجيش علي– سيوفهم وتطلعوا إلى حكم كتاب الله ورفض عليّ ذلك فجاهروه العداء وهددوه بمصير عثمان ....

وحينما ينزل إلى إرادتهم وفي طريق رجوعه إلى الكوفة ....يتبين لهم أنهم خدعوا ويثور باقي الجند –الرافضين للحكم منذ البداية– ويعظم الخلاف وتستعر إوار الخطب ويكثر الخطباء وتزداد الهوة اتساعًا بين المسلمين ويذهب الرافضون للتحكيم لمعسكر في حروراء لذا سموا بالحرورية أو الخوارج.

وحاول علي وعبدالله بن العباس إرجاعهم إلى حيدة الطريق وتقام بين الفريقين مناظرات –قيل أن هذا العصر عصر المناظرة الشفوية– طوال كل ينتصر لرأيه وقاتلهم عليّ قتالًا عنيفًا وكان علي خطيبًا مفوهًا وواعظًا حكيمًا فحضرت الخطابة جميع مواقفه وفي إحدى خطبه يقول:

" إن الدنيا قد أبرت وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت بإطلاع، وإن المضمار[1] اليوم والسياق غدًا. ألا وإنكم في أيام أمل من ورائه أجل، فمن أخلص في أيام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله، ولم يضرره أمله، ومن قصر في أيام أمله قبل حضور أجله خسر عمله، وضره أمله، ألا فاعملوا لله في الرغبة، كما تعملون له في الرهبة، ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها!".

لكن تمسك الخوارج بمبادئهم اعتقادًا بصحتها وخطَّئوا عليًا ، وكان يشعل حميتهم الخطباء من نحو عبدالله بن وهب الراسبي، حرقوص بن زهير السعدي، المستورد بن علقه.

وحينما زاد خروج الناس عليه وكثرت الإغارات على أطراف البلاد الإسلامية –على العراق– من جانب جنود معاوية وقف علي خطيبً عظيم يقول:

"إن الجهاد باب من أبواب الجنة، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء، ولزمه الصغار، وسم الخسف، ومنع النصف[2]. ألا وإني قد دعوتكم

١- المضمار: الزمن الذي تضمر فيه الخيل للسباق وكذلك الموضع.

٢- النصف: الإنصاف.

إلى قتال هؤلاء القوم لـيلاً ونهـارًا وسرًا وإعلانًـا، وقلـت لكـم: اغـزوهم قبـل أن يغزوكم. فوالله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا، فتواكلتم وتخـاذلتم، وثقـل عليكم قولي، واتخذتموه وراءكم ظهيرًا، حتى شنت عليكم الغارات ... فيا عجبًا من جد هؤلاء القوم في باطلهم، وفشلكم عن حقكم ... حتى صرتم هدفًا يرمي وفيئًـا ينتهب، يغار عليكم ولا تغيرون، وتُغْزَونَ ولا تَغْزُونْ .. قد وريتم[1] صدري غيظًا، وجرعتموني الموت أنفاسًا[2] وأفسدتم على رأيي بالعصيان والخذلان".

وكانت الخطبة ملتهبة تتأجج حماسًا من اعتمادهـا عـلى الكتـاب والسـنة مـن جانب ولاشتعال الأحداث والجو الخارجي من جانب أخر يقول بن وهب: ((أمـا بعد فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن وينيبون إلى حكم القـرآن أن تكـون هـذه الدنيا التى الرضا بها والركون إليها والإيثار إياها عناء وتبار –آثر عندهم من الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقول بالحق وإن من وضر فإنما يمن ويضـر في هـذه الدنيا فإن ثوابه يوم القيامة رضوان الله عز وجل والخلود في جناته))[3].

وينتهي الأمر بخلع علي ثم أخذه غدرًا وقتلـه، ويسـلم الحسـن الأمـر كليـة لمعاوية على شريطة أن يكون الأمر خاص بمعاوية دون ولده وبعـد معاويـة يطـرح الأمر للمسلمين ليختاروا وليهم.

وكانت الخطبة هي وسيلة الإعلام المطروحة في هذا المجال لذا كانوا يهتمـون بالخطبة حتى قيل أنهم كانوا يعدونها بمزيد من الاهتمام ويراجعونها فنية بعد أخرى .... نسب ذلك لعمر بن الخطاب .. فهي والشعر عماد التواصل بين المسـلمين بعـد تفرقهم شيعًا كل حزب بما لـديهم فرحـون، ويجمعـون الأنصـار والأعـوان وكثـر التمثل بخطب النبي فلا تخلوا خطبة مـن التحميـد، فـإن خلـت فهـي بـتراء وإن لم

١- وريتم: ملأتم، وأصله من روى القيح جوفه إذا أكله.
٢- جمع نفس بالتحريك وهو الجرعة من الماء ونحوه.
٣- العصر الإسلامي صـ١١٢.

تضمن أي القرآن الكريم والصلاة على رسول الله فهي شوهاء ... لذا كثر في الخطب الاستشهاد بالقرآن والأحاديث والشعر بل والأمثال أيضًا ... كما فعل أبو بكر في خطبة الأنصار.

ولم يكن السجع ملتزمًا في الخطب اقتداءً برسول الله الذي يرفض السجع وينفر منه فلم يكن الخلفاء يلتزمونه أو يشجعون عليه وحينما قال سحار العبدي[1].

أرض سهلها جبل، ماؤها وشل، وثمرها دقل، وعدوها بطل، وخيرها قليل، وشرها طويل، والكثير بها قليل، إن كثر الجند بها جاعوا، وإن قلوا بها ضاعوا.

فقال عمر: أسجاع أنت أم مخبر ....؟

فقد كره سجع الرجل ... والتزامه به.

فالخطابة كانت دائمًا ما تحوي الآيات والأحاديث والخطيب يحرص على التمثل بأقوال رسول الله والالتزام بالهدى القرآني.

ثانيًا: الكتابة:

أعلى الإسلام من شأن العلم والعلماء وجعل لهم المكانة العليا والصوت المُسْمَع وذلك لامتلاكهم أداة الإطلاع على الرؤى المختلفة والنواحي المتعددة وبذلك تتسع المدارك وتتشعب الأفق. والكتابة الشق الثاني من التعلم، فالقرآن والكتابة صنوان أحدهما يفضي للأخر لذا تحدث القرآن الكريم عن القراءة والكتابة بل وأخبر عن أدواتها حين قال: "أقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم ..... إلخ". وقوله تعالى: "ن، والقلم مايسطرون"، وقوله: "رسولًا من الله يتلو صحفًا مطهرة"، وكان رسول الله يعرف قيمة الكتابة حتى جعلها فداء الأسرى الكتبة تعليم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة.

١- عند وفد سحار العبدي من غزو مكران الفارسيسة سأله عمر بن الخطاب عن شأنها وشأن العرب بها.

وكان لكتبة الوحي منزلة عظمى مثل عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، أُبي بن كعب، زيد بن ثابت، بالإضافة لخالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهم عديدون.

مجالات الكتابة:

كانت الكتابة في البداية يكتب بها ما يتيسر من القرآن لكي يحفظه الصحابة ويتداولونه ثم اتسع نطاقها فصارت تستخدم في كتابة ما يهم المسلمين في معاملتهم وعقودهم[1].

قد بدأ رسول الله استقراره في المدينة بعقد المصالحة بين الأطراف المتنازعة وإحلال السلم محل العداء والاتفاق محل الشقاق ومنها "أن جمع أهل يثرب"، "أمة واحدة من دون الناس". وهي أمة لا ترتبط بروابط النسب المعروفة في القبيلة وإنما ترتبط بروابط الدين وعلى هذه الأمة أن تتعاون ضد كل من يبغي عليها منها أو من غيرها وأن تكفل في داخلها مبادئ السلام كما تكفل حماية الجار ونصرة المظلوم... ومن تبعها من غير دينها له النصرة والأسوة إلا من ظلم وآثِم ..وهي أمة يعلو عليها سلطان الله الذي يُرد إليه وإلى رسوله كل اختلاف أو شجار يخاف شره وقد كان هناك وثيقة توضح العلاقة الجديدة بين الأفراد بعضهم البعض وتجعل الكلمة العليا للدين ولرسول الله ... ثم وثيقة صلح الحديبية التي وضعت للمصالحة بين المتحاربين وطرح الحرب عشر سنوات عن الناس وجعل ذلك ميثاقًا ... وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ... ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

١- يقول د/ شوقي ضيف في كتابه العصر الإسلامي: أن محمد حميد الله الحيدر ابادي استطاع أن يجمع طائفة ضخمة من المكاتبات التي تمت في عهد النبوة والخلفاء سماها مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة وأنها موثقة أشد التوثيق.

الكتابة في عهد رسول اللهوقد كتب رسول الله –عن طريق الكتبة– إلى أهل خيبر ثم إلى ملوك ورؤساء العالم مثل النجاشي ملك الحبشة وهرقل ملك الروم والمقوقس حاكم مصر.

ومن كلامه إلى أهل نجران: " ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، ولا يغير أسقف من أسقفته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته ، وليس عليهم دية ولا دم جاهلية .. ومن سأل منهم حقًا فمنهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين."

وكان كثيرًا ما يرسل إلى ولاته على الأمصار المختلفة المكاتبات التي بها وصاياه والتي كانت تعد دستورًا يلتزمه الولي ويسير في الرعية بوصايا الرسول.

الكتابة في عهد أبي بكر وحينما تولى أبو بكر الصديق تكثر الكتابة التي صارت على دعامتين ، أما فتوح يدعو الناس إلى الإيمان بالله والانسلاخ من الكفر والفسوق والعصيان ترغيبًا وترهيبًا ... أو حروب الردة ومناونة الفئة التي ضلت يدعوهم إلى الإياب لحيدة الطريق مثل كتبه لخالد بن الوليد قائد جيوشه ويروى أن أخر ما كتبه الكتاب الذي استعمل فيه عمر بن الخطاب وبه يقول: إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب فإن بر وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه ، وأن جار وبدل فلا علم لي بالغيب، والخير أردت ولكل امرئ ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون."

الكتابة في عهد عمر بن الخطاب:

حينما تولى عمر سار على نفس النهج يرسل المراسلات ... ولا سيما أن في عهده قد تم فتح كثير من البلدان مثل إيران ومصر والشام فكان يرسل الولاة يحدد لهم طريقهم في معاملة أهل البلاد ويظلل على الرسالة الهدي النبوي ومنها رسالته إلى أهل إيليا التي اقتدى فيها برسالة رسول الله لأهل نجران ومنها:

"هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان: أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها: أن لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا ومن حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود. وعلى أهل إيليا أن يعطوا الجزية .. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين."

وقد يرسل إلى واليه يوضح له مسيره ونهجه ومنها رسالته إلى واليه على البصرة أبو موسى الأشعري.

"بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة، فأفهم إذا أدلى إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له. أس بين الناس في مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا يخاف ضعيف من جورك. البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر. والصلح جائزبين المسلمين إلا صلحًا حرم حلالًا أو أحل حرامًا. ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك، وهديت فيه لرشدك، أن ترجع عنه إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهم الفهم عند مايتلجلج في صدرك، مما لم يبلغك في كتاب الله ولا في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. أعرف الأمثال والأشباه، وقس الأمور عند ذلك، ثم اعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى. واجعل

للمدعي حقًا غائبًا أو بينة أمدًا ينهي إليه، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه، وإلا وجهت عليه القضاء، فإن ذلك أنفى للشك ،وأجلى للعمي ، وأبلغ في العذر. المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودًا في حد أو مجربًا عليه شهادة زور أو ظنينًا[1].

في ولاية أو قرابة. فإن الله قد تولى منكم السرائر، ودرأ عنكم بالبينات والإيمان. ثم إياك والقلق والضجر والتأذي بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحق، التي يوجب الله بها الأجر، ويحسن بها الذخر، فإنه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى، ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بما يعلم الله منه خلاف ذلك هتك الله ستره وأبدى فعله. والسلام عليك".

والكتابة في عهد عمر بن الخطاب اتسعت سعة كبرى وغطت كل نواحي الحياة السياسية والدينية حيث وضع المنهاج الذي يجب أن يسود في الدولة الإسلامية في السلم والحرب وبين علاقة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم المسلمة وغير المسلمة يقول: شوقي ضيف تعليقًا على رسالة عمر بن الخطاب.

والرسالة وثيقة مهمة فيما ينبغي أن يكون عليه الحاكم قاضيًا أو غير قاض من الرفق برعيته ومعاملة جميع أفرادها على قدم المساواة. وعمر يضع فيها أسس النظر في الإدعاء وفي الصلح بين المتخاصمين، ويفتح الباب واسعًا أمام من يقضي في شأن من شئون الرعية ويتبين خطًا قضائه أن يرجع فيه. وما يلبث أن يضع للحاكم الأصول التي يصدر عنها في أحكامه، وهي الكتاب والسنة فإن لم يجد فيهما ما ينير له الحكم اجتهد برأيه معتمدًا على القياس. ويجعل للمدعي أمدًا ينهي إليه. ويقول إن الأصل في المسلم أن يكون عدلًا، إلا أن تنتفي عدالته فلا تصح شهادته. ويوضح للحاكم قاضيًا أو غير قاض موقفه من الخصوم فلا يتأذى بهم ولا يتنكر

١ - ظنيًا: متهمًا.

لهم. وقد ترك وصية[1] للخليفة من بعده تعد دستورًا رفيعًا للحكم، سواء فيما يتصل بحكم المسلمين أو حكم أهل الذمة وما ينبغي أن يؤخذوا به من الرفق.

وفي الحق أننا لا نصل إلى عهد عمر حتى تصبح الكتابة جزءًا أساسيًا في أعمال الدولة، وحتى تتضمن كل تعاليمها وكل ما رسمته للمسلمين وأهل الذمة من العلاقات السياسية والاقتصادية في الخراج ، وقسمة الغنائم وكل ما يتصل بالأنظمة في الشعوب المفتوحة. وعمر في ذلك كله يستلهم القرآن والسنة النبوية، ويستشير أصحابه في كل ما يأخذ من أمر ويدع، وهو في ثنايا ذلك يجهد ويفتح الباب لجهاد أصحابه. فإذا قلنا بعد ذلك إن الكتابة رقيت في العصر رقيًا بعيدًا لم نكن مغالين إذا وسعت كل الحاجات السياسية التي جدت، وكل ما أعطى للمسلمين المحاربين والشعوب المفتوحة من حقوق.

وقد مضى فاتحو الثغور في عهد عثمان يكتبون عهودهم لمن يغلبون عليهم أو يدخلون في طاعتهم دون حرب مقتدين بما رسمت العهود في عهد عمر وأبي بكر، وكان عثمان يكتب أحيانًا إلى ولاته في الحرب والسلم. وخلفه علي فكثرت الحاجة بحكم حروبه إلى مكاتبات مختلفة بينه وبين المؤيدين له وبين الخارجين عليه. ومن أهم ما كتب حينئذ وثيقة[2] التحكيم بينه وبين معاوية.

وواضح من ذلك كله أن الكتابة تطورت تطورًا واسعًا في هذا العصر، فقد تعددت الموضوعات التي تناولها والتي لم يكن للعرب بها عهد قبل الإسلام ورسالة صاحبه النبوية، إذ أخذت تحمل مجموع النظم الجديدة التي قامت عليها دولة الإسلام العتيدة. وكان الرسول عليه السلام هو الذي ذللها لتحمل هذه النظم، وخلفه عليها قواد الجيوش في عهودهم للبلاد المفتوحة وخلفاؤه الذين فصلوا هذه النظم وطابقوا بينها وبين حاجات المسلمين من جهة وحاجات من غلبوا عليهم من

١- البيان والتبيين ٢/ ٤٦

٢- مجموعة الوثائق السياسية صـ٢٨١.

جهة أخرى، ولعمر من بينهم في ذلك القدح المعلي إذ ساعدت كتبه الكثيرة في الفتوح وإلى الولاة على أن ينال النشر الكتابي كل ما كان ينتظره زمن الخلفاء الراشدين من تطور ونهوض.

وتلك المكانة التي حظيت بها الكتابة نتيجة لاهتمام الإسلام بها وقد جعلها الرسول عِقال العلم حين قال: "اعقلو العلم بالكتابة" والقرآن الكريم جعلها هي المرجع الأول في العلاقات المالية بين الأفراد.

وحث على الالتزام بها في أطول أيه في القرآن في سورة البقرة حين قال: "يا أيها الذين أمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ... سورة البقرة

أثر القرن الكريم في الشعر:

لم يقف الإسلام من الشعر موقف الرافض أو النابذ بل شجعه ودعى إليه طالما أنه يتفق مع أسس ومبادئ الإسلام لكن حينما يتنصل منها فإنه يقف منها موقف الرفض التام.

وقد عارض الشعراء الإسلام –في بدء الدعوة– ورفضوه ونشروا الأشعار في مهاجمة الإسلام والمسلمين .. ومن ثم رفض الإسلام تلك النوعية من الأشعار المناوئة للدعوة أو المخالفة لمبادئها من إشعال العصبية ... الهجاء المقزع ... الغزل الفاحش الوصف الممقوت.

الرسول والشعر

قال البعض إن الرسول قد هاجم الشعر وقال لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا حتى يريه خير من أن يمتلئ شعرًا ...

وإنه لم ينشد بيتًا كاملًا قط .. والحق إن هذا كلام يحتاج إلى فحص. فالشعر المنهي عنه هو الشعر المناوئ للإسلام ودعوته.. المفسد للطبيعة السمحاء أما الشعر المتفق مع الأسس والمبادئ الإسلامية فقد رحب به الإسلام وقد قال صلى الله عليه وسلم: إن من البيان لسحرًا .. وإن من الشعر لحكمًا أو حكمة.

أما عدم إنشاده الشعر .. فقد نفى القرآن الكريم عنه ذلك من قول الشعر وإنشاده ... ومن ثم كان يغير في إنشاد البيت أما في القافية وإما في الوزن الشعري.

لكن موقفه من الشعر كان موقف الخبير الذي يعجب بجيد الكلام حسنه. وينفر من ردئ الكلام سيئه.

وقد دعا الشعراء الموجودين إلى نصرته بالألسن مثل ما نصروه بالسيف ، وحظي الشعراء بمكانة عليا في الدنيا ووعدهم بالجنة في الآخرة لحسن قولهم وملاحة منطقهم وحديثهم.

وكان هناك مجموعة من الشعراء المخضرمين الذين شهدوا الجاهلية والإسلام آمنوا بالله ورسوله وجندوا أنفسهم للدفاع عن الدين الحنيف.

فحينما شب الخلاف بين المسلمين والكفار وازداد الصراع بينهما نجد كثير من الشعراء هاجموا الإسلام فطلب الرسول من الأنصار وشعراءهم النصرة فكانت لهم الغلبة.

وكانت للمواقع الحربية دخل كبير في إشعال الحمية مثل بدر... الأحزاب ... والخندق.

وكان من أشهر الشعراء: حسان بن ثابت، كعب بن مالك، عبد الله بن رواحه ومن أشعارهم.

هجوت محمدًا فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء

أتهجموه ولست له بكفء فشر كما لخيركما الفداء

ويقول ابن سلام : "وكعب شاعر مجيد، قال يوم أحد في كلمة:

فجئنا إلى موج من البحر وسطه أحابيش منهم حاسر ومقنع[1]

ثلاثة آلاف ونحن نصية ثلاث مئين إن كثرنا وأربع[2]

فراحوا سراعًا موجفين كأنهم جهام هراقت ماءه الريح مقلع[3]

ورحنا وأخرانا بطاء كأننا أسود على لحم ببيشة ظلع[4]

وقال في أيام الخندق:

من سره ضرب يرعبل بعضه بعضًا كمعمعة الآباء المحرق[5]

فليأت مأسدة تسل سيوفها بين المذاد وبين جزع الخندق[6]

١- أحابيش قريش: حلف منهم تحالفوا عند جبل يسمى حبشيًا. الحاسر: الذي لا بيضة له عكس المقنع.
٢- النصية: الخيار والإشراف.
٣- موجفين: مسرعين. الجهام: السحاب أفرغ ماءه.
٤- بيشة: مسبغة في واد كثير الشجر. ظلع: من الظلع وهو العرج. يكنى بذلك عن سيرهم البطيء المطمئن.
٥- يرعبل: يمزق. المعمعة: صوت لهب النار في القصب. الأباء: أجمة القصب يصف أصوات المعركة.
٦- أرض مأسدة: كثيرة الأسود. المذاد: موضوع بالمدنية. جزع الخندق: منعطفه .

ففي وقعة بدر الكبرى –مثلًا– حيث كان نصر المسلمين رائعًا مؤزرًا، يقول حسان بن ثابت:

سرنا، وساروا إلى بدر لحينهم ... لو يعلمون بعين العلم ما ساروا[1]

دلاهم بغرور ثم أسلمهم ... إن الخبيث لمن والاه غرار[2]

وقال: إني لكم جار فأوردهم ... شر الموارد فيه الخزي والعار

ويمضي شعر المسلمين يسجل على قريش بغيها وبطرها الذي سجله القرآن الكريم من قبل، **فقال كعب بن مالك**:

عجبت لأمر الله والله قادر ... على ما أراد، ليس لله قاهر

قضى يوم بدر أن نلاقي معشرًا ... بغوا، وسبيل البغي بالناس جائر

وقد حشدوا واستنفروا من يليهم ... من الناس، حتى جمعهم متكاثر

أما من فر من المشركين يوم بدر، فقد اشتفى منهم شعر المسلمين بالتعبير، والهزء والزراية، ومن أوجع ما قيل في ذلك ما أنشده حسان في قصيدة تعد من أقوى ما قيل من الشعر في غزوة بدر، وسجل فيها فرار الحارث بن هشام وتركه أخاه عمر (أبا جهل) يقتل في ميدان القتل، هذه القصيدة التي بدأها حسان بقوله يتغزل:

تبلت فؤادك في المنام خريدة ... تسقي الضجيج ببارد بسام

ثم يخلص من الغزل إلى قوله:

إن كنت كاذبة الذي حدثتني ... فنجوت منجي الحارث بن هشام

١- الحين: الهلاك.

٢- دلاهم بغرور: أي أن الشيطان خدعهم وغرهم وزين لهم محاربة المسلمين فأسلمهم للهلاك.

تــــرك الأحبـــة أن يقاتـــل دونهـــم ونجـــأ بـــرأس طمـــرة ولجـــام

وبنـــو أبيـــه ورهطـــه في معـــرك نصـــر الإلـــه بـــه ذوي الإســـلام

لـــولا الإلـــه وجريهـــا لتركتـــه جـــزر الســـباع ودســـنه بحـــوامى[1]

ومن أكثر ما ردده شعراء المسلمين يومئذ، تعديـدهم الصـرعى مـن عظـماء قريش ووصف هوانهم وقد أُلقوا على أرض المعركة ينتظرهم مصير آخر مؤلم في نار جهنم، ووصفهم الأسرى وقد شدوا بالأغلال وقيدوا بالأصفاد. **وها هو ذا حسان يصف المعركة التي دارت على المشركين فيقول:**

بهـــن أبـــدنا جمعهـــم فتبـــددوا حرب يشب سـعيرها بضــرام

من كــل مأســور يشــد صــفاده صقر إذا لاقــى الكتيبــة حــامي

ومجــدل لا يســتجيب لـــدعوة حتـى تـزول شـوامخ الأعـلام

بالعـــار والـــذل المبـــين إذا رأوا بيض السيوف تسوق كل همـام

ويقول كعب بن مالك:

طحنـــــتهم والله ينفـــــذ أمـــــره وكان يلاقي الحين من هو فاجر

فخــر أبــو جهــل سريعًــا لوجهــه وعتبة قـد غادرنـه وهـو عـاثر

وشــيبة والتيمــي غــودرن الــوغى وما منهم إلا بذي العرش كافر

فأمســوا وقــود النــار في مســتقرها وكـل كفـور في جهـنم صـائر

تلظى عليهم وهي قد شب حميمهـا بزبر الحديد والحجـارة سـاجر

١- راجع: الأثر القرآني في الصورة الأدبية، ص ٢٤٧: رسالة ماجستير، د. صلاح الدين محمد عبدالتواب، من النقد والأدب، د. أحمد بدوي ص ١٤-١٦.

ولم ينس المسلمون ما هددهم به المشركون من الإغارة عليهم والأخذ بالثأر، فهوَّن شعراء المسلمون من ذلك، بل أكدوا أن سيأتي يوم ويغزون فيه مكة ويستولون عليها، **وفي ذلك يقول كعب بن مالك**:

فلا تجعل أبا سفيان وارقب جياد الخيل تطلع من كداء

أما موقف شعراء المشركين من تلك الغزوة، فيظهر أن قريشًا تواصت على أن تخفي حزنها في صدرها، وأن لا تبوح بآلامها أول الأمر، إلا أنه لم يلبث أن أنطلق الشعر من عقاله، معبرًا عما يجيش في النفوس إزاء هذه الهزيمة التي حاطت بقريش وإزاء تلك السخرية اللاذعة التي تنطلق من أشعار المسلمين.

وكان مما قاله شداد بن أوس يبكي من لقى مصرعه في وادي بدر ويعدد عظماء القتلى ويصف مشاعره إزاء قتلهم.

نحيي بالسلامة أم بكر وهل لي بعد قومي من سلام

فإذا بالقليب قليب بدر من القينات والشراب والكرام

وهذا هو أمية بن أبي الصلت يبكيهم ويثني عليهم ويصف مقدار ما ألم مكة لفقدهم:

ألا بكيت على الكرام بني الكرام أولى الممادح

ماذا ببدر قالعقنقل من مرازبة جحاجح

شمط وشبان بهاليل مناوير وحاوح

ألا ترون كما أرى ولقد أبان لكل لامح

أن قد تنير بطن مكة فهي موحشة الأباطح

ومضى بعض الشعراء يبكـون مصـابهم الخـاص أو ينـدبون بنـي قبيلـتهم أو يرثون بعض عظامهم، ومن أمثلة ذلك ما يقوله الحارث بن هشـام يرثـي أخـاه أبـا جهل:

ألا يـالقومي للصـبابة والهجـر وللحزن مني والحرارة في الصدر

وللدمع من عين جـرارًا، كأنـه فرد هوى من سلك ناظمه يجـري

على البطل الحلو الشمائل انثوى رهــن مقــام للركيــة مــن بــدر

... وتوعد بعضهم الأوس وهددهم بالانتقام والثأر، وأخذ يخفف من غلواء الأنصار فيما ملآهم من الابتهاج بالنصر، ويدعو المكيين بأن يناموا على الضـيم، **وفي ذلك يقول ضرار بن الخطاب**:

عجبت لفخر الأوس والحين دائر علهـم غـدا والـدهر فيـه بصـائر

وفخر بن النجار أن كـان معشــر أصـيبوا ببـدر، كلهـم ثـم صـابر

فإن يك قتلى غودرت من رجالنـا فــإن رجــالًا بعــدهم ســنغادر

ونترك صرع تعصب الطير حولهم ولــيس لهــم إلا الأمــاني نــاصر

وتبكيهم مـن أهـل يثـرب نسـوة لهـن بهـا ليـل عـن النـوم سـاهر

وكان كعب وحسان يعارضون شعراء مكة بمثل قولهم أما عبدالله بن رواحه فقد كان يعيرهم بأنهم أخرجوا رسول الله من أرضه وأنهم كفـار مـآواهم إلى النـار فلم يك يؤلمهم هجاءه مثل هجاء حسان وكعب.ثـم تبـدلت الأحـوال وأسـلموا ، فوضعوا هجاء حسان دبر آذانهم وصار يوجعهم هجاء كعب وعبد الله بن رواحة .

يقول الأصفهاني في الأغاني:

وفي الأغاني أن حسانً وكعبًـا "كانـا عارضـان شـعراء قـريش بمثـل قـولهم بالوقائع والأيام والمأثر ويعيرانهم بالمثالب، وكان عبدالله بن رواحه يعيرهم بالكفر،

فكان في ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب وأهون القول عليه قول ابن رواحه، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحه."[1]

اليهود والشعر:

كان اليهود كدأبهم يعقدون الاتفاقات ويقضونها ويعملون في الخفاء على تأليب المشركين وتشجيعهم على هجاء الرسول ومحاربته حتى أجلاهم الرسول عن المدينة وفي خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه جلاهم عن الجزيرة العربية كلها من سوء فعالهم .... بل أن أحدهم عقب غزوة بدر ملىء حقدًا وعلم أن فناءهم وشيك فذهب إل مكة واستثار قريش للثأر من الرسول وصحبه.

صحنت رحى بدر لمصرع أهله ... ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم ... لا تبعدوا إن الملوك تصرع
نبئت إن الحارث بن هشامهم ... في الناس يبن الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجموع وإنما ... يحمي على الحسب الكريم الأروع

فالشعر في عصر الرسول أدى رسالة لاتقل أهمية عن رسالة السيف ،لما للشعر من سلطان على النفوس وتأثير على القلوب ، ولا سيما أن الأمة العربية أمة بيان تبين وتفصح فتؤثر إما تأثير يقول عبدالله بن رواحه مودعًا رسول الله حين خرج لغزوة مؤته بالقول.

فثبت الله ما آتاك من حسن ... تثبيت موسى ونصرًا كالذي نصروا
أنت الرسول فمن يحرم نوافله ... والوجه منه فقد أرزى به القدر

١- الأغاني ٤/ ١٣٨

عبد الله بن راوحه، وحسان بن ثابت، وكعب بن مالك من أشـهر الشـعراء المنافحين عن الدعوة الإسلامية الـذابين عـن الرسـول وأصـحابه ورسـالته ودينـه ونجد اختلافًا في مناهجهم وطرائق تعبيرهم ... فإنه كان ينافح عن الدعوة ويهجوا المشركين بالطعن في الأنساب والاحساب ومعايرتهم بالفرار مـن الغـزوات وكـان رسول يعده الشاعر الرسمي المتحدث باسم الجماعة الإسـلامية والمجتمـع الجديـد يقول هاجيًا أبو لهب.

أبـــا لهـــب أبلـــغ بـــأن محمـــدًا　　　سـيعلو بـها أدى وإن كنـت راغـما

فـإن كنـت قـد كذبتـه وخذلتـه　　　وحيدًا وطاوعت الهجين الضـراغما

ولو كنـت حـرًا في أرومـة هاشـم　　　وفي سرهـا مـنهم منعـت المظـالم

ولكـــن لحيانـــا أبـــوك ورثتـــه　　　ومأوى الخنامنهم فدع عنك هاشـما

سمت هاشم للمكرمـات وللعـلى　　　وغودرت في كأب من اللـؤم جـاثمًا

وكان يسخر من كل أفعال قريش حتى أنه سخر حين أعطو لوازم المعركة إلى عبد حبشي سمي صؤاب فقال:

فخـــرتم بـــاللواء وشر فخـــر　　　لـــواء حـــين رد إلى صـــؤاب

جعلـــتم فخـــركم فيـــه بعبـــد　　　وألأم مـــن يطـــا عفـــر الـــتراب

وكان كعب بن مالك يسير في المجال نفسـه يفخـر بفعـل المسـلمين ويهجـوا المشركين يقول:

آلا هل أتى غسـان في نـأى دارهـا　　　وأخـــبر وشيء بـــالأمور عليمهـــا

بـأن قـد متنـاعن قسـى عـداوة　　　معـــد معاجهالهـــا وحليمهـــا

لأنـــا عبـــدنا الله لم نـــرج غـــيره　　　رجـــاء الجنـــان إذ أتانـــا زعيمهـــا

نبــى لـــه قومـــه إرث عـــزة وأعـــراق صـــدق هـــذبتها أرومهـــا

فســاروا وسرنــا والتقينــا كأننــا أســـود لقـــاء لا يرجـــى كليمهـــا

ضربنـاهم حتـى هـوى في مكرنـا لمنخــر ســوء مــن لــؤي عظيمهــا

فولـوا ودسـناهم ببـيض صـوارم ســـواء علينـــا حلفهـــا وصـــميمها

وفي نص آخر يقول بعد الانتصار على خيبر:

قضـــنا مـــن تهامـــة كـــل وتـــر وخيـــبر ثـــم أجمعنـــا الســـيوفا

نخبرهـــا ولـــو نطقـــت لقالـــت قـــــواطعهن دوسًـــــا أو ثقيفـــــا

فلســـت لحاصـــن إن لم تروهـــا بســـــاحة داركـــــم منـــــا ألوفـــــا

فتنتـــــزع العـــــروس بـــــبطن وج ونـــــترك داركـــــم منـــــا خلوفـــــا

ونـــردي الـــلات والعـــزى وودا ونســـــلبها القلائـــــد والشـــــنوفا

أما كعب بن راوحه فنجد أنه تأثر تأثرًا بالقرآن والدعوة الإسلامية وبدأ هـذا التأثر واضحًا جليًا في ألفاظه ومعانيه حتى أنـه كـان يعـير القرشـيين بعـدم إيمانهـم يقول:

نجالد الناس عن عرض فنأسرهم فينـــا النبـــي وفينـــا تنـــزل الســـور

وقـــد علمـــتم بأنـــا لســـنا غالبنـــا حي من الناس إن عزوا وأن كثـروا

يـــا هاشـــم الخـــير إن الله فضـــلكم عــــلى البريـــة فضـــلًا مالـــه غـــير

فثبـــت الله مـــا آتـــاك مـــن حســـن تثبيت موسى ونصًرا كالذي نصروا

إن ابن راوحه أكثر شعراء المرحلة اقترابا من المعجم الإسلامي، ومـن سـلم قيم الدعوة، ولعله الأكثر اقترابًا من النابغـة الجعـدى في هـذه المنظومـة الإسـلامية

المتأثرة بالروح الجديدة والمتشربة لها والمتطلعة إلى المثل العليا، يقول ابن راوحه يهاجي أبا سفيان ويخاصمه مهاجمة كريمة غير مألوفة:

فأبلغ أبا سفيان إما لقيته		لئن أنت لم تخلص سجودا وتسلم

فبشر بخزي في الحياة معجل		وسربال نار خالدا في جهنم

حيث استخداماته المعجمية والمعنوية تنبع من مؤشرات الآيات القرآنية ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ۩ (٦٢)﴾[سورة النجم: الآية ٦٢]، ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)﴾[سورة البقرة: الآية ١١٢]﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤)﴾[سورة الرعد: الآية ٣٤]﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ[1] وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ (٥٠)﴾[سورة إبراهيم: الآية ٥٠]**وكذلك يقول نفس الشاعر:**

**شهدت بأن وعد الله حق		وإن النار مثوى الكافرينا**

**وأن العرش فوق الماء طاف		وفوق العرش رب العالمين**

**وتحمله ملائكة كرام		ملائكة الأله مقربينا**

إذ يرد معاني الآيات القرآنية:

﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥)﴾[سورة يونس: الآية ٥٥]﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ (١٧)﴾[سورة الحاقة: الآية ١٧]﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[سورة هود: الآية ٧]﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا

١- د/ عبدالله التطاوي: بحث بعنوان "الشعر والدعوة في صدر الإسلام نشر بكتاب الأدب في خدمة الدعوة حـ ١ القاهرة ٩٩ ص ١٠٥ ــ ١٤٣.

يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾[سورة الأعراف: الآية ٢٠٦]﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾[سورة التحريم: الآية ٦][1]

وكان الشعر يغلب عليه المقطوعات ويدلف الشاعر لغرضه مباشرة لأنه في معرض المعارضة ... يريد أن يستشف ويرد كيدهم إلى نحورهم ... وهناك أشعار أخرى لم تك في معرض المعارضة أو الفخر الإسلامي بل كانت أبيات عبارة عن فيض روحاني قال به الشعراء المسلمون عاكسة الاطمئنان النفسي والإحساس بالإيمان العميق مثل:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ... يحور رمادا بعدما هو ساطع

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولابد يومًا أن ترد الودائع

وله قصيدة مطلعها:

وقوله:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ... يحور رمادا بعدما هو ساطع

إن تقوى ربنا خير نفل ... وبإذن الله ريثي والعجل

أحمد الله ولا ند له ... بيديه الخير إن شاء فعل

من هداه سبل الخير اهتدى ... ناعم البال وإن شاء أضل[2]

واضح تأُثره بالمضامين الإسلامية تأثرًا كبيرًا وقد قيل إن الرسول أشاد بحكمة لبيد واعتبرها أصدق حكمة وقالت عائشة رضى الله عنها: رحم الله لبيدا ما أشعره في قوله.

١- د/ محمود حسين زيني: دراسات في أدب الدعوة الإسلامية ص ٢٥١.
٢- السابق صـ٢٤٤.

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرب

لا ينفعون ولا يرجى خيرهم ويعاب قائلهم وإن لم يشغب[1]

كذلك النابغة الجعدى كانت أشعاره تفيض بالروح السمحة للإسلام وتظهر مدى تشبعه بالمعاني الراقية للقرآن الكريم.

وبعد فتح مكة استقر الحال بالإسلام ودانت للإسلام ولرسوله كثير من القبائل والبلدان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل الجيوش أو الرسل للبقاع البعيدة يعرض عليهم الإسلام ويريهم سبل الحياة في ظل الدولة المسلمة ... ومن ناحية أخرى كانت القبائل والبلدان ترسل وفودًا لتطلع على ذلك الدين وتعرف سبل الحياة فيه مبادئه وإسلامه ولم يأت وفد ويعرض عليه الدعوة الإسلامية إلا ومَنَّ الله عليه بالإسلام ويشهر إسلامه ... حتى سمى هذا العام بعام الوفود لكثرة الآتين المعلنين الإسلام[2].

وكان وفد تميم من أكثر الوفود وقد حوى الشاعر والخطيب، فقد كان بن عطارد بن حاجب بن زراره التميمي ، والأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم المنقري وآخرين.

وأحضروا معهم بعض حلفائهم من بني فزاره من ذبيان ، وقام الشاعر والخطيب في الوفد يفاخر شاعر الإسلام وخطيبه.

والملاحظ أن كل "افتخر بما يملك فقد كان التميميون من الدين خواء فلم يجدوا شيئًا يفتخروا به سوى أنهم يملكون الجاه والمال والسؤدد.

١- السابق صـ ٢٤٥.

٢- كانت غزوة مؤته في العام الثامن واستشهد فيها الكثير من المسلمين ، ومنهم زيد بن حارثه وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن راوحه كان لها أثر عظيم في نفسية المسلمين لكن النصر الذي حققوه على قريش بالفتح وعلى أكبر قبيلتين هو ثقيف وهوازن بعد معركة حنين ثم انسحاب الرومان من أمام المسلمين في معركة تبوك التي قادها الرسول صلى الله عليه وسلم الأثر الأكبر في استقرار الوضع للرسالة المحمدية.

أما المسلمون .. فهم قوم آمنوا بالله ورسوله يملكون من جميل الخصال وحميد الفعال ما لا يقدر عليه غيرهم فقد حوى الحُسن الداخلي:

سجيةٌ تلك فهيم غير محدثةٍ — **أعفة ذكرت في الوحي عفتهم**

لا يفتخرون إذا نالوا عدوهم — إن الخلائق فاعلم شرها البدع

الحُسن الخارجي: فكل سبق لأدني سبقهم تبعوا ... قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم.

فقد فاخر بحميد صفات المسلمين وهم كوكبة يحيطون برسول الله صلى الله عليه وسلم وينافحون عن الدعوة منطلقين من عقيدة راسخة وإيمان قوي.

قال خطيبهم عطارد بن حاجب التميمي في خطبته.

"الحمد لله الذي له علينا الفضل والمن وهو أهله، الذي جعلنا ملوكًا، ووهب لنا أموالًا عظامًا، ففعل فينا المعروف وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثره عددًا، وأيسره عدة فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا برءوس الناس وأول فضلهم فمن فاخرنا فليعدد مثلما عددنا، وإنا لو شئنا أكثرنا من الكلام ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نعرف بذلك أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا وأمرًا أفضل من أمرنا ثم جلس"[1].

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس الخروجي أجب عنهم فقام فخطب فقال: "الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه عمله، ولم يك شيء قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكًا واصطفى من خير خلقه رسولًا، أكرمه نسبًا وأصدقه حديثًا وأفضله حسبًا فأنزل عليه كتابه وأئتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم عاد الناس إلى الإيمان، فأمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوي رحمه، أكرم الناس حسبًا، وأحسن الناس وجوها، وخير الناس فعالًا، ثم كان أول الخلق إجابة، واستجاب لله حين دعاه

١- سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٠٦-٢-٧ بتصرف واختصار.

رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله حتى يؤمنوا بالله، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبدًا وكان قتله علينا يسيرًا، أقول قولي هذا واستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات، [1] والسلام عليكم".

وأنشد شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال:

نحن الكرام فلاحي يعادلنا　　منا الملوك وفينا تنصب البيع[2]

وكم قسرنا من الأحياء كلهم　　عند النهاب وفضل العز يتبع[3]

ونحن نطعم عن القحط مطعمنا　　من الشواء إذا لم يؤنس القزع[4]

بينما ترى الناس تأتينا سراتهم　　من كل أرض هويا ثم نصطنع[5]

فننحر الكوم عبطا في أرومتنا　　للنازلين إذا ما أنزلوا شبعو[6]

فلا ترانا إلى حي نفاخرهم　　إلا استقادوا فكانوا الرأس تنقطع[7]

فمن يفاخرنا في ذاك نعرفه　　فيرجع القوم والأخبار تستمع

إنا أبينا ولا يأبي لنا أحد　　إنا كذلك عند الفخر نرتفع

فقال الرسول لحسان: قم فأجب الرجل فيما قال، **فقال حسان:**

إن الذوائب من فهر وإخوتهم　　قد بينوا سنة للناس تتبع[8]

١- السابق ص ٢٠٨.
٢- البيع: جمع بيعة، أماكن الصلوات والعبادات.
٣- قسرنا: أرغمنا – النهاب: الغنائم التي توزع على المحاربين من المهزومين.
٤- الشواء: اللحم المشوي – يؤنس: بنزل – القزع: المطر.
٥- سراتهم: أغنياؤهم وسادته – هويا: سراعا –نصطنع: نكرم.
٦- الكوم: جمع كوماء وهي العظيمة السنام من النوق – عبطا: أي عن علة – في أرومتنا: هذا الكرم متأصل فينا.
٧- استقادوا: اقتص منهم.
٨- المرجع السابق صـ ٢٠٩ باختصار.

يرضى بهم كل من كانت سريرته تقوى الآله وكل الخير يصطنع

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

سجية تلك فيهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع[1]

إن كان في الناس سباقون بعدهم فكل سبق لأدني سبقهم تبع

لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا[2]

إن سابقوا الناس يوما فاز سبقهم أو وازنوا أهل مجد بالندى متعوا[3]

أعفة ذكرت في الوحي عفتهم لا يطمعون ولا يرديهم طمع [4]

لا يبخلون على جار بفضلهم ولا يمسهم من مطمع طبع[5]

نسموا إذا الحرب نالتنا مخالبها إذا الزعائف من أظفارها خشعوا[6]

لا يفخرون إذا نالوا عدوهم وإن أصيبوا فلا خور ولا هلع [7]

كأنهم في الوغي والموت مكتنع أسد ببيشة في أرساغها فدع[8]

فإن في حربهم فاترك عداوتهم شرا يخاض عليه السم والسلع[9]

أكرم بقوم رسول الله شيعتهم إذا تفرقت الأهواء والشيع

١- سجية :طبيعة.
٢- ما أوهت: ما هدمت.
٣- متعوا: زادوا.
٤- لا يطبعون: لا يتدنسون.
٥- الطبع: الدنس.
٦ - نسمو: ننهض –الزعانف: أطراف الناس وأتباعهم، خشعوا: تذللوا.
٧- الخور: الضعف – الهلع: ككتب :الجازعون ومفردها هلوع.
٨- مكتنع: دان – بيشة: مأسدة باليمين –الأرساغ جمع رسغ وهو موضع القيد من الرجل – فداع: اعوجاع إلى ناحية.
٩- السلع: نبات مسموم.

فـإنهم أفضـل الأحيـاء كلهـم إن جد بالناس جد القول أو شمعوا[1]

فقال ابن اسحق:

فلما فرغ حسان من قوله، قال الأقرع بن حابس: وأبي، إن هذا الرجل لمؤتي له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا فلما فرغ القوم أسلموا وجازهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم وفيهم نزل القرآن: "إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون"[2]

يقول النابغة الجعدي:

أتينا رسول الله إذا جاء بالهدى ويتلو كتابا كالمجرة نيرا

جاهدت حتى ما أحس ومن معي سهيلا إذا ما لاح ثمت غورا

أقيم على التقوى وأرضى نعيمها وكنت من النار المخوفة أحذرا

وعندما ذكر هذا البيت:

علونا السماء عقبة وتكرما وأنا لنبغي فوق ذلك مظهرا

فغضب النبي وقال: أي مظهر يا أبا ليلى؟

فقال الجنة يا رسول الله، فقال: أجل إن شاء الله فقضت له دعوة الرسول بالجنة.

وعندما ذكر أبياتا أخرى من نفس القصيدة:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

---

١ - شمعوا: هزلوا.
٢ -المرجع السابق٢١٣.

فدعا له بدعوة أخرى "لايفضض الله فاك" فعمَّر ولم تسقط له ثنية[1].

ويقول صاحب دراسات في الأدب: إن النابغة الجعدى ربما استفاد من ثقافته الإسلامية في القرآن والحديث: لأن بيتين تضمنا معنى قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[سورة الأعراف: الآية ١٩٩]والآية الأخرى ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[سورة آل عمران: الآية ١٣٤]

وفي مواقف أخرى شدا النابغة بأشعار سياسية تضمنت روح الدين وكان يؤيد علي ابن أبي طالب وبعد وفاته أيد ابن الزبير وإليه يقول:

حكيت لنا الصديق وليتنا وعثمان والفاروق فارتاح معدم

وسويت بين الناس في العدل فاستوو فعاد صباحًا حالك واليل مظلم

وله قصائد أخرى كاملة تمضي في النسق الإسلامي ولا تحيد عنه على الرغم من دخوله معارك الهجاء مع الخصوم إلا أنه ظل أمينًا لمبادئه الدينية حتى النهاية يؤثر السلامة ولم يدخل نفسه في سباق العداوات التي أججها الأمويون مرة أخرى بالرغم من أنه كان شاعرًا قبليًا إلا أنه ظل مخلصًا لمبادئه الإسلامية حتى النهاية.

١ -العمدة ابن رشيق العمدة طبعة أولى بيروت ١٩٨٣ ص ٤١ انظر دراسات في أدب الدعوة ص ١٠٦.

الشعر في عصر الخلفاء الراشدين

استمر للشعر سلطانة على النفوس في عهد الخلفاء الراشدين وإن كان بدأ يعلو صوته أحيانًا وينخفض تارة أخرى.

- **خليفة رسول الله أبو بكر الصديق:**

كان أبو بكر الصديق .. لين الجانب –رقيق العاطفة يفيض رحمة على المؤمنين فما كاد يتولى الخلافة حتى أمده الله بقوة خارقة على مجابهة المعتدين والمعاندين والوقف في وجوههم فقد رأي أن ينشر الإسلام خارج الجزيرة العربية بعد أن استقرت الأمور وجعلت الجزيرة قبلة العرب معين الإسلام ومنبع الإيمان.

ووجه أبو بكر بعدة مشاكل ....

أولًا: أولئك الذين طغت عليهم النزعة الشحيحة ارتأوا أن يكفوا عن تأدية الزكاة وحينما سئل الصحابة في ذلك قيل إنه لا طاقة لنا بقتال العرب جميعًا فقال قولته المشهورة: "والله لأن أخر من السماء فتخطفني الطير أحب إلي من أن يكون رأي هذا ثم صعد المنبر وخطب في الناس: والله لو منعوني عقالًا لجاهدتهم عليهم ثم أرسل الجيوش بقيادة خالد بن الوليد فهزمهم وانتصر عليهم.

ثانيًا: ظاهرة التنبؤ تفشت ظاهرة التنبؤ بعد انتقال رسول الله ففي بني أسد ظهر طليحة بن خولد وتبعتها عطفان وفي بني حنفيه .... ظهر مسيلمة الكذاب وفي نجران واليمن وحضرموت ظهر الأسود العنسي متنبئ أخر يسمى قيس بن يغوث ليس هذا فحسب بل إن تميم مشيت وراء إمرأة تنبأت وهي سجاع.

لكن خليفة رسول الله سير الجيوش لقتال هؤلاء المنشقين بقيادة خالد فهزمهم جميعًا وانتصر عليهم فالتقى بمن ارتد من بني أسد وغطفان عند "بئر بزاخه" والحق بهم هزيمة نكراء والتقى ببني حنيفة عند "عقربة" فألحق بهم الهزائم

وقتل مسيلمة كما استسلمت سجاع بعد مناوشات وقد تحدث كثير من الشعراء عن هذه الأحداث يقول الحارث بن مره في وعظة لبني عامر.

بني عـامر إن تنصـروا الله تنصـروا وإن تنبصـوا الله والـدين تخـذلوا

وإن تهزمـوا لا يـنجكم منـه مهـرب وإن تثبتـوا للقـوم والله تقتلـوا

وكان هناك كثير من الشعراء يـدعون القبائـل المرتـدة إلى الارتـداد للجـادة البيضاء والإياب إلى دين الله.

يقول:

وليـت أبـا بكـر يـرى مـن سـيوفنا ومـا تخـتلى مـن أذرع ورقـاب

ألم تـــر أن الله لا رب غـــيره ويصب على الكفـار سـوط عـذاب

وقد سيرت الجيوش العديدة للدعوة إلى دين الله فأسـلمت الحـيرة وجنـوبي العراق في فتح للمثني بن حارثه وخالد بن الوليد وجيشـت الجيـوش لغـزو الشـام إحداها بقيادة عمرو بن العاص، والأخر بقيادة يزيد بن أبي سـفيان ، شرحيـل بـن حسنه وانتصر في فلسطين ثم لحقهما خالد بـن الوليـد. وجعـل لـه إمـارة الجيـوش فانتصر على أرطبون في موقعة أجنادين كما انتصرـ في موقعـة اليرمـوك – رافـد مـن روافد نهر الأردن –على حد قول د/ شوقي ضيف– وحـاصر دمشـق واسـتطاعت جماعة من جيوشه أن تستولي على حمص.

وبذلك ختم أول الخلفاء الراشدين حياته وقد ازدادت الرقعة الإيمانية وعـم الإسلام كثير من الأرجاء وبكاه كثيرون من الشعراء **يقول: حسان بن ثابت.**

إذا تـذكرت شـجوا مـن أخـي ثقـة فـاذكر أخـاك أبـا بكـر بـما فعـلا

التـالي الثـاني المحمـود سـيرته وأول الناس مـنهم صـدق الرسـلا

وثـاني اثنـين في الغـار المنيـف وقـد طـاف العـدو بـه إذا صـعد الجـبلا

وكـان حـب رسـول الله قـد علمـوا خـير البريـة لم يعـدل بـه رجـلا

• أمير المؤمنين عمر بن الخطاب:

تولى عمر بن الخطاب الخلافة والحياة الإيمانية مستقرة فعمد إلى نشر الإسلام وفتح البلاد التي لم يصل إليها نور الإسلام فأرسل عمرو بن العاص بجيش لفتح مصر وعزل خالد بن الوليد، من الجيوش في الشام وجعل الولاية لأبي عبيدة بن الجراح يعاونه خالد.

وفي الشرق أرسل أبو عبيد الثقفي بمدد إلى عمر المثنى بن حارثه وانتصر المسلمون في سلسلة من الوقائع عند البويت وقس بن الناطف وكانت معركة القادسية هي المعركة الفاصلة بين المسلمين والفرس... فقد توفى .. المثني بن حارثه فخلفه سعد بن أبي وقاص، وأحرز نصرًا مؤزرًا وهزم الفرس وقتل قائدهم رستم.

وتبعت الجيوش الإسلامية فلول الفرس الفارين حتى إيران بقيادة ابن مقرن وعندما توفي خلفه حذيفة بن اليمان واستولى على نهاوند ثم أصفهان ثم اصطخر ... وعاش يزدجرد طريدًا حتى أرسل عامل خرسان له من قتله في مخبئه.

والأشعار الحماسية التي تلهب النفس وتدفع الجند إلى الاستبسال كثيرة ومتنوعة.

وفي الجانب الأخر كانت الأسر التي تشتاق إلى جنودها كل أسرة تتحدث عن آلم الفراق وتمني اللقاء والدعوة بالنصر يقول البريق بن عياض الهزلي.

وإن أمسِ شـيخًا بـالربيع ولـده وتصبح قومي دون دارهـم مصـر

أسـائل عـنهم كلـما جـاء راكـب مقـيمًا بـأملاح كـما ربـط اليعـر

فما كانت أخشى أن أقيم خلافهم لسـتة أبيـات كـما نبـت العـترو

يقول د/ شوقي ضيف[1]:

وكان عمر ينهي من لهم آباء شيوخ يعولونهم عن الهجرة برًا بهم، ويروي أن المخبل السعدى جزع جزعًا شديدًا حين هاجر ابنه شيبان لحرب الفرسان مع سعد بن أبي وقاص، وكان قد أسن وضعف، فافتقد ابنه فلم يملك الصبر عنه، ومضى إلى عمر فأنشده أبياتًا يقول فيها:

إذ قال صبحي يا ربيع ألا ترى؟ أرى الشخص كالشخصين وهو قريب
ويخبرني شيبان أن لم يعقني تعق إذا فرقتني وتحوب[2]

ثم قتلت يد الغدر الخليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وحزن المسلمون ورثاه الكثيرون ومنهم جزء بن خرار أخو الشماخ بقوله:

جزى الله خيرًا من أمير وباركت أرى الشخص كالشخصين وهو قريب
فمن يسع أو يركب جناحي نعامة ليدرك ما حاولت بالأمس يسبق
قضيت أمورًا ثم غادرت بعدها بوائق في أكمامها لم يفتق[3]

كذلك هناك قصائد –مرثيات رائعة لمن فقدوا، يقول أحدهم تعليقًا على معارك الطالقان جوزجان في عهد عمر بن الخطاب.

سقى مزن السحاب إذا استهلت مصارع فتية بالجوزجان
وما بي أن أكون جزعت إلا حنين القلب للبرق اليماني
ورب أخ أصاب الموت قبلي بكيت ولو نُعِيتُ له بكاني

١ - العصر الإسلامي صـ ٥٦ – ٥٧.
٢ -تحوب: تأثم.
٣ - البوائق: الدواهي. تفتق: تنشق عن ثمرها. والاستعارة واضحة.

وكان الشعراء ... يعبرون عن كل الأحوال لم يقتصر شعرهم على الحماس أو المراثي فقط بل كانوا يتحدثون عن كل شيء كالشكوى من العمال والولاة إذا لم يحسنوا السيرة أو وصف للبلدان التي يفتتحوها أو العقبات التي اجتازوها.

- **ثالث الخلفاء عثمان بن عفان:**

حينما تولى عثمان بن عفان الحكم بعد وقوع اختيار المسلمين عليه انفذ سياسة عمر فقد رشح عمر بن الخطاب ست من الأوائل كان رسول الله عنهم راضي، وهم عثمان بن عفان، عبدالرحمن بن عوف، علي بن أبي طالب، طلحه بن عبدالله، الزبير بن العوام، سعد بن أبي وقاص وقد أوفد معاوية بن أبي سفيان على حكم الشام.

ومضت الجيوش في الفتوح فقد ولى عبدالله بن سعد بن أبي سرح ولاية مصر بعد عزل عمرو بن العاص ففتح أفريقيا ثم تندلع الثورات ضد سياسة عثمان من تولية أقاربه وورعه وتقواه فقد أسن وضعف.

بالإضافة إلى أن عمر كان قد أقر خمس الغنائم للجيش على أن تستأثر الدولة بالفيء وهو الأرض الثابتة التي يؤدى عنها أهلها مبلغًا محددًا.

فأراد الجيش مشاركة الدولة في الفيء لكنهم خجلوا من عمر لقوة شخصيته .... حتى جاء عثمان فاندلعت الثورات في الكوفة بقيادة الاشتر النخعي وفي مصر قادها محمد بن أبي حذيفه ، ومحمد بن أبي بكر الصديق ، وقتل ثالث الخلفاء الراشدين ورثاه شعراء عديدون يقول أيمن بن خزيم.

ضحوا بعثمان في الشهر الحرام ضحى ... وأي ذبح حرام لهم ذبحوا

إن الذين تولوا قتله سفهًا ... لاقوا أثامًا وخسرانا فما ربحوا

ماذا أرادوا أضل الله سعيهم ... بسفحهم للدم الزكي الذي سفحوا

• آخر الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب:

كان أكبر المهاجرين سنًا وأرسخهم مكانة في نفوس المؤمنين علي بن أبي طالب وحينما تقلد الخلافة رفضه البعض منهم طلحة بن عبدالله والزبير بن العوام وأيدتهما السيدة عائشة .. وكانت الجموع الإسلامية مستاءة من مقتل عثمان وقد عبر عن ذلك الشعر بشكل جيد يقول الوليد بن عقبه.

وإنا وإياكم وما كان منكم   كصدع الصفا لا يرأب الصدع شاعبه

هم قتلوه كي يكونوا مكانه   كما غدرت يومًا بكسرى مرازبه

وقد مضى يحرض معاوية على الأخذ بثأره في أشعار كثيرة[1] وتطورت الأمور، ونشبت موقعة الجمل بين علي وبين طلحة والزبير والسيدة عائشة، ودوت في هذه الوقعة أشعار حماسية كثيرة[2] من مثل قول القائل[3]:

نحن بنو ضبة أصحاب الجمل   ننعى ابن عفان بأطراف الأسل

ننازل الموت إذا الموت نزل   والموت أشهى عندنا من العسل

والتقى علي بمعاوية في صفين، وحمى وطيس المعارك، وتنادى الشعراء يهددون ويتوعدون، وكل يعتقد أن الحق في جانبه، من مثل قول أبي الطفيل عامر بن واثلة يصف بعض أنصار علي:

كهول وشبان وسادت معشر   على الخيل فرسان قليل صدودها

شعارهم سيما النبي وراية   بها انتقم الرحمن من يكيدها

---

١ - انظر الأغاني (طبع دار الكتب) ١٢٢/٥ وما بعدها والاستيعاب ص ٦٢٢ والطبري ٤٤٩/٣.
٢ - تاريخ الطبري ٥٢٢/٣ وما بعدها.
٣ - الطبري ٥٢٧/٣.

وردّ عليه خزيمة الأسدي يصف جيش معاوية[1]

ثمانـــون ألفًـــا ديـــن عـــثمان ديـــنهم **كتائـب فيهـا جبرئيـل يقودهـا**

فمن عاش منكم عاش عبدًا ومن يمـت **ففي النار سقياه هناك صـديدها**

ويفيض كتاب واقعة صفين لنصر بن مزاحم بأشعار كثيرة اندلعت فيها نيران العصبيات القبلية[2]، وقد يكون دخلها انتحـال ووضـع واسـع، ولكـن في تـاريخ الطبري وفي كتب الأدب وكتب الصحابة ما يكفي لبيان ما انزلق على الألسـنة مـن أشعار ملتهبة[3]. وقد تلت ذلك وقعة النهروان بين على والخوارج، ومنذ خروجهم وشعرهم لا يخمد له أوار. ومن غير شك أذكت كل هذه الأحـداث جـذوة الشـعر العربي إذكاء وأشعلها إشعالًا.

فما عرفت الأمة الإسلامية الاستقرار منذ ذلك الحين ؛ وإن اختلفت أشكال الصراع وأسبابه وأطرافه لكن لم تتحد قط منذ ذلك الحين يقول د/ شوقي ضيف[4].

وكان عليّ يعد أكبر الشخصيات بين المهاجرين، فبايعه الثوار وبايعته المدينة ، ولكن هذه البيعة لم ترض طلحة والزبير، وانضمت إليهما السيدة عائشة أم المؤمنين، فأعلنوا سخطهم، وولوا وجوههم نحو البصرة مستنفرين النـاس ضـده، وتـبعهم عليّ، فنزل في الكوفة، ولم تلبث الحرب أن نشبت بين الفريقين، وسرعان مـا انتصرـ عليّ في موقعة الجمل المشهورة، وقتل طلحة والزبير وانسـحبت عائشـة إلى المدينـة. وكان علي قد عزل معاوية ابن عم عثمان وواليه على الشام، فلم يصدع لأمره واعتبر نفسه ولي دم عثمان، فجهز الجيوش لحربه وانضم إلى معاوية عمرو بن العاص وكثير

---

١ - أغاني (طبعة دار الكتب) ١٥/ ١٤٩.
٢ - واقعة صفين (بتحقيق عبد السلام محمد هرون) نشر المؤسسة العربية الحديثة ص ١٣٧، ٣١٢، ٣٤٧، ٣٧٦، ٤٨٧ وفي مواضع متفرقة.
٣ - انظر الطبرى ٤/١٦ وما بعدها.
٤ -

من قريش. وسار إليه عليّ بمجموعـة، فـالتقوا عـلى الحـدود العراقيـة السـورية في صفين الواقعة على الضفة اليمنى للفرات، واحتدمت معركة عنيفة كاد فيها النصرـ أن يكتب لعلي، غير أن معاوية عمد –بمشورة عمـرو بـن العـاص– إلى الحيلـة، إذ جعل طائفة من جنوده ترفع المصاحف على أسنة رماحها طالبة الاحتكام إلي القرآن ووقف هذه الحرب المبيرة للمسلمين، تنبه على للحيلة غير أن كثـرة جيشـه أجبرتـه على وقف القتال والدخول مع معاوية في مفاوضات. واتفق الفريقـان عـلى اختيـار حكمين، هما عمرو بن العاص عن معاوية، وأبي موس الأشعري عن عـليّ لـيحكما بينهما على أساس من القرآن.

واستطاع عمر أن يقنع أبا موسى بخلع عليّ ومعاوية معًـا. ولم يلبـث مركـز "عليّ" أن تزعزع في العراق، لإن طائفة كبيرة من جيشه كانت قد أسرعت منذ قبوله التحكيم إلى الخروج عليه، واتخذت معسكرًا لهـا في حـروراء بـالقرب مـن الكوفـة وبايعت عبدالله بن وهب الرأسبي بالخلافة. فلما ظهرت نتيجة التحكيم انضم إليها كثير من أتباع على . وعبثًا حاول إقناعهم بخطئهم، ولم ير أخـيرًا بـدا مـن حـربهم، فالتقى بهم عند مصب قناة النهروان في دجلة وهزمهم هزيمة ساحقة.

ويلاحظ على هذه الأشعار:

١. **صبغتها بالصبغة الشعبية في التعبير والأداء**، فلا نجـد لهـا جـودة سـبك ولا إتقان الشعراء المجودين.
٢. **الاختلاف** في نسبها فإن معظم الناظمين إما من عامة الجند المغمورين أو من الذين لا يهتمون بنسبة الأشعار إليهم...

فقد كان يروى سمع بنحو ذلك في عامة بـلاد العـرب فقـد شـاعت بعـض المقطوعات الشعرية حتى أخذت شكل الأمثال في سيرورتها وانتشارها دون الاهتمام بقائلها.

٣. **الإيجاز والتركيز** فهي مقطوعات وليدة مواقف معينة عاشها الناظم وتأثر بها فانطلق لسانه معبرًا عنها مجسدًا مشاعره في ألفاظ.

٤. **البساطة وعدم التكلف** فالشاعر يتحدث معبرًا عما يجيش به صدره دون تفكير في تنقيح أو تصفية أو تهذيب.

٥. **يسيطر على المقطوعات روح القتال والمعارك** مما يؤكد انشغال القائل بجو القتال مما يعوق إعادة النظر فيما ينظم.

٦. **المضمون الشعري** لتلك المقطوعات يشبع فيه التغني بالبطولة والقوة والشجاعة والبسالة في مقاتلة الأعداء وإحراز النصر.

٧. **معظم هذه الأشعار جاءت على وزن الرجز** لسرعته واستيعابه لتدفق المعنى وسرعة أداء الراجز،والبعض الأخر جاء على الأوزان الشعرية المعروفة.

الحديث الشريف

هو كل ما حكى عن الرسول من قول أو فعل أو تقرير .... فهو واسع شامل من وصف أحداث ومواقف كانت لرسولنا الكريم على مشهد من الصحابة ورواها الرواة لا حق عن سابق لكي نتأسي ونقتدي به امتثالًا لأقواله ومحاكاة لأفعاله صلى الله عليه وسلم وكما قال تعالى: "ولكم في رسول الله أسوة حسنة".

مكانة الحديث الشريف :

وللحديث الشريف مكانة سامقة فقد نيط به تفسير مجمل الدين وتوضيح طرق الأداء وبيان ما يجوز فيه وما يمتنع عليه ، لذا نص رسول الله على أهمية أحاديثه حين قال "اللهم أرحم خلفائي قلنا ومن خلفاءك يا رسول الله قال الذين يروون أحاديثي ويعلمونها للناس" وقد ورد إنه أمر بعض أصحابه أن يكتبوا لرجل يمنى خطبه سمعها منه تضمنت بعض الأحكام الدينية.

فقد كانت الدعوة في طورها الأول والثاني قريبي العهد بالإسلام .... ولا مصدر ثالث له ، أما القرآن الكريم أو السنة الغراء لكي يفهموا دينهم ويعملوا بأوامره ويجتنبوا نواهيه، لذا كان دائمًا ما يكررﷺ: "احفظوا أحاديثي وأخبروا بها من وراءكم من العشائر".

تدوين الحديث:

لم ينتشر تدوين الحديث إبان حياة رسول الله وإن كان موجودًا لكنه لم يك شائعًا فقد رخص النبي في بعض الأحوال لنفر من الصحابة أن يكتبوا حديثه ، وقد أذن لرجل من الأنصار شكى إليه سوء حفظه لما يسمع منه أن يستعين على حفظه

بيمينه[1]، وعن رافع بن خديج قال: قلنا يا رسول الله إنا نسمع منك أشياء فنكتبها قال اكتبوا ولا حرج[2].

.... لكن مع ذلك لم يك تدوين الحديث أمرًا شائعًا حيث كانت الدعوى في مبتدئها، وكان يخشى الخلط واللبس بين أي القرآن والأحاديث النبوية، وقد ورد عنه أنه قال لأصحابه لا تكتبوا عني شيئًا إلا القرآن فمن كتب شيئًا فليمحه[3].

وقد امتثل الصحابة للنهي فلم يكتبوا الكثير في حياته وعندما انتقل للرفيق الأعلى راودت الفكرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ثم عاد وخشى عواقبها. وقال: "إني كنت أردت أن اكتب السنن وأني ذكرت قومًا كانوا قبلكم فكتبوا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله تعالى وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبدًا[4] وانتهج نهجه كثير من الصحابة زيد بن ثابت – أبو هريرة ، وأبي سعيد الخضري، يرون الأحاديث ولا يدونونها هم وكثير من التابعين.

وإن كان البعض بدء في التدوين ، لكن لم يدون بشكل مكتمل في القرن الأول للهجرة ... وحينما تولى عمر بن عبدالعزيز ٩٩-١٠١ أمر بتدوين وكتب إلى الآفاق- بعد موت كثير من حفظته ورواته... "انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه" واسند المهمة لأبي بكر الخزمى لكنه توفى قبل أن يتم ابن حزم ما عمله ... ويعد بن شهاب الزهري أول من قام بتدوين الحديث بالشكل المتعارف عليه، ثم توالت المؤلفات وتعددت أشكالها حتى ظهر موطأ مالك ثم صحيح البخاري وصحيح مسلم.

---

١ - تقيد العلم للخطيب البغدادي ط يوسف العش صـ ٦٥.
٢ - تقيد العلم للخطيب البغدادي ط يوسف العش صـ ٧٢.
٣ - المرجع السابق صـ ٢٩.
٤ - السابق صـ ٤٩.

بلاغة الحديث الشريف

وقد ضرب الرسول المثل الأعلى في الفصاحة والبلاغة وحسن البيـان بـل أن قد جمع بين المتضادات بـين الجزالـة والوضـوح، الفصـاحة والبعـد عـن التكلـف، والبساطة والتمثيل والتصوير والاختصار.... فكثير ما يكون الكلام الفخـم مـبهمًا بعيدًا عن الإفهام والتوضيح مائلًا إلى الغرابة والتعتيم ... لكن حـديث رسـول الله بعيد عن تلك الخلة، ساميًا عنها،من الأحاديث ما يصور الروعة البيانيـة للحـديث الشريف.

١- عَنْ أَبِي هُرَيْـرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْـهُ، أَنَّ رَسُـولَ اللهَّ ﷺ قَـالَ:إِنَّ "مَـثَلِي وَمَثَـلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَـةٍ مِـنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ" [١].

٢- عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِـهِ كَمَثَـلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ، فَقَالَ: يَـا قَـوْمِ إِنِّي رَأَيْـتُ الجَيْشَ بِعَيْنَـيَّ، وَإِنِّي أَنَـا النَّـذِيرُ الْعُرْيَانُ، فَالنَّجَاءَ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَدْلَجُوا فَانْطَلَقُوا عَـلَى مُهْلَـتِهِمْ، وَكَـذَّبَتْ طَائِفَـةٌ مِـنْهُمْ فَأَصْـبَحُوا مَكَـانَهُمْ، فَصَـبَّحَهُمُ الجَـيْشُ فَـأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَـلُ مَـنْ عَصَـانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الحَقِّ ". [٢]

١- صحيح البخاريكِتَابُ المَنَاقِبِ بَابُ خَاتِمِ النَّبِيِّينَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٤/ ١٨٦)،صحيح مسلم كتاب الفضائلبَابُ ذِكْرِ كَوْنِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ (٤/ ١٧٩٠)

٢صحيح البخاري كتاب الرقاق باب الِانْتِهَاءِ عَنِ المَعَاصِي(٨/ ١٠١).
صحيح مسلم كتاب الفضائل بَابُ شَفَقَتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أُمَّتِهِ وَمُبَالَغَتِهِ فِي تَحْذِيرِهِمْ مِمَّا يَضُرُّهُمْ(٤/ ١٧٨٨).

٣- عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ أُمَّتِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَتِ الدَّوَابُّ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهِ، فَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ وَأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فِيهِ». [١]

٤- عن ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهٌ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" إِنَّمَا أَجَلُكُمْ فِي أَجَلِ مَنْ خَلاَ مِنَ الأُمَمِ، كَمَا بَيْنَ صَلاَةِ العَصْرِ، وَمَغْرِبِ الشَّمْسِ، وَمَثَلُكُمْ وَمَثَلُ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَعْمَلَ عُمَّالًا، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ، فَعَمِلَتِ اليَهُودُ، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى العَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ، فَعَمِلَتِ النَّصَارَى، ثُمَّ أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ مِنَ العَصْرِ إِلَى المَغْرِبِ بِقِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، قَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ عَمَلًا وَأَقَلُّ عَطَاءً، قَالَ: «هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟» قَالُوا: لاَ، قَالَ: «فَذَاكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ شِئْتُ». [٢]

٥- عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ:" إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ، وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ، وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً "[٣]

٦- عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ: كَالأُتْرُجَّةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَالَّذِي لاَ يَقْرَأُ القُرْآنَ: كَالتَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلاَ رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ: كَمَثَلِ

١-صحيح البخاري كتاب الرقاق بَابُ الِانْتِهَاءِ عَنِ المَعَاصِي(٨/ ١٠٢)
صحيح مسلم كتاب الفضائل بَابُ شَفَقَتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أُمَّتِهِ وَمُبَالَغَتِهِ فِي تَحْذِيرِهِمْ مِمَّا يَضُرُّهُمْ(٤/ ١٧٨٩).
٢صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن بَابُ فَضْلِ القُرْآنِ عَلَى سَائِرِ الكَلاَمِ (٦/ ١٩١).
٣صحيح البخاري كتاب البيوع بَابٌ فِي العَطَّارِ وَبَيْعِ المِسْكِ(٣/ ٦٣)
صحيح مسلم كتاب البرِّ وَالصِّلَةِ والآداب باب اسْتِحْبَابِ مُجَالَسَةِ الصَّالِحِينَ، وَمُجَانَبَةِ قُرَنَاءِ السُّوءِ (٤/ ٢٠٢٦)

الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ، وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الفَاجِرِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ القُرْآنَ: كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌّ، وَلاَ رِيحَ لَهَا "(١)

٧- عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ القُرْآنِ، كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ المُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ»(٢)

٨- أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الزَّرْعِ لَا تَزَالُ الرِّيحُ تُمِيلُهُ، وَلَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ يُصِيبُهُ الْبَلَاءُ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ شَجَرَةِ الْأَرْزِ، لَا تَهْتَزُّ حَتَّى تَسْتَحْصِدَ»(٣)

٩- عن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى»(٤)

١٠- عنْ جَابِرٍ بْنُ عَبْدِ الله قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ كَمَثَلِ نَهْرٍ جَارٍ، غَمْرٍ عَلَى بَابِ أَحَدِكُمْ، يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ». قَالَ: قَالَ الْحَسَنُ: «وَمَا يُبْقِي ذَلِكَ مِنَ الدَّرَنِ؟» (٥)

١١- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَثَلُ الَّذِي يَرْجِعُ فِي صَدَقَتِهِ، كَمَثَلِ الْكَلْبِ يَقِيءُ، ثُمَّ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ فَيَأْكُلُهُ»(٦)

١-صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن بَابُ فَضْلِ القُرْآنِ عَلَى سَائِرِ الكَلاَمِ(٦/ ١٩١).
١- صحيح مسلمكِتَابُ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا بَابُ فَضِيلَةِ حَافِظِ الْقُرْآنِ(١/ ٥٤٩)
٢-صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن بَابُ اسْتِذْكَارِ القُرْآنِ وَتَعَاهُدِهِ (٦/ ١٩٣)
صحيح مسلم كِتَابُ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا بَابُ الْأَمْرِ بِتَعَهُّدِ الْقُرْآنِ، وَكَرَاهَةِ قَوْلِ نَسِيتُ آيَةَ كَذَا، وَجَوَازِ قَوْلِ أُنْسِيتُهَا(١/ ٥٤٣)
٣-صحيح البخاري (٧/ ١١٥)صحيح مسلم (٤/ ٢١٦٣)
٤-صحيح البخاري (٨/ ١٠)صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٩)
٥-صحيح مسلم (١/ ٤٦٣)
٦-صحيح البخاري (٩/ ٢٧)صحيح مسلم (٣/ ١٢٤٠)

١٢- عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَثَلُ الْمُنَافِقِ، كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ تَعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً».[1]

١٣- عن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا "[2]

فهذا تمثيل لحالة طائفة في (الأسفل) تعمل لرحمة من هم في (الأعلى): عاطفة شريفة ولكنها سافلة، وحمية ملتهبة ولكنها باردة، ورحمة خالصة ولكنها مهلكة، ولن تجد كهذا التمثيل في تصوير البلادة الاجتماعية والنفلة الفلسفية لأناس هم عند أنفسهم أمثلة الجد والعمل والحكمة، فكأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول لهؤلاء من ألف وثلاثمائة سنة: أنتم المصلحون إصلاحًا مخروقًا...

فهذا الحديث يوضح الحرية: حدودها وضوابطها، فالحرية مكفولة طالما لم تنحط إلى إهلاك الغير، وإيقاع الضرر بهم لأنه حتمًا ولا بد سيؤدي إلى فاعله ويضره وتكون السفينة أوسع قبر له ولهم ، ففي كلمات قوية تحسم صعوبة الموقف وضرورة التصدي لبعض الذين لا يضرون بغفلتهم أنفسهم فقط بل يضرون غيرهم أيضًا، ونجد الرسول ﷺ يلتمس الإفهام بشتى السبل ومختلف الوسائل ... حتى إن العقاد علق على تلك الصفحة في عبقرية محمد قائلًا : إن السمة الغالبة على أسلوب النبي ﷺ هي سمة الإبلاغ قبل كل سمة أخرى بل هي السمة الجامعة التي لا سمة غيرها لأنها أصل شامل لما تفرق من سمات هي منها بمثابة

١صحيح مسلم (٤/ ٢١٤٦).
٢صحيح البخاري كتاب الشركةبَابٌ: هَلْ يُقْرَعُ فِي القِسْمَةِ وَالِاسْتِهَامِ فِيهِ(٣/ ١٣٩)

الفروع وكلام النبي المحفوظ بين أيدينا، إما معاهـدات وإمـا رسـائل وإمـا خطـب وأدعية ووصايا... والإبلاغ هو السمة الواضـحة في أفـانين هـذا الكـلام جميعًـا[1].

ولعل الإبلاغ هو السمة التي يتمسك بها الإعلامي في الحديث عن رسـول الله فـإن د/ عبد العزيز شرف -عليه رحمة الله - تحدث عن الإبلاغ عند رسول الله وكيف أنه الإعلامي الأول في التاريخ البشري الذي تحققت على يديه أركان الرسالة الإعلامية من رسالة تحوي مبادئ وأسس – راسل وهو الرسول- وسيلة وهي ما أشار إليهـا العقاد ... وما أكثر وسائله ﷺ أما خطب أوأحاديث حسب مقتضيات الأحوال. فاليوم الواحد كان يحوي من الأحاديث الكثير منها ما هو في العقيدة، وفي الأحوال الدنيوية- في التوجيه السلوكي، وفي الإقرار أو النهي لما يفعله الصـحابة والرسـول عليه الصلاة والسلام لم يأخذ شكلًا تعبيريًا واحدًا بل الأسـلوب الأدائـي للمعنـى لديه كان فريدًا فهو القائل:

عن عامر قال: سمعت النعمان بن بشير –رضى الله عنه يقول: سمعت رسـول الله ﷺ- يقول: "الحلال بين[2] والحرام بين وبينهما متشابهات[3]لا يعلمهـا كثـير مـن النـاس، فمـن اتقـى الشـبهات[4]. فقـد اسـتبرأ لدينـه وعرضـه[5]ومـن وقعفـي الشبهات[6]كراع يرعى حول الحمي يوشك أن يواقعه، آلا وأن لكل ملـك حمـي آلا وأن حمي الله محارمه، آلا وأن في الجسد مضغة إذا صـلحت صـلح الجسـد كلـه وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب.

---

١ - عبقرية محمد - ٧١.
٢ - واضح ظاهر.
٣ - أمور متشابهة لا يقطع فيها بحل أو حرمة على وجه اليقين.
٤ - باعد بينه وبين الأمور المتشابهة.
٥ - طلب البراءة لدينه من الطعن ولعرضه من الخدش.
٦ - خالطها ومارنها.

المعني والبيان

أ. يقول الراوي للحديث الشريف (سمعت) وهو يشير إلى غاية التثبيت والتحقيق نتيجة للسماع المباشر من النبي عليه السلام دون واسطة من نقل أو حكاية عن آخر قد تدركه آفة من نسيان أو سهو.

ب. الحلال بيِّن والحرام بيِّن – أسلوبان أخباري ان يقطعان بالبيان والوضوح لكل منهما ، وهذا يدعو إلى واحدة النفس والاطمئنان في ممارسة الحلال والنفرة والبعد عن الحرام.

ج. بين الحلال والحرام فجوة تكون الأمور فيها غير واضحة الحل والحرمة تمام الوضوح، وموقف الناس فيما يتعلق بالأمور المشتبهة: أما راغب حريص على البراءة لدينه من أن يطعن عليه شيء، ولعرضه من أن يخدش أو يلوث، والتعاطي لتلك الأمور المشتبهه يعرض نفسه لأن تجره إلى مفارقة الحرام.

وأما مستبيح لنفسه الرتع في فجوة المشتبهات اطمئنانًا منه على أنه لم تتضح حرمة التناول لها، وفي هذا مخاطرة حيث أن استمرار التعاطي للمشتبه ربما يجره إلى الوقوع في المرتع المحرم بفعل ما بينها من القرب والمجاورة والرضوخ للإغراء بطيب المرعى.

د. يمكن الإدراك لجمال التعبير بالأسلوب (استبرأ) الدال على طلب البراءة للنفس؛ باستعمال تعبير خاص تميزت به اللغة العربية عن غيرها من اللغات وذلك بزيادة (الألف والسين والتاء) في صدر الفعل ليدل على الطلب والذي لا يمكن الوصول إليه في أي من اللغات الأجنبية إلا بزيادة كلمة تؤدي معني البراءة تضاف إلى الفعل برئ.

ه. التقسيم الثلاثي للحلال والحرام والمشتبه ، وجعل الحلال في جانب والحرام في الجانب الأخر، وتوسط المشتبه بين الاثنين، وقوة التصوير في جعل

المتعاطي للمشتبه من الأمور كراع يرعى على سبيل التشبيه مما يبرز معنى المخاطرة ويحسمها حثًا للنفس على المباعدة بينهما وبين التعاطي للمشتبهات المفضية إلى الوقوع في المحرم نتيجة للاندفاع أو الانحراف أو الخطأ الغير مقصود، فالحيوان الراتع إلى جوار المرعى الخصيب لا يضمن الراعي فيه للحيوان لزوم المشتبه فقط ، فربما مد فمه أو تناول من الحمى المحروم في حال غفلة منه، وتلك أحوال النفس الراتعة إلى مجاور الحمي المحرم.

و. كما أن لكل ملك حدودًا وحمي يحرص على آلا يقربها أحد فكذلك الله – جلت قدرته– وحماه حدوده ومحارمه التي يتعين على الحريص على دينه آلا يتعدى عليها أو يقاربها مبالغة منه في الحرص على عدم المقارفة للمحرم.

ز. يمكن أن نلحظ دقة التعبير في استخدام لفظ (يواقعه) في: يوشك أن يواقعه يفيد معني (المفاعلة) من الجانبين بحكم الصيغة التي تشعر بالمجاذبة بين النفس الراغبة في الرتع فيما حرم، وفيما عليه المحرم من مغريات تدفع المقارفة له وارتكابه.

ح. نجد زيادة الأداة (آلا) قبل الجمل الثلاث المتوالية (آلا وأن لكل ملك ... ألا وأن حمي الله .... آلا وأن في الجسد مضغة) وزيادة تلك الأداة في صدر تلك الجمل مشعر بأهمية المعني التالي لها في حملها، وزاد المعنى قوة باستخدام أداة التوكيد (آلا) مع كل جملة وقدم الخبر في جملة (لكل ملك حمي) ليشعر بعموم هذا المفهوم عند كل فرد ممن ملكوا، بحيث لا ينفصم ملك عن الإحساس بهذا المعني كما قدم الخبر في جملة (في الجسد مضغة) ليشعر بأن كل جسد فيه هذه الخاصية لا يشذ عنها جسد واحد، فلا نجد جسدًا خاليًا من القلب فهذا مما لا يمكن حدوثه طبقًا لهذا المفهوم المستفاد من التعبير المصوغ على هذه الطريقة.

ط. بيان مقدار الأهمية ومدى الخطورة في القلب المسيطر على البدن حيث يبين التعبير امتناع الإصلاح للبدن، إلا إذا كان القلب المسيطر عليه صالحًا – هذا– على الرغم من صغر حجمه الذي لا يتجاوز قبضة اليد، وقد أبهم في التعبير عن القلب بمضغة للتدليل على مقدار الصغر إلى حد بعيد ، وعلى الرغم من ذلك فله سلطة التحكم لصلاح البدن أو فساده، ثم نص على توضيح الإبهام بالذكر للقلب ليتأكد حضوره فيعظم الاهتمام بنقاء القلب والحرص على طهارته ليستديم للجسد صلاحه وقد أوضح بعد الابهام مصدرًا الايضاح بالأداة "آلا" المشعرة بعظم وخطورة ما يتلوها من معني كما مر، وأتبعها الضمير المنفصل معطوفًا على ما قبله "المضغة" ثم جاء ذكر "في" ليستقر في موضع الخطورة المفضية بالجسد إلى أحد المصيرين:الصلاح أو الفساد، وليس بعد هذا البيان النبوي بلاغة يمكن أن تقال أو يعبر عنها كما قال نبي الهدى عليه السلام.وهو القائل أيضًا:"إياكم والمشارة فإنها تحي العرة وتميت الغرة."

في أسلوب أداته (إياكم) ينهي النبي عليه السلام عن مشارة الناس التي تظهر المعايب، وتخفي المناقب ففي المشارة يتتبع الخصم مثالب خصمه بحيث لا يهمل معابة له من المعايب أو منقصه من المناقص إلا أعلنها وأشهرها لتنشر وتذاع على الألسن فيشوه سمعته ويقتله قتلًا، وهوحي يرزق ويتتبع أيضًا مناقبه وفضائله، فيهيل عليها التراب ويدفنها حتى لا يعرف طريقها أحد، ويغمطها غمطًا ويخفيها ولا يريها حتى يظهر الخصم وكأنه مجرد من كل فضل ومنقبة.

وجاء النهي عن المشارة لخطورتها لأنها تفتح باب المهاترة وتتبع المثالب والمناقص مما يؤدي إلى تعميق الخصام ، وتقطيع علائق الود ومما يقضي على التعاون والتكاتف ، ويؤدي إلى التقاطع والتدابر بين بني الوطن الواحد فيحل الفساد بدل الصلاح.

وفيما يتعلق بخطر المشارة أبان الحديث على سبيل التصوير الخيالي أن المشارة تحي وتميت –الأماتة للمحاسن أو الأحياء للمساوئ.

والإماتة للمحاسن والأحياء للمساوئ تصوير جاء على سبيل الاستعارة ليجسم المعني المراد من خطورة المشارة المنهي عنها وحتى يتمكن من نفس السامع فيستجيب للنهي ، ويبعد عن المشارة فيسلم المجتمع من نشر المساوئ وغمط المحاسن فيؤدي هذا إلى تشويه سمعة المجتمع بأسره ، نتيجة لحرص كل خصم على تشويه سمعة خصمه إلى أبعد حد.

وقد أختار النبي عليه السلام لفظ (العرة) وجعله مكان (المثلبة) لتهجن الإنسان وخجله من كشفها. كما جعل لفظ (الغرة) وكأن (المنقبة) لتجمل الإنسان وفخره بنشرها وكشفها

تتفرق كلمة الأمة وتهوى قواها، فجاء النهي عن المشارة لقتل عوامل التفريق في المجتمع التي تجهض قواه وتحول بينه وبين النهوض.

والخطورة في المشارة والاعتداد بخطرها صادر من نسبة الأحياء والأماتة التي هي من صفات الخالق على سبيل التجوز في التعبير في نسبتها إلى المشارة.

وما أجمل أن تحل الروح الخيرة بين المواطنين التي تجمعه على قلب رجل واحد. فتدعوهم هذه الروح إلى الرد والحب والإخاء من بعد أن تخلصهم من عوامل التفريق المهلكة المذهبة لريحهم.

وقد روي عن جعفر الصادق قوله: "إياكم وتعداد الغرة فإنها تكشف العورة، وتورث المغرة."

وقد جاء هذا القول كتوضيح مفصل لما سبق إجماله في الحديث الشريف. وهذا والمقابلات في الحديث بين يحيي ويميت وبين العرة والغرة، تضفي على لفظ

حديث جمالًا يعين على استقرار المعنى في النفوس فتستجيب للنهي عن المشارة المنفر منها في الحديث.

والتصوير في الحديث النبوي كثير ومتنوع ومنها: عن أبي موسى عـن النبـيﷺ: مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا فكـان منهـا نقية فبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب امسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه مـا بعثنـي الله بـه فعلـم وعلـم. ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ومن لم يقبل هدى الله الذي أرسلت به.[1]

يصور النبيﷺ: حال الناس في تقبلهم لما لها جاء به ومن الهدى فضرب المثل مبينًا أن الناس لهم أحوال ثلاثة:

١. المتقبل لهدى الله تقبلًا تامًا ومثله مثل الأرض الخصبة والتي يوافيها مـدد المـاء حتى تحيا فتنبت وتعشب بوفرة فتكون مصدر رزق عظيم، وخـير وفـير يعـم نفعه الجميع.

٢. والمستقبل للهدى على درجة ما، شبهه بـالأرض الصـخرية وهـي وإن كانـت ليس لها القدرة على الإنبات غير أنه يتم بها بعض النفع المتمثل في حفظهما للماء الذي يمكن الانتفاع به في الشرب والسقي والزرع. وإن كان ينقصها في ذاتهـا وأصل طبعها فضل الإنبات كأرض فإذا كان ينقصها بعض الفضـل غـير أنـه لا يفوتها كل الفضل.

٣. والصنف الثالث يتمثل في ذلك الشـخص المشـبه للقيعـان مـن الأرض التـي فقدت قدرتها عى الإنبات لكونهـا سـبخة لا تصـلح للإنبـات كـما انهـا غـير متماسكة فبقيت مسامية تسوخ فيها المياه ولا تقوى على الحفـظ لهـا كـيما يتـأتي

١صحيح البخاري كتاب العلم ، باب فضل من علم وعلّم (٢٧/١)

الانتفاع بها على وجه من الوجوه ،وهذا ممثل للرافض لهدي الله وترفع شـامخًا بأنفه عن تقبله فهذا لا فائدة فيه ولا يرجى منه أي نفـع، والتمثيـل للأحـوال الثلاثة بالتقبل التـام والتقبـل عـلى درجـة، والـرفض للهـدى، مثـل الأرض المعطاءه إلى أقصى حد، والمعطية على قدر من العطاء، والغير معطية نهائيًا.

هذا والتمثيل للغرض جاء على طريق الكناية بالمعني من عدم الاهتمام (من لم يرفع بذلك رأسًا) لتكبره وعناده، فلم تتم منه أي استجابة للهدى فمن فقه وانتفـع تأتي منه النفع بأن علم في نفسه وعلم غيره ،فجـاء نفعـه مضـاعفًا، وجـاء الصـنف الثالث مسكوتًا عن حاله، وبالمقابلة بما سبق يتأتي البيان لحاله في أنه لا خير فيـه ولا في غيره ولا في نفسه كما أن الأرض السبخة لا خير فيها، فلم يتم له انتفاع فيما يتعلق بشخصه كما لا أمل في أن يفيد منه أحد لرفضه التقبل للهدى فحقت عليه الضلالة.

وكان ﷺ مؤتي جوامع الكلم يحدث الناس بما يفهمونه خاصة وقد لا يفهمه خاصة غيرهم، مما يدل على أن لهم حديثًا خاصًا وأسلوبًا منفردًا ؛ هو لهم رداء وإزار وحينما يكلمهم به من لا ينتمي إليه يكون قد بلغ الشأو البعيد في الإلمام بلغة العرب المختلفة وأساليبهم المتنوعة مثلما حدث مع وفد بني نهـد الـذي ورد نصـه في المثـل السائر (١/ ١٦٠) وكان علي بن أبي طالب يسمعه وهو يقول لهم اللهم بارك[١] لهـم في محضها[٢] ومخضها ومذقها وفرقها -وأبعث[٣] راعيها في الـدثر -بيـانع الثمـد[٤]- وافجر لهم الثمد، وبارك لهم في المال والولد- من أقام الصلاة كان مسلمًا، ومن أتـى الزكاة كان محسنًا، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصًا، لكم يا بني نهـد[٥] ودائـع

١- المحض: البن الخالص، والمخض: مأخذ زبده
٢- المذق: المخلوط المشوب.، والفرق: مكيال معين.
٣- الدثر: المال والخصب والنبات.
٤- الثمد: القليل.
٥- الودائع: العهود والمواثيق.

الشرك[1] ووضائع الملك – لا تلطط[2] في الزكاة ولا تلحد[3] في الحياة ولا تثاقل عن الصلاة.

فقال علي: يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم الوفود بما لا نفهم أكثره.فقال: أدبني ربي فأحسن تأديبي وربيت في بني سعد[4].

فقد وقع اختياره على تعبيرات قوية أداها بجمل قصيرة وكلمات لها جرس وإيقاع وتناغم عجيب لا يستطيع فهمه إلا أهله ولا غرو فهو أفصح العرب.

يقول[5] الرافعي معلقًا على أسلوب الرسولﷺ:هكذا يجب تأمل الجمال الفني في كلامه ﷺ، فهو كلام كلما زدته فكرًا زادك معني، وتفسيره قريب كالروح في جسمها البشري، ولكنه بعيد كالروح في سرها الإلهي، فهو معك على قدر ما أنت معه، إن وقفت على حد وقف وإن مددت مد، وما أديت به تأدي، وليس فيه شيء مما تراه لكل بلغاء الدنيا من صناعة عبث القول، وطريقة تأليف الكلام، واستخراج وضع من وضع،[6]

وقد تنبه كثير من الكتاب والأدباء إلى بلاغة الحديث وروعته وتناول ما يستطيع منه بالشرح والتفسير فعن عبد الله بن عمر.

عن عبد الله بن عمر رضى لله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان

١- الوضائع: جمع وضيعة ما جمع الملك من ضرائب كالزكاة.
٢- لا تلطط في الزكاة: لا تمنعها.
٣- لا تلحد في الحياة: لا تمل عن الحق ما دمت حيًا؟
٤- السابق صـ ٦٦.
٥- وحي القلم صـ١٠ -١٢.
٦- من كتاب الحديث النبوي مصطلحه –بلاغته- أ/ محمد البصاغ.

شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلها أهلا ولا[1] مالًا فنأي بي في طلب شيء يومًا لم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلا أو مالا، فلبثت والقدح على يدي انتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئًا لا يستطيعون الخروج.

قال النبيﷺ: وقال الآخر: اللهم كانت لي ابنة عم أحب الناس إلي، فراودتها عن نفسها فامتنعتمني، حتى ألمت بها سنة[2] من السنين فجائتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت، حتى إذا قدرت عليه قالت: لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه فتحرجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي، وتركت الذهب الذي أعطيتها. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

قال النبيﷺ: وقال الثالث: اللهم إني استأجرت أجراء فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال: يا عبدالله، أد إلى أجري. فقلت له: كل ماترى من أجرك من الأبل والبقر والغنم والرقيق! فقال: يا عبدالله لا تستهزئ بي! فقلت: إني لا أستهزئ بك! فأخذه كله فاستاقه فلم يترك شيئًا. اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه! فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون. انتهى الحديث.

فهذا الحديث قائم على أعمدة ثلاثة: البر، الفقه، الأمانة، فتلك الخلال التي دعى إليها الرسول ﷺ بشكل عملي ووضح إنها المنجية التي تخرج الإنسان من

١- أي لا يسقى الغبوق أحدًا من أهله أو جماعته قبلهما.
٢- سنة: جدب وفقر.

مآزقه وتخلصه من ورطاته وتنفذ به من ضيق الموت إلى متسع الحياة ولم يدعو إليها الرسول بلفظ واضح مباشر يثقل على البعض ويخف على آخرين وإنما لجأ إلى التمثيل والإقرار الذي يفهمه أولى الألباب ولا يغيب عن بسطاء الفكر ... فمن ران الحكمة وضع يده على الخلال المنجية بر الوالدين، العفة –وإنشاد الطهارة– مع شدة مغالبة النفس ومقاومتها.

الأمانة وأداءها حتى وأن عارضتها الحاجة وخالفتها الرغبة ، ومن رام المحاكاة والتقليد في الأمثلة الثلاثة ضربًا فريدًا من حسن الخلق ، كان هو الباعث والمحرك الأساسي لتصرف هؤلاء الأفراد على اختلاف مواقفهم إلا أنهم موثقون إلى حسن الخلق عند الاختيار الصعب.

وقد علق الرافعي على هذا الحديث قائلًا:

والأحاديث النبوية – طويلها وقصيرها آية في البلاغة والفصاحة وحسن البيان. أنا فلست أدري، أهذا هو النبي ﷺ يتكلم في الإنسانية وحقوقها بكلام بيّن صريح لا فلسفة فيه، يجعل ما بين الإنسان والإنسان من النية هو ما بين الإنسان وربه من الدين أم هي الإنسانية تنطق على لسانه بهذا البيان العالي، في شعر من شعرها ضاربة فيه الأمثال، مشيرة فيه إلى الرموز، واضعة إنسانها بين شدة الطبيعة ورحمة الله، محكمة عناصر روايتها الشعرية، محققة في بيانها المكشوف أغمض معانيها في فلسفة الحاسة الإنسانية حين تتصل بأشيائها فتظهر الضرورة البشرية وتختفي الحكمة وفلسفة الروح حين تتصل بهذه الأشياء ذاتها فتظهر الحكمة وتختفي الضرورة مبينة أثر هذه وتلك في طبيعة الكون، مقررة أن الحقيقة الإنسانية العالية لن تكون فيما ينال الإنسان من لذته، ولا فيما ينجح من أغراضه، ولا فيما يقنعه من منطقه، ولا فيما يلوح من خياله، ولا فيما ينتظم من قوانينه، بل هي السمو على هذه الحقائق الكاذبة كلها، وهي الرحمة التي تغلب على الأثرة فيسميها الناس برا، والرحمة التي تغلب على الشهوة فيسميها الناس عفة، والرحمة التي تغلب على الطمع

فيسميها الناس أمانة، وهي في ضبط الروح الثلاث من الحواس: حاسة الدعة التي يقوم بها حظ الخمول، حاسة اللذة التي يقوم بها حظ الهوى، وحاسة التملك التي يقوم بها حظ القوة.

عن أبي هُرَيْرَةَ أن رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:" مَثَلُ البَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ، كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ، مِنْ لَدُنْ ثَدْيَيْهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ: فَلاَ يُنْفِقُ شَيْئًا إِلَّا مَادَّتْ عَلَى جِلْدِهِ، حَتَّى تُجِنَّ بَنَانَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ، وَأَمَّا البَخِيلُ: فَلاَ يُرِيدُ يُنْفِقُ إِلَّا لَزِمَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَوْضِعَهَا، فَهُوَ يُوسِعُهَا فَلاَ تَتَّسِعُ " وَيُشِيرُ بِإِصْبَعِهِ إِلَى حَلْقِهِ.[1]

فأنت ترى ظاهر الحديث، ولكن فنه العجيب في هذا الحديد الذي يراد به طبيعة الخير والرحمة في الإنسان، فهو من أشد الطبائع جمودًا وصلابة واستعصاء متى اعترضتها حظوظ النفس الحريصة وأهواؤها، ومع ذك فإن السخاء بالمال يبسط منها وينتهي في الطبع إلى أن يجعلها لينة، فلا تزال تمتد وتسبغ حتى يكون كمال طبع السخاء هو كمال طبع الخير في النفس الكريمة، فمن ألزم نفسه الجود والإنفاق راضها رياضة عملية كرياضة العضل بأثقال الحديد ، ومعاناة القوة في الصراع ونحوه، أما الشح فلا يناقض تلك الطبيعة ولكنه يدعها جادة مستعصية لا تلين ولا تستجيب ولا تتيسر.- وقد جعل الجبة من الثدى إلى التراقي، وهذا من أبدع ما في الحديث، لأن كل إنسان فهو منفق على ضروراته، يستوي في ذلك الكريم والبخيل، فهما على قدر سواء من هذه الناحية، وإنما التفاوت فيما زاد وسبغ من وراء هذا الحد، فههنا يبسط الكريم بسطه الإنساني، أما البخيل فهو "يريد" لأنه إنسان، والإرادة عمل عقلي لا أكثر، فإذا هو حاول تحقيق هذه الإرادة وقع من طبيعة نفسه الكزة فيما يعانيه من يوسع جبة من الحديد لزقت كل حلقة من حلقاتها في مكانها، فهي مستعصية متماسكة، فهو يوسعها فلا تتسع.-على حد قول الرافعي -

---

١صحيح البخاري كتاب الطلاقبَابُ الإِشَارَةِ فِي الطَّلاَقِ وَالأُمُورِ(٧/ ٥٢).
صحيح مسلم كتاب الزكاةبَابُ مَثَلِ الْمُنْفِقِ وَالْبَخِيلِ (٢/ ٧٠٨).

الرسول والأساليب العربية

كان السجع منتشرًا بين العرب وبلغ سجع الكهان شأوًا بعيـدًا في الانتشـار، وكان رسول الله لفصاحته وثراء لغته يأتي في كلامه عفوًا بلا تكلـف ولا كلفـة بـل كان يستهجنه حينما يسمعه من مستكرهيه. ومن سجعه الجمل: "اللهم آت نفسـي تقواها وذكها أنت خير من خير ذكاها أنت وليها ومولاها."

وقوله: "إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات... وكره لكم قيل وقـال وكثـرة السؤال وإضاعة المال."

وقوله: اللهم أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب ولا يخشع ومن نفس تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها.

فالسجع جاء متممًا جمال الكلام ، وروعة الأداء، فاللفظ يساعد في توضـيح المعنى ويجلي مبهمها ويزيل غامضها في بيان فريد.

وهو القائل إن من البيان لسحراً ، يقول الرافعي معلقًا على هذا الحديث: "أن من البيان لسحرا".

قوله: "إن من البيان لسحرا. جعل نوعًا من البيان هو السحر، لا البيان كله، فالحديث كالنص على ما تسميه الفلسفة الأوربية اليوم (بالبيان الفني)، كأنـه قـال: من البيان فنًا هو سحر من عمل النفس في اللغة تعبر به عـن الأشـياء، ولـه عجـب السحر وتأثيره وتصرفه، وهذا معنى لم يتنبه إليه أحد ولا يذكر معه كل ما قـالوه في تفسير الحديث، وبذلك التأويل يكون هذا الحديث قد احتوى أسمى حقيقة فلسفية للفن.

ونجد الرسول في كلامه كأنه الشعر من التوزان بين الكلمات والتوافق بين الجمل وهو القائل: "اللهم أني أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أذل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أويجهل علي.

اتقى الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن. **والأحاديث النبوية قصيرها ومطولها بلغت الحد الأعلى من الفصاحة والبيان سواء أكانت على سبيل المجاز أو الحقيقة ، مثل:**

مـــــات حنـــــف آنفـــــه

من أطلع من صـبر البـاب فقـد دمـر

- يا خيل الله اركبي
- لا ينتطح فيه عنزان
- أن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى.

رفقًـــــــا بـــــــــــالقوارير

وكقوله أيضًا:

"وأما والله ما علمتكم إلا لتقلون عند الطمع، وتكثرون عند الفزع"، وقوله: """المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم"، وقوله: "المستشار مؤتمن"، وقوله: "إن احبكم إلي وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا ،الموطئون أكنافًا الذين يألفون ويؤلفون وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة الثرثارون المتفيقهون".

وقوله: "لا تجن يمينك على شمالك وقوله: " ما أملق تاجر صدوق"، وقوله: "رحيم الله عبدًا قال خيرًا فغنم أو سكت فسلم"، وقوله: " إن الله يرضي لكم ثلاثًا ويكره ثلاثًا: يرضي لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا وأن تعتصموا بحبله جميعًا

ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم، ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال"، وقوله: يقول ابن آدم: مالي مالي، وإنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو وهبت فأمضيت"، وقوله: "إن قومًا ركبوا سفينة في البحر فاقتسموا فصار لكل رجل موضع، فنقر رجل موضعه بفأس، فقالوا: ما تصنع؟ قال: هو مكاني أصنع به ما شئت، فإن اخذوا على يديه نجا ونجوا وإن تركوه هلك وهلكوا"، وقوله: "حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة، وقوله: "من ذب عن لحم أخيه بظهر الغيب كان حقًا على الله أن يحرم لحمه على النار" وقوله: "أوصاني ربي بتسع: أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية، وبالعدل في الرضا والغضب، وبالقصد في الغني والفقر، وأن أعفوا عمن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأصل من قطعني وأن يكون صمتي فكرًا ونطقي ذكرًا ونظري عبرًا".

وقد يلجأ إلى السؤال على سبيل التنبيه إياكم والمخيلة.

قالوا يا رسول نحن قوم عرب –ما المخيلة قال- سبل الإزار-

أياكم وخضراء الدمن- المرأة الحسناء في المنبت السوء.

ونستطيع أن نشير إلى أن أثر الحديث في الأدب:

١. ساعد على تهذيب الألسن ودعي لتثقيف الطباع.
٢. ساعد على توحيد اللهجات والالتفات حول لهجة عربية.
٣. ساعد على تهذيب اللغة وتخليصها من الغريب والحوشى.
٤. كان للحديث اليد العليا بعد القرآن في تهذيب اللغة وتجميلها نظرًا لجماله و روعة بيانه فقد أقبل العلماء يدرسونه ويشرحونه ويستنبطون آراءه.
٥. ساعد على ازدهار حركة التأليف وتنشطيها حتى ألف غريب الحديث للقاسم بن سلام.

٦. ساعد على التأريخ للسير ليست سيرته صلى الله عليه وسلم فقط لكـن الـرواة أيضًا والمحدثون مثل طبقات ابن سعد، أسـد الغابـة ، والاسـتيعاب وميـزان الاعتدال للذهبي.

٧. لم تقتصر النهضة للحديث ورجاله ولفظه فقط بل امتدت لتشمل كل ما يتعلق بها من فقه وتفسير وغيرها.

القيم الإسلامية والشعر

العرب أمة شاعرة ينظمون الشعر فى كل وقت وعند كـل موقـف ، إذ تحمـل النفس حاجات تنفس عند التأثر أو التعرض لضغط ، وحينما جـاء الإسـلام وأُمـر الناس به " وأمرت أن أكون أول المسلمين "" وأمرت أن أُن أسلم لـرب العـالمين " شاع كثير من القيم التى فرضت وجودها على المنجزات الشعرية وصبغ شعر صدر الدولة الإسلامية بصبغات فريدة فارقة له عن الشعر قبله ،مغايرة لسمات وصبغات الشعر بعده ، إذ شاعت قيم إنسانية – وقيم عقلية –وقيم اجتماعية – وقيم روحية

وسيطرت تلك القيم على النتاج الشـعري فى تلـك الأونـة إذ انسـابت إليـه فملأته – غالباَ–

أولاً : القيم الإنسانية

إن الأصل البشرى واحد وحينما أضاء الإسلام الدنيا وجاء بقيم وأخلاقيات لو لم تكن مرتبطة بالدين فهى متسقة مع الفطرة الإنسانية منبسقة عنهـا ، إذ ارتكـن الإسلام إلى السلام ، بل جعله التحية المشاعة والمبذولة للناس كافة ؛ مسلمين وغير مسلمين ، وأمر بالقول الحسن تأليفاً للقلوب ، ولزرع المودة فى الصـدور " وقولـوا للناس حسناَ" لإن الإنسان خليفـة الله فى أرضـه " وهـو الـذى جعلكـم خلائـف ألأرض " الذي خلقه فى أحسن تقويم " وعدل فكره ، فبعد أن كان الإنسان يشعر بالصغر فى نفسه وأنه نهب للطبيعة وعناصرها تفعل فيه ما تريد ، بعـد أن سـيطرت الخرافات ، وران الجهل ، حرر الإسلام الإنسان وبـين لـه أنـه مخلـوق الله المكـرم " ولقد كرمنا بنى أدم وحملناهم فى البر والبحر " وأرسى الحرية ومنحها للناس كافة . سواء أكانت حرية العقيدة أو حرية الأفراد ، فحرية العقيدة كفلها الإسلام للنـاس جميعاً " لا إكراه فى الدين " بل إنه أشفق على الرسول الكريم مـن تعبـه ومشـقته فى

دعوة الناس للإسلام " طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى " وأخبره الله أن الهداية إليه منه هو فقط وأنه ليس له للرسول ﷺ من الأمر شيء " ولو شاء ربك لأمن من فى الأرض جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " ورغم استعمال رسولنا الكريم للسيف إلا أن هذا الاستعمال كان لرد العدوان وصده " وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين " ودعاهم إلى تلبية دعوة السلم " وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله " ودعى إلى عدم الاستماع إلى فحيح الشيطان " يا أيها الذين أمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين " لذلك لا نعجب إذا كانت تحية الإسلام هي " السلام عليكم " وحض رسول الله ﷺ على الحرية الدينية بشكل عملي؛ إذ كان ميثاقه لأهل نجران ، ثم وثيقة عمر بن الخطاب من بعده لنصارى بيت المقدس مناراً لعدل الإسلام، إذ منحت وأقرت الحرية والأمان على النفس والعقيدة والممتلكات " فقد جاء فى وثيقة عمر " أنه أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم .. لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم " [1]

كذلك حض الإسلام على نبذ الرق فشجع على تحرير الرقاب وأجزل الثواب لفاعليه ، مما جعل الصحابة يتسابقون فى الإعتاق ، وحث على مساعدة الغنى للفقير والقوى للضعيف " وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم " " خذ من أموالهم صدقة تزكيهم وتطهرهم بها . "

١) تاريخ الطبرى طـ الاستقامة ١٩٣٩ ج ٣- صـ١٠٥

ثانياً : قيم عقلية

أفسح الإسلام المجال للعقل ودعى إلى إعماله، ولام من نحى عقله جانباً " لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلاً " فبلعقل تدرك قيمة الأشياء ،وكيفية التعامل معها ، بل الإسلام القائم على العقل مكتمل عن الإسلام القائم على التقليد والإتباع فهو منقوص ؛ لذا عاب القرآن الكريم على من لم يتوصل إلى الله عز وجل لإنه لم يعمل عقله ولو أعمله لأدرك أن الكون له خالق مدبر حكيم " أفلا تذكرون " " إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون " "إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون " بالعقل يستطيع الإنسان تسخير الكون له ، الذى سخره قبلاً له الله عزوجل " الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون "

" هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب " وخلق كل شىء لأجل الانسان ، حينما يعرف الإنسان؛ و يحوز المعرفة فهى توصله إلى وجود الله ، لذا أول شىء نزل " إقرأ باسم ربك الذى خلق " وهى الوسيلة الأشهر فى طلب العلم ، لذا حث الإسلام على تحصيل العلم وبين مزية العلماء " وقل رب زدنى علما " "إنما يخشى الله من عباده العلماء " حيث أن الله لم يسوى بين العلماء والجُهال " قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون " ودعى رسول اللهصلى الله عليه وسلم إلى العلم ، واختار رسله ممن رجح عقله وحُد فكره، " روى الرواة عن معاذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن قال له: كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بما فى كتاب الله ، قال : فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ، قال فإن لم يكن فى سنة رسول الله

؟ قال : أجتهد رأيي ولا آلو ، قال فضرب بيده فى صدري ، وقال : الحمد لله الـذي وفق رسول رسول الله لما يرضاه رسول الله "[1]

فالإسلام حث الإنسان على إعمال عقله، وفتح أمامه أبواب المعرفـة، ودعـاه إلى النهل منها، والإسلام على ثبات أصوله إلا أن فروعـه وطـرق تطبيقهـا متغـيرة لتواكب العصور المتوالية بمقتضياتها وتطوراتها.

ثالثاً قيم اجتماعية

نظم الإسلام العلاقة بين قطبى الأمة الرجل والمرأة بعد أن كانت المرأة تـوأد عند الولادة خشية الفقر أو العار ، سارت موجبة لـدخول الجنـة إذ أَحسـن أبوهـا تربيتها ورعايتها ، ووصى بها رسول الله بعد أن بين القـرآن الكـريم أن شـأنها شـأن الرجل " للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصـيب ممـا اكتسـبن " " ولهـن مثـل الذي عليهن "

ونظم علاقة الرجل بالمرأة في الوصل والفصل " ومن آياته أن خلق لكم مـن أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمـة " ووصى بهـا رسـول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : في خطبة الوداع " أيها النـاس إن لنسـائكم علـيكم حقاً ، ولكم عليهن حق ، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غـيركم وأن لا يـدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فـإن الله قـد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربون ضرباً غـير مـبرح ، فـإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عـوان " أسيرات " لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخـذتموهن بأمانـة الله . فـاتقوا الله فى النسـاء

١) جامع بيان العلم وفضله ابن عبد البر طـ القاهرة جـ٢ صـ ٥٥

واستوصوا بهن خيراً ، وإذا وقع الإنفصال – وهو أبغض الحلال – حفظ لها حقوقها بل حث على حسن الخلق فى الإنفصال " ولا تنسوا الفضل بينكم " .

ودعا الإسلام إلى إحقاق الحق ونبذ التعصب للقبيلة واستبدل القبيلة بالأمة " كنتم خير أمة أخرجت للناس " ونزع الغل من الصدور ، ورد كل القبائل لأصل الجنس البشرى الواحد ونص على ذلك صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع إذ قال " ياأيها الناس إن ربكم واحد ، كلكم لأدم وأدم من تراب ،أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير، وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى "" (١)

وساوى بين أفراد الأمة ومحى الفوارق وأضعف الإنتماء القبلى ، وقوى الانتماء الأممى ، " وأن هذه أمتكم أمة واحده وأنا ربكم فاعبدون " ،

وكما نظم العلاقات الإنسانية والروحية ، نظم العلاقات المالية وأمر بكتابة الديون والإشهاد عليها فى أطول أية فى القرآن الكريم " يأيها الذين أمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأبى كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق ....البقرة أية ٢٨١

ولم يترك الميراث لنبى مرسل أو لولى صالح بل حدد الإرث وكل حالاته ومستحقيه ، ولم يترك شيئاً اجتماعياً إلا ونظمه وحدد هيئته حتى الموازين والقروض

رابعاً : قيم روحية

الإسلام الديانة السماوية التي لم تهمل جانب الروح أو جانب المادة الجسد– فإذا كانت اهتمت بالجانب المادي إذ دعت إلى النظافة – والطهارة وجعلتهما شرطاً لقبول الصلاة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ ... ﴾[سورة

١) البيان والتبين للجاحظ ط التأليف والترجمة ج ٢ صـ ٣٣ .

المائدة: الآية ٦] وجرمت الاقتراب بالعدوان من الناس وأوعدت من بغى على الناس بالبغى عليه إذ حرمت ﴿..وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ ..﴾، ﴿..وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ .. ﴾، ﴿..وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ..﴾، ﴿..لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ ..﴾، وجعل هناك قصاص جزاءً وفاق لمن انتهك حرمة الأخر " وكتبنا عليهم فيها أنَّ النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص .... المائدة أية ٤٥" "

" فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم " وكلمة "بمثل" هنا تقوض شهوة الانتقام عند المعتدى عليه فلابد أن يتناسب العقاب مع الذنب وإلا صار عدواناً جديداً .

كذلك اهتم الإسلام اهتماماً بالغاً بالجانب الروحي فعلم الله أن النفوس مطوقة للمحبة فتحدث كثيراً من المُحابين " قل إن كنتم تحبون الله فا تبعون يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم " " فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين " وبين صفات المحبوبين " إن الله يحب المحسنين " إن الله يحب المتوكلين " إن الله يحب المتصدقين "

" إن الله يحب المتقين " وبين الشريحة التي لا يحبها الله ونجد إبداع اللفظ القرآني حين قال "لا يحب " ولم يقل يكره وكأن عدم الحب مرتهن بالفعل فإذا ما كف الإنسان عن فعله عاد له حب الله عزر وجل: " والله لا يحب المفسدين " "والله لا يحب الظالمين " وجعل الدخول في العقيدة الإسلامية وما تنضح به من خلق ومنافع سهلاً بسيطاً بدايته قول : " قولوا أمنا بالله وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أُوتى موسى وعيسى وما أُتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون " وأقر القرآن بوجود المردة والشياطين والأرواح الشريرة لكن لم يتركها مسلطة على العباد فهناك أرواح طيبة خيرة ويعلوا الاثنين حفظ الله للجمال السماوي من الشياطين".

﴿ ...وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ ... ﴾ ، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ١١﴾ ، ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ١٧﴾ .

ويوضح أن الإنسان مجازى " كل نفس بما كسبت رهينة " "لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت " "ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه "

ولم تكن الأسس الخمس التي بُنى عليها الإسلام إلا مظلة تغطى كل جوانب احتياجاته فشهادة أن لا إله إلا الله .. إقرار بالوحدانية وهى تدخل الإنسان حظيرة الإيمان بعد أن كان هائماً في الطرقات . والمعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم نوؤئى فى معضلتين : الإيمان بالوحدانية والإيمان بالبعث ،إقام الصلاة ..فإقامتها تستحضر الفيض الربانى، إيتاء الزكاة .. يقي بها المسلم شح نفسه ويؤلف بينه وبين أفراد المجتمع ، صوم رمضان .. لتجديد خلايا الجسم ومشاركة للفقراء ، حج البيت .. إذ يتخلص من أدران الدنيا ، فهذه الأسس أردية روحية ومادية يتمتع بها المسلم فقط. وبين الله أن للإنسان معادًا، وأنه سيلقى جزاء ما يفعل ، وأشار للجنة ومزاياها ، وللنار وخزاياها ،" فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره " " من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد "

" للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أُغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون " " لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً جزاءً وفاقاً " وعلى الرغم من الترغيب والترهيب إلا أن القرآن الكريم يأتى مطمئناً للإنسان مريحاً له من عناء الكد والفكر حينما يخبره أن الأمر بيد الله " وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين " كل هذه الأفكار الرائعة تكرر على المسلمين صباح

ومساء إذ يتلون القرآن أناء الليل وأطراف النهار فنسابت تلك المعانى فى أشعارهم وبدت في ألفاظهم مع الفارق بأنه لفظ بشرى ،

فها هو عبدة بن الطبيب يوصى بطاعة الله، وبر الوالدين وحذر النمام الذي يمشى بالإفساد بين الناس.

أُوصيكم بتقوى الإله فإنه ... يعطى الرغائب من يشاء ويمنع
وببر والدكم وطاعة أمره ... إن الأبر من البنين الأطوع
وأعصوا الذى يزجى النمائم بينكم ... متنصحاً ذاك السمام المنقع
يزجى عقاربه ليبعث بينكم ... حرباً كما بعث العروق الأخدع

يقول النمر بن تولب وهو من المخضرمين إذ أسلم وقد علت سنه:

ومتى تصبك خصاصة فارج الغنى ... وإلى الذي يعطى الرغائب فارغب
لا تغضبن على امرئ فى ماله ... وعلى كرائم صلب مالك فاغضب

وقال أيضاً :

أعذني رب من حصر وعى ... ومن نفس أُعالجها علاجاً
ومن حاجات نفسي فاعصمني ... فإن لمضرات النفس حاجا
وأنت وليها فبرئت منها ... إليك وما قضيت فلا خلاجا

ويروى أنه أنشد الرسول ﷺ قصيدة قال فيها:-

لله من آياته هذا القمر ... والشمس والشعرى وآيات أُخر

ذؤيب الهُذلى صاحب العينية المشهورة التي تضج بالرثاء لبنيه الخمس الذين ماتوا فى الطاعون يقول :

وإذ المنيـــة أنشـــبت أظفارهـــا ألفيـــت كـــل تميمـــة لا تنفـــع

والـــنفس راغبـــة إذا رغبتهـــا وإذ تـــرد إلى قليـــل تقنـــع

وروى الرواة أنه قال حين حضره الموت يخاطب بن أخ له يسمى أبا عبيد :

أبـــا عبيـــد وقـــع الكتـــاب واقـــترب الوعيـــد والحســـاب

وأخر امتثل للمعنى القرآني " خذ العفو " وللأمر الإلهي بصلة الرحم فعلى رغم إيذاء ابن عمه له لكنه به راحم عليه مشفق.

وذى رحـم قلمـت أظفـار ضـغنه بحلمى عنـه وهـو لـيس لـه حلـم

فـما زلـت فى لينـي لـه وتعطفـي عليـه كـما تحنـو عـلى الولـد الأم

ويرثى نهشل بن حرى أخاه الذي قتل يوم صفين، قائلاً بكلمات مستمدة من القرآن الكريم :

أنـــاس صـــالحون نشـــأت فـــيهم فـــأودوا بعـــد إلـــف واتســـاق

أرى الـــدنيا ونحـــن نعيـــث فيهـــا مولَّيـــــة تهيـــــأ لانطـــــلاق

أعـــاذل قـــد بقيـــت بقـــاء قـــيس ومـــا حـــي عـــلى الـــدنيا ببـــاق

يقول النجاشي قيس بن عمرو:

هـــل الـــدهر إلا تارتـــان فمـــنهما أموت وأخرى أبتغى العيش أكدح

وكلتاهمـــا قـــد خُـــط لي في صـــحيفة فلا الموت أهوى لى ولا العـيش أروح

ويشع ظلال قوله تعالى:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ...﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٢]. ومن الأشعار التي تروى له أيضاً وتدل على تأثره بالمعاني القرآنية".

النـــاس همهـــم الحيـــاة ولا أرى　　طـول الحيـاة يزيـد غـير خبـالا

وإذا افتقـرت إلى الزخـائر لم تجـد　　ذُخـراً يكـون كصـالح الأعـمال

كل هذه الأبيات ونظائرها تدل على قوة تأثر الشعراء بالقرآن الكريم وحدة أثره في ألفاظهم ومعانيهم أسلوبهم وأفكارهم.

الشعر الإسلامي والشعر الجاهلي

إذا كان الشعر فى صدر الإسلام إزداد ألقاً وجمالاً لاحتوائه على اللفظ القرآنى البهى ، ولتسلل المعنى القرآنى الوضَّاء إليه ؛ فلا يعنى ذلك وجود بتر للشعر الإسلامى عن الشعر الجاهلى ، فالناظم للشعر الجاهلى .. إما شاعر محترف كحسان بن ثابت ومن على شاكلته ، أو هاوٍ تأثر بموقف ما فانطلق لسانه ينظم شعراً كالنابغة الجعدى ومن شاكله فى شعره من المغمورين الذين انطلقوا فى مقطوعات شعرية يعبرون عن جمال الإسلام ،أو يفتخروا ببلائهم فى الحروب ، أو يرثون الشهداء .. وهؤلاء وأولئك إما امتلكوا مذخوراً متيناً من إرثهم الثقافى واللغوي ، وتبدى ذلك فى أشعارهم إذ عكست المخزون وأبدته ، أو كانوا خالين الوفاض منه فكانت أشعارهم عبارة عن إحساس وتأثر منظوم –وإن افتقر الثراء اللغوي، والبعد الأسلوبي ، والفكري والبلاغي .

فعلى الرغم من الأحداث الجسام التي سيطرت على صدر الدعوة والشخصيات والمواقف التى تشكل مادة خصبة للشعراء إذا ما انتهبوها فنظموها لكان لدينا ملاحم تنبئنا عن معاندة كفار مكة ، وتكيلهم الأذى للرسول صلى الله عليه وسلم وللمسلمين ثم الهجرة للمسلمين ، ثم هجرة الرسول وأحداثها السابقة والمصاحبة واللاحقة تؤرخ شعراً ، بل إن الغزوات وما بها من تفاصيل كانت تكفى لتخلف لنا أشعاراً تشهد بإبداع ناظميها وإجادتهم يقول د عبد القادر القط : " كثير من هؤلاء الشعراء لم يكونوا من محترفى الشعر بل كانوا يقولونه فى لحظات من الانفعال القوى لفقد عزيز أو اغترابه فى الفتوح أو لحنين جارف إلى مواطنهم الأولى، أو للفخر بفروسيتهم وبلائهم فى الحروب وفى حروب الفتوح ، فلم يكن لديهم ذلك الإلمام الواسع بالتراث الشعري الجاهلي ولا ذلك الرصيد الضخم من

الألفاظ والعبارات والصور التى كان لابد أن يلم بها الشاعر المحترف ويتخذها ركيزة لما يقول من الشعر "[1].

ولعل ذلك السبب الرئيسى لوجود الشعر الإسلامى فى مقطوعات قصيرة لا مطولات، يقول أبو محجن الثقفي [2]".

كفى حزناً أن ترى الخيل بالقنا وأترك مشدوداً عليَّ وثاقيا
إذا قمت عناني الحديد وأغلقت مصاريع من دونى تصم المناديا
وقد كنت ذا مال كثير وإخوة فقد تركونى وحيداً لا أخا ليا
وقد شف جسمي أنني كل شارق أُعالج كبداً مصمتاً قد برانيا
فلله درَّى يوم أُترك موثقاً وتذهل عنى أسرتى ورجاليا
حبيساً عن الحرب العوان وقد بدت وإعمال غيرى يوم ذاك العواليا
ولله عهد ، لا أخيس بعهده لئن فرجت ألا أزور الحوانيا

ونجد روح شعراء أخرين شاركوا الشاعر رثاءه لنفسه ووجع المقارنة بين حاله الآنى وعجزه ، ووضعه السابق وقدرته ... وكأنها زفرات انسانية من مكلومين الروح والجسد ، مثل قصيدة عبد يغوث التى قالها فى حبسه متحسرًا فيها على ماضيه الممتلئ بالشجاعة والبسالة ، ويائية مالك بن الريب التميمى يرثى حاله ويستعيد ذكريات "تفتكه وشبابه ، ويائية المتنبى.

---

١) (١)فى الأدب الإسلامى واالأموى ١٧٥

(٥) كان شاعر مجيد لكنه كان يتعاطى الخمر فحبسه سعد بن أبى وقاص وحرب القادسية تدور فقال أبيات استعطف بها زوج سعد أن تفك وثاقه ليخرج يشهد الهيجاء ثم يأتى تعيد توثيقه دون أن يراه أحد وفعل ذلك وأبلى بلاءً حسنا "

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً وحسـب الأمـاني أن يكـن أمانيـــا

فهذه القصائد تدور فى فلك العجز والقيد بعد القدرة والحرية وتنطلق لأفـق أوسع إذ تشير للصراع بين الأمال المنطلقة والقدرات المكبلـة ، بلغـة سـهلة سلسـة مشحونة بشعور وحس خضعا لمؤثر قوى ، وكان أبو ذؤيب خرج فى جيش عبد الله بن سعد لأفريقيا فمات فى أثناء الرجوع وكان له خمس أبناء ماتوا تترا فرثاهم بعينيته وهى من أقوى قصائد الرثاء حتى قيل :

إنه عندما مات ابن جعفر بن المنصور ألتمس حافظاً لها فى بيته فلم يجد فقال: لحزنى على عدم حفظها لعدم رغبتكم فى الأدب أشد مـن حزنـى عـلى ابنـى وأمـر "الربيع " عامله أن يلتمس له أحداً يحفظها فوجد شيخاً فكان يطلب تكـرار بعـض القوافى عشرات المرات ومن قصيدة أبو ذؤيب الهذلى .

أمـــن المنـــون وريبهـــا تتوجـــع والـــدهر لـــيس بمعتـــب مـــن يجـــزع

قالت أُميمة : ما لجسـمك شـاحباً منـذ ابتـذلت ، ومثـل مالـك ينفـع

ام ما لجنبـك مـا يلائـم مضـجعاً إلإ أقــض ، عليــك ذاك المضـــجع

فأجبتهـــا : أن مـــا لجســـمى أنـــه أُدى بنـى مـن الـبلاد فودَّعــــــوا

أودى بنـــى واعقبـــونى غصـــة بعد الرقـاد وعبـــرة لا تـــــقلع

ســبقوا هــواى وأعتقــوا لهــواهم فتخرمــوا ، ولكــل جنـب مصرــع

فغــبرت بعــدهم بعــيش ناصــب واخـــال أنى لاحـــق مســـتتبع

ولقد حرصت بـأن أدافـع عـنهم فـــإذا المنيـــة أقبلـــت لا تـــدفع

وإذا كان الخلفاء الراشدون يمشون على هدي رسولنا الكريم يحبون الشعر ويثيبون عليه ويستشهدون به فإن الخليفة الرابع " على بن أبى طالب " كان شاعراً ونسب له ديوان مطبوع ، وشعره كله يدور فى فلك إسلامي لا يقر فرائض وإنما لا يخالف قواعد إسلامية ،يقول على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى فضل العلم.

الناس من جهة التمثال أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء

وإنما أمهات الناس أوعيةما لفضل ... مستودعات وللأحساب آباء

إلا لأهل العلم إنهم ... يفاخرون به فالطين والماء

فأن يكن لهم من أصلهم شرف ... فالناس موتى وأهل العلم أحياء)

وقيمة المرء ما قد كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء

فقم بعلم ولا تطلب به بدلاً ... على الهدى لمن استهدى أدلاء

" ديوان الأمام على " صـ٧ المكتبة الشعبية

شـــــعر الفتــــــوح

الشعر لازمة من لوازم العربي ينطقه لسانه فى كل وقت وكل مناسـبة ، حتـى قيل لا يترك العربي الشعر حتى تترك الإبل الحنين ، وإنه لو كان ثمة عقاب على نظم الشعر لورد العربي الباحة كل يوم

وهناك شعراء مخضرمون من الخضرمة – الخلط– عاشوا الجاهلية والإسـلام فتخلطت بداخلهم المفاهيم الجاهلية والإسلامية ، وهناك شـعراء جنـدوا أنفسـهم للدفاع عن الدين وعرض محاسنه ، ومهاجمـة الباطـل وفضـح مسـوءه، بـل كانـت الوفود تأتى لرسول الله ضامة شاعر وخطيب، ليبارى شـاعر الرسـول وخطيبـه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع ويحث الشعراء المسلمين على الـرد عـلى المشركين، وسار على نهجه الخلفاء الراشدون حتى إن عمر بن الخطاب كتب إلى أبى موسى الأشعرى واليه على البصرة

" مر من قبلك بتعلم الشعر فإنه يدل على معـالي الأخـلاق وصـواب الـرأي ومعرفة الأنساب.(١)"

وحينما خرج الحطيئة عن خـط الإسـلام الواضـح وهجـى الزبرقـان هجـاءٍ مقذعاً استعدى عليه عمر بن الخطاب فسجنه عمر حتى أرسل إليه:

مـاذا تقـول لأفـراخ بـذى مـرخ ... زغـب الحواصـل لا مـاء ولا شـجر

ألقيـت كاسـبهم فى قعـر مظلمـة ... فـاغفر عليـك سـلام الله يـاعمر

(١العمدة بن رشيق جـ١ صـ١٠

يستعطفه فعطف عليه وأخرجه من السجن واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف دينار.

وكذلك قويت قبضت عثمان على المخالفين فسجن ضابىء بن الحارث البرجمى حين هجى الأنصار بضراوة ثم مات فى سجنه،

وشعر الفتوحات متعدد الأغراض يغلب عليه سمة واحدة إذ أنها مقطوعات قصيرة ،وأعتقد أن سبب ذلك مقام الحرب وما يستدعيه من توتر يقضى أن ينفث المصدور شعره ثم يندمج فى حربه بلا تكاسل أوالشعور بالفراغ ، فالمقام مقام حرب فلا مجال للتحسين أو التزيين، **يقول النابغة** :

الحمد لله لا شريك له   من لم يقلها فنفسه ظلما
المولج الليل فى النهار   وفى الليل نهارا يفرج الظلما
الخافض الرافع السماء   على الأرض ولم يبن تحتها دعما
الخالق البارئ المصور فى   الأرحام ماءًا حتى يصير دما
من نطفة قدَّها مقدرها   يخلق منها الأبشار والنسما
ثم كسا الرأس والعواتق أبـ   ـشارا وجلدا تخاله أدما
ثم كسا الرأس والعواتق أبـ   ثمت لحما كساه فالتأما
والصوت واللون والأخلاق   شتى وفرق الكلما
ثم عظاما أقامها عصب   ثمت لحما كساه فالتأما
ثُمت لابد أن سيجمعكم   والله ، جهرا ، شهادة قسما
فائتمروا الأن ما بدا لكم   واعتصموا إن وجدتم عصما
فى هذه الأرض والسماء ، ولا   عصمة منه الا من رحما
يا أيها الناس هل ترون إلى   فارس بادت ، وخدها رغما

امســوا عبيــدا يرعــون شــائكم كــأنما كــان ملكهــم حلــما

او ســبا الحــاضرين مــأرب إذ يبنــون مــن دون ســيله العرمــا

فمزقــوا فى الــبلاد واعترفــوا الهــون وذاقــوا البــأس والعــدما

وبُدِّلــه الســدر والآراك بــه ال خمــط وأضــحى البنيــان منهــدما

والنابغة فى مطلع هذه العظة يثنى على الله بما هو أهله ، مقررا إيمانيه بوحدانيته وانه لا شريك له ، ونحس انه يستعير لفظه من الذكر الحكيم ، فهـو يسـتهل قولـه بكلمة (الحمد لله) ولا يلبث أن يستلهم مثل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

[سورة يونس: الآية٤٤]

ويتحدث في البيت الثاني عن نظام الكون المنبئ عن قدرة الله ،وجليل صنعه وتقديره على النظام البديع، مستعيراً من القرءان نفس لفظه فى قوله جل وعز: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة آل عمران: الآيـة ٢٦] وفى البيـت الثالـث نجد استلهام معنـى قولـه تعـالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ...﴾ [سـورة الرعد: الآية ٢] . وفى البيت الرابـع بـين مراحـل خلـق الإنسـان ثـم خلـق الكـون واستمر ينظم مثل قوله جل وعـز : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٤]. وهو يمضـى فيتحدث عـن البعـث والنشأة الثانية ،محذرا ومخوفا . ويتلمس أسلوب القرآن الكريم من ضرب الأمثـال بالحديث عن القرون والأمم البائدة مكملا بذلك العظة والعبرة.

النابغة الجعدى

هو عبد الله بن قيس من بنى جعدة العامريين ، واضطر أن ينخرط فى حروب قبيلته إذ ولد فى الفلج جنوبى نجد ، وقد شب على حب قومه يدافع عنهم ، وقد ظل ثلاثين عاماً بلا نظم حتى تفتق ذهنه وأنطلق لسانه وقيل إن نظمه الشعر كان بعد اعتناقه الإسلام . إذ وفد على الرسول مع قومه يعلنون إسلامهم فى العام التاسع للهجرة ويروى إنه لم يرجع معهم وقد مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم بقصيدة قال فيها

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنا لنبغى فوق ذلك مظهراً

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فأين المظهر يا أبا ليلى ؟ فأجابه : الجنة

وأعجب الرسول صلى الله عليه وسلم بشعره ومنطقه فقال له لا يفضض الله فاك .. وقيل إنه تجاوز المائة ولم تقع له ثنية . وقد أقام فى المدينة مهاجراً حتى إذا جاءت الفتوح أُبلى بلاءً حسناً واللفظ القرآنى حاضراً فى شعره :

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتاباً كالمجرة نيّرا

وجاهدت حتى ما أحس ومن معي سُهيلاً إذا مالاح ثُمت غوَّرا

أُقيم على التقوى وأرضى بفعلها وكنت من النار المخوفة أَوجرا

وقد انضم إلى على في خلافه مع معاوية ويحدث الناس إن الحق بيِّن وأنه في على وأتباعه يقول :

قد علم المصران والعراق أن علياً فحلها العتاق

إن الأُلى جاروك لا أفاقوا لهم سياق ولكم سياق

إلى التـــى لـــيس لهـــا عِـــراق		فـــــى مـــــلة عــــادتها النفـــاق

قـــد علمـــت ذلكـــم الرفـــاق		سُـــقتم إلى نهـــج الهـــدى وســـاقوا

وكان يتلوا القرآن أناء الليل وأطراف النهار، ونجد ألفاظ القرآن حاضرة بقوة فى شعره ، يقول متحدثاً عن خشية الله وتقواه:

**منـع الغـدر فلـم أهمـم بـه		وأخـو الغـدر إذا هـم فعـل**

**خشـــية الله وأنـــى رجـــل		إنـــما ذكـــرى كنـــار بقبـــل**

ودائماً ما يقر بنعمة الإسلام الذي حوله من ظلمات الوثنية إلى نور الوحدانية **يقول:**

**عُمّرت حتى جاء أحمد بالهدى		وقـوارع تـتلى مـن القـرآن**

**ولبست مِن الإسلام ثوباً واسعاً		مـن سـيب لا حـرمٍ ولا منـان**

وكان رسول الله يعجب بأبياته وحينما قال:-

**ولا خـير فى حلـم إذ لم تكـن لـه		بـوادر تحمـى صـفوه أن يكـدر**

**ولا خـير فى جهـل إذا لم يكـن لـه		حليم إذا ما أورد الأمـر أصـدرا**

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يفضض الله فاك " "فبقى عمره لم تنقض له سن، وكان معمراً ، ونادم المنذر أبا النعمان بن المنذر **وفى ذلك يقول:**

**تـذكرت والـذكرى تهـيج الفتـى		ومـن حـاجة المحزون أن يتـذكرا**

**نـداماى عنـد المنـذر بـن محـرق		أرى اليوم منهم ظاهر الأرض مقفرا**

وشعره ليس على درجة واحدة بل يهبط ويصعد في الإجادة حتى قال العلماء فى شعره " خمار بواف ، ومطرف بآلاف ، يريدون أن في شعره تفاوتاً ، فبعضه مبرز، وبعضه رديء ساقط".

وقال لامرأته حين خرج غازياً :

باتــــت تُـــذكرنى بـــالله قاعـــدة	**والـدمع ينهـل مـن شـأنيها سـبلا**
يا ابنـة عمـى كتـاب الله أخرجنـى	**كرهـاً ، وهـل أمـنعن الله مـا فعـلا**
فإن رجعت فرب النـاس يُرجعنـى	**أو ضارعاً من ضنىً لم يستطع حولا**
ما كنت أعرج أو أعمـى فيعـذرنى	**وإن لحقــت بربــى فــابتغى بــدلا**

ويتحدث عن طول عمره:-

ومــن يحـرص عـلى كـبرى فـأنى	**وعشــــر بعـــد ذاك وحجتـــان**
مضــت مائــة لعــام ولــدت فيــه	**مـــن الشـــبان أزمـــان الخنـــان**

وقال في العمر أيضاً:-

لبســـــت أناســــاً فـــأفنيتهم	**وأفنيــت بعـــد أنـــاسٍ أناســاً**
وعشـــت بعينـــين إن المنـــون	**تلقــى المعــايش فيهــا خساســا**
ثلاثــــة أهلــــين أفنيـــــتهم	**وكــــان الإلــــه هوالمستآســــا**

النمر بن تولب

من عكل وكان كريماً جواداً حتى سمى الكيِّس وهو من المخضرمين ، وقد قال لرسول الله:–

إنـا أَتينـاك وقـد طـال السـفر (نقود خـيلاً ضُـمراً فيهـا عسـر)

نطعهـا الشـحم إذا عـز الشـجر **(والخيل فى اطعامها اللحـم الضـرر)**

وله أبيات شهيرة أدعيت لنصيب وهو ناظمها

أهيم بدعد ما حييت فـإن أمـت أُوص بدعـدٍ مـن يهـيم بها بعـدى

ومن أبياته الشهيرة:–

إذا كنت في سعد ، وأمك مـنهم، غريباً فلا يغررك خالـك مـن سـعد

فابن أخـت القـوم مُصـفى إنـاؤه إذا لم يـزاحم خالـه بـأب جلـد

ويتحدث عن إعراض المرأة:–

فصدت كأن الشمس تحت قناعهـا بـدا حاجـب منهـا وضـنت بحاجـب

أخذه أبو نواس فقال:

يـاقمراً للنصـف مـن شـهرة أبـدى ضـيـاءً لـثـمان بقـين

وقد يتمادى فى المبالغة ويورد وصفاً بعيدا كقوله عن حدة السيف ومُضاءه أنه ينزل فى الأرض فتحتاج التنقيب عنه وهو إفراط ممقوت :–

تظـل تحفـر عنـه ان ضربـت بـه بعـد الـذراعين والسـاقين والهـادي

أمية بن أبى الصلت

هو أمية بن أبى الصلت بن أبى ربيعة بن عوف بن عقدة بن غـيرة بـن قسـى كان يقرأ فى الكتب القديمـة وكـان يـأتى فى شـعره بألفـاظ وحكايـات لا يعرفهـا الكثيرون مثل حديثه عن الديك وعن الهدهد

بآية قام ينطق كل شىء وخان أمانة الديك الغراب

وكانوا يقولون إن الديك كان نديماً للغراب ، فرهنه على الخمر وغدر بـه ولم يرجع وتركه عند الخمار ، فجعله الخمار حارساً ، وقيل إن الهدهد لما ماتت أمه حملها على رأسه براً بها فبقيت فى رأسه ، فالقنزعة التى فى رأسه هى قبرها وإنما انتنت ريحه لذلك:-

غيـم وظلماء وفضل سحابة اذ كان كفـــن واسـترادالهدهـد

يبغـى القـرار لأمـه ليجنها فبنى عليهـــا فى قــــفاه يمهد

فيزال يدلح ما مشى بجنازة منها ، وما اختلف الجديد المسنـد

ويورد ألفاظاً غريبة " قمر وساهور يسل ويغمـد " والسـاهور، يـذكر أهـل الكتاب غلاف القمر يدخل فيه إذا كسـف ، ويسـمى السـماء فى شـعره " صـاقورة وحاكورة وبرقع " ويقولون إن الشمس إذا غربت امتنعت عن الطلـوع وقالـت لا أطلع على قوم يعبدوننى من دون الله حتى تدفع وتجلد فتطلع فقال أمية:

ليست بطالعة لهم فى رسلهـــا إلا معـــذبـــة وإلا تجـــلـــد

وعلم بقرب مبعث نبى ، وأمل أن يكونه فلم بعث رسول الله نفث عليـه ولم يؤمن وعندما سمع رسول الله شعره قال : أمن لسانه وكفر قلبه ، وعندما حضرـته الوفاة قال:

كل عيش وإن تطــاول دهـراً صـــائر مـــرة إلى أن يـــزولا

ليتنى كنت قبل ما قدبدا لى فى رؤءس الجبال أرعى الوعولا

ثانيا: العصر الأموي

بدأ العصر الأموي بتولي معاوية بن أبي سفيان الحكم ٤٠ ه بعد منازعته لعلي بن أبي طالب و هناك عوامل عديدة أثرت في الأدب وأحداثه ، كان الأدب وقودها، وصراعات ألهبها الأدب وفجر أطرها ، فأصبغت عليه سمتها ، وأضفى عليها سماته ؛ فقد دفعته إلى حقول إبداعية جديدة ، وأضفت شيات قشيبة على صياغات تليدة ، فالناحية السياسية والاجتماعية ، والحضارية ،والاقتصادية ، فرضت رؤية على الأدب ووجهته وجهة ترغبها.

الحياة السياسية

كانت البيئة الإسلامية الأولى تنكفىء على أُناس" يعيشون حياة مثالية ، تُساس بالقانون الشرعي ، الذي يفرض الواجبات ، ويعطي الحقوق ، لم يكثر بينهم الخلاف في الآراء ، ولم يتأولوا في الدين بما يخرجه عن حقيقته، التي تدعوا الناس إلي التآلف و العدل المرحمة، أو كما يقول الجاحظ " كانوا على التوحيد الصحيح والإخلاص المخلص مع الألفة ، واجتماع الكلمة على الكتاب والسنة، وليس هناك عمل قبيح ولا بدعة فاحشة ، ولا نزع يدٍ من طاعة ولا حسد ولا غل ولا تأوُّل"(١).

وحدثتها النقلة أو تعمقت الحفرة بغزو الفكر الأموي للمجتمع الإسلامي ، واستملاك الخلافة ،غزى الخلف المجتمع الإسلامي ؛ وبعد أن كان الأفراد كل في مجاله يعرف واجباته وحقوقه يغشاه المودة والرحمة ، استحال إلى مجتمع انفجرت فيه براكين الفتن على أنواعها ، واستحيت ، العصبية وانخرط المؤولون يأولون في الدين ، ففتحوا الباب على مصراعيه لكل مخالف للتعاليم ، وفي الدين مبتدع ، شجعهم على اقتراف ذلك تسرب السياسة للحياة الفنية، والاجتماعية والاقتصادية

١-اتجاهات الشعر في العصر الأموي د صلاح الدين الهادي صـ ٨ مكتبة الخانجى ١٩٨٢

... التي فتت وحدة المجتمع، واستولدت أحزابًا متناحرة وشظته شظايا متنافرة ، فقد اجتمعت الأمة على طاعة يشوبها بعض الحقد الدفين والحسد المتواري الذي قد يتدفق من فيه أحدهم كما قال الحطيئة في بيتيه:

أطعنا رسول الله ما كان بيننا فيـــا لعباد الله، ما لأبي بكـر ! !

أيورثها بكرًا (إذا غاب) بعده وتلك لعمر الله قاسمة الدهر !!

ثم كان حسم عمر بن الخطاب الذى جعل الجمع يلزم غرزه، خشية لدرته ، ومهابة لعقابه ، حتى تولى حييِّ الأمة عثمان بن عفان – إذ كان رسول الله صلى الله عليه يقول " وكيف لا استحي ممن تستحيِ منه الملائكة " فقد كان حيّ مع من يستحق ومن لا يستحق ، فها هو ذا يغدق الأموال على أهله الأمويين مغضبًا لجموع الشهود – يسند إلي أهله منهم الولاية ... مما خلخل المجتمع الذي اعتاد أن يتولاها من امتلك قدرات ومؤهلات خاصة أو كان ذو مكان وفضل في الإسلام ، لكن الخليفة أسندها لأُناس خلوا من هذا وذاك [1] .

فقد أنهى عقاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه الحكم – فقد طرده صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ، وظل شريدًا بها حتى انتهاء خلافة عمر، لكن عثمان رده وسمح له بدخول المدينة ومنحه مائة ألف وقرب إليه مروان بن الحكم، وأقطعه فدك [2] وقد استردها منه الخليفة عمر ابن عبد العزيز وجعلها صدقة ، وغيرها من أقوال تدل على تميزه وإيثاره ، فقد طمع أقاربه في حلمه واثقلوا عليه في طلباتهم حتى إنه – مروان بن الحكم- اشترى من الخمس الذي أرسله له عبد الله بن سعد بن أبي سرح حينما فتح أفريقيا بخمسائمة ألف دينار فأعطاه ثم وضع عنه الثمن حتى قال عبد الرحمن الكندي راصدًا لتلك الأفكار:-

---

١- فقد أسند ولاية البصرة لابن خاله عبد الله بن عمر (خمس وعشرون عامًا)وعزل عنها أبا موسى الأشعري،
٢وهي صدقة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي منعها أبو بكر ، ولم يعطها للسيدة فاطمة ارتكانًا لقوله صلى الله عليه وسلم : نحن معشر الأنبياء لا نورث وما تركناه صدقة

سـأحلف بـالله جهـد اليميـــــ ـــن مـا تـرك الله أمـرًا سُـدى
ولكـــن خُلقـــت لنـــا فتنـــةً لكـــي نُبـــتلى بـــك أو تُبـــتلى
فـــإن الأميـــين قـــد بينـــا منـــار الطريـــق عليـــه الهـــدى
فـــما أخـــذا درهمًـــا غيلـــة خلافًـــا لسـنة مـن قـد مضـــى
دعـــوت اللعـــين فأدنيتـــه ومـــا جعـــلا درهمًـــا في الهـــوى

وأعطيت مروان خمس العبا د ظلمًا لهم وحميت الحمى[1]:-

فالسخط كان موجه لسياسة عـثمان " رضي الله عنـه " وكانـت نفـوس مـن المهاجرين والأنصار رافضة لنهجه ، ولأمور يفعلهـا لا ترضـيهم " بعضـها يتصـل بمسائل دينية ، وبعضها بمسائل سياسية ، وإداريـة ، وإجتماعيـة ، وماليـة ، وأكثـر بعضهم من نصحه ، وأغلظ بعضهم في نصـحه ، لكـن عـثمان لم يسـتجب للنصـح الرفيق ، ولم يستمع للنصح الجاد الحازم ، فتفاقم الخطب ، واتسعت الهوة "(٢)

نهج عثمان – رضي الله عنه – نهجًا غاير الثلاثة الأُول سياسـيًا- واجتماعيًـا – وإداريًا ، وزاد تحذيره لكن ذلك لم يفلح في تغيير سياسته.

فقد كان يؤثر أهله حتى وإن بدى من بعضهم براعة واقتدار فيما اسند إلـيهم من ولايات إلا أن الأكثرية كانت ترفض ذلك التمييـز بـل نبهتـه إلي سـخط الأمـة وزادوا في تحذيره مغبة ذلك قال عمرو بن العاص " إنك قد لنـت لهـم ،وتراخيـت عنهم .... وأرى أن تلزم طريقة صـاحبيك ، فتشـتد في موضـع الشـدة ، وتلـين في

١الكامل لابن الأثير ج٣ صـ ٣٥
٢أدب السياسة في العصر الأموي د أحمد الحوفي صـ ٣٠

موضع اللين ، إن الشدة ينبعي لمن لا يألوا النـاس شرًا ، واللـين لمـن يخلـف النـاس بالنصح وقد فرشتهما جميعًا اللين " (١)وحذر من رؤوس الفتنة ،

لكن لفرط حيائه كان يتجاوز مؤثراً ما شب عليه من اللـين والدعـة إذ كـان يخشى الفتنة والتي وقعت بالفعل وتزعمها رأس المنافقين عبد الله بن سبأ.. متواريًا خلف الدعوة واستأمام على بن أبي طالب لما حاز من مزايا تؤهله للأحقية بالخلافـة فقد أمضى عمرًا طويلاً في الإسلام، وأول من أسلم من الصبيان وزُوِج ابنة رسول وغيرها من الخصال التي خُصَ بها ، ووضع خطته الممنهجة من نشر تلك الفكرة في الأمصار ، والطعن على أُمرائهم ، وأظهروا الأمر بالمعروف ، والنهـي عـن المنكـر ، فتتبعهم طوائف تتلوا طوائف، وجمعوا الناقمين ضده وحشـدوا الحشـود في " يـوم الدار"ورصد له مؤيدوه من يحموه من أولاد الصحابة الكبـار وأمـرهم بالمغـادرة ؛ فقد كان يكره أن تسيل الدماء الإسلامية بسببه " وأقسم عليهم فرجعوا إلا الحسـن بن علي ، وابن العباس ، ومحمد بـن طلحـة ، وعبـد الله بـن الـزبير ، وأشـباهًا لهـم واجتمع إليهم أناس كثير "(٢).

لكنه رفض حمايتهم وردهم مخالفًا لرأي الصحبة الـذين كـانوا يـرون شـيوع الفتنة وحدة البغاة فقال له علي"... إن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وضُل بـه، فأمات سنة معلومة ، وأحيا بدعة متروكة ، ... وإني أحذرك الله ، وأحذرك سطوته ونقمته ،فإن عذابه شديد أليم ، وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول ...."(٣)

وأمهات المؤمنين استئن من إيثاره لأقاربه ومعارفـه إذ أن بعضـهم سـعى في الأرض فسادًا إتكاءً على قرابته لأمير المؤمنين.

١الطبرى ج ٥ صـ ٩٩
٢ذي النورين عثمان بن عفان الخليفة الثالث، صـ ١٧٧ ،محمد رشيد ، دار الكتب العلمية
٣الطبري ج ٥ صـ ٩٦

قالت السيدة أم سلمة محذرة إياه(يا بني ، مالي أرى رعيتك عنك نافرين ،ومن جنبك مزورَّين، لا تُعف طريقًا كان النبى صلى الله عليه وسلم لحبها ، ولا تقدح زندًا كان أكباها ، توخَّ حيث توخَّ صاحباك ، فإنهما ثكما الأمر ثكمًا ، لم يظلما أحدًا فتيلاً ولا نقيرًا، ولا يختلف في ظنين ، هذه حق بنوتي ، قضيتها إليك ولي عليك حق الطاعة " (١)

وكانت السيدة عائشة مستاءة من الظلم الواقع في الأمة للين خليفتها وأنكرت عليه ما أحدث (وكانت تخرج قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم وشعره ، وتقول : هذا قميصه وشعره لم يبل ، وقد بُلي دينه ثم قامت تطالب بدمه ، وتعلن أنه قتل مظلومًا ، لما علمت أن البيعة تمت بالمدينة لعلي) (٢)

وحينما اشتد الخطب وحاصر الخارجون دار الخليفة أرسل إلى علي وطلحة والزبير فحضروا فأشرف عليهم فقال : " يأيها الناس اجلسوا . يا أهل المدينة استودعكم الله ، وأسأله أن يحسن عليكم الخلافة من بعدى . أنشدكم الله هل تعلمون أنكم دعوتم الله عند مصاب عمر أن يختار لكم ويجمعكم على خير ، أتقولون إن الله لم يستجب لكم وهنتم عليه ، وأنتم أهل حقه، أم تقولون هان على الله دينه فلم يبال من ولي ، والدين لم يتفرق أهله يومئذ ، أم تقولون لم يكن أخذ عن مشورة إنما كان مكابرة ، فوكل الله الأمة إذا عصته ولم يشاوروا في الإمامة ، أم تقولون إن الله لم يعلم عاقبة أمري ؟ وأنشدكم بالله أتعلمون لي من سابقة خير ، وقدم خير قدمه الله لي يحق على كل من جاء بعدي أن يعرفوا فضلها فمهلاً لا تقتلوني فإنه لا يحل إلا قتل ثلاثة : رجل زنى بعد إحصانه ، أو كفر بعد إيمانه ، أو

١لا تعف : لا تمح، لحبها: أوضحها، توخ : أقصد ، ثكما الأمر : لزما الحق ولم ينحرفا عن الحجة ، الظنين : المتهم .
٢الطبري ج٥ صـ ١٧٢

قتل نفسًا بغير حق ، فإنكم إذا قتلتموني وضعتم السيف علي رقابكم ، ثم لم يرفع الله عنكم الاختلاف أبدًا"

(١) فتجرا عليه البغاة ومنعوه الصلاة ، وحرموه المياة ، بل وتجرأوا على زوجه (رملة بنت الفرافرة) وهى تدافع عنه فقطعوا أناملها بسيوفهم ثم خلصوا إليه فقتلوه.

الأمة بعد زى النورين:-

كانت ولاية عثمان في شقها الأول آخر عهد اجتماع الأمة وتوحدها ، إذ بمقتله تشعبت الأمة وانقسمت .. فالتف أهل الشام حول معاوية ؛ وأقروا له بالخلافة وأفرطوا في تأييده حتى شطوا بلعن الإمام على المنبر ، أن معاوية هو ولي الدم للخليفة المقتول وأشاعوا أن الإمام مفرط وآوى موريقي الدم .. وطفت الغيرة الدفينة من البيت السفياني لآل البيت الهاشمي ، ممثلة في علي – وقد ذهب إليه جرير بن عبد الله الجبلي ليأخذ البيعة فماطله قائلاً: أمهلني !!. وكانت بداية الخدع التي تواترت من معاوية موجهة إلي الإمام ، فقد أرسل لأهل الشام ليستوثق من تأييدهم له فأوثقوه . **فاطمئن وأنشد ليُسمع جريرًا:-**

تطاول ليلي واعترتني وساوسي — لآت أتى بالتُّرهات البسابس
أتاني جرير والحوادث جمة — بتلك التى فيها اجتداع المعاطس
أكابده والسيف بينى وبينه — وما أنا من مُلك العراق بيائس[٢]
إن الشام أعطت طاعة يمنية — ولست لأثواب الدني بلابس
فإن يفعلوا أصدام عليا بجبهة — تواصفها أشياخها في المجلس

١المرجع السابق ١٧٦-١٧٧
٢الكامل في اللغة والأدب للمبرد ج١ صـ ٢٩

وإني لأرجـو خـير مانـال نائـل تفت عليـه كـل رطـب ويـابس(١)

وبدأ معاوية في ترتيب خطواته فاستقدم عمرو بن العاص من فلسطين واستشاره فأشار عليه أن يرسل إلى وجوه (ويلزم عليا دم عثمان ، ويقاتله بهم ، وكتب لعمرو ولاية مصر طعمة ، وكتب عليه : ولا ينقض شرط طاعة ، فقال عمرو : يا غلام اكتب ولا تنقض طاعة شرطًا "(٢)

ثم أرسل إلى علي برأيه يعلمه بما ينتوي (.. أما بعد ، فلعمري لو بايعك القوم الذين بايعوك ، وأنت بريء من دم عثمان ، كنت كأبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، رضي الله عنهم أجمعين ، ولكن أغريت بعثمان المهاجرين ، وخذَّلت عنه الأنصار فأطاعك الجاهل ، وقوي بك الضعيف ، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان ، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين، ولعمرك ما حجتك عليَّ كحجتك على طلحة والزبير، لأنهما بايعاك ، ولم أبايعك، وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة، لأن أهل البصرة أطاعوك ، ولم يطعك أهل الشام) (٣)

وكان ينشر قميص عثمان الملطخ بالدماء على المنبر ليحشد الحشود ، وقال الوليد بن عقبه بن أبي معيط أخو عثمان في الرضاع مخاطبًا بنى هاشم:-(٤)

بنـي هاشـم إنـا ومـا كـان بيننـا كصدع الصفَّا ما يومض الدهر شاعبه

بنـي هاشـم كيـف الهـوادة بيننـا وعنـد علـي درعـه ونجائبـه

بني هاشم ردوا سلاح ابـن اختكم كما غـدرت يومًـا بكسـرى مرازبـهْ

غـدرتُم بـه كـيما تكونـوا مكانـه ولا تنهبـوه لا تحـلَّ مناهُبـهُ

١الكامل في اللغة والأدب للمبرد ج١ صـ ٢٩
٢المرجع السابق الترهات جمع ترَّهة : وهى الباطل ، والبسابس بمعناها ، الجبهة : جماعة الخيل .
٣الكامل ج ١ صـ ٢٣٠
٤المرجع السابق ج٢ صـ ٢٥٦

فرد عليه الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب وهو يصرح بأحقية علي في الخلافة قبل تولى عثمان ، وتبرئت على الذى لم يك محتاجًا لقتله أو للتأمر عليه يقول[1]:

فلا تسألونا سيْفكم إن سيفكم أُضيع وألقاه لدى لروْع صاحُبْه
سلوا أهل مصر عن سلاح ابن أختنا فهم سلبوه سيفه وحرائُبْه
وكان ولى الأمر بعد محمد عليَّ وفي كل المواطن صاحبه
عليَّ ولىَّ الله أظهر دينه وأنت مع الأشقين فيما تحارُبه

وانقسم المجتمع بعد وحدته ، فنادوا إلى ما كانوا عليه قبل الإسلام مع اختلاف المؤيد.... فصار عرب الشام الذين كانوا في جانب صفوف الروم إلي معاوية، وآزرعرب العراق – الذين كانوا في صفوف الفرس- إلي علي ، وكان معاوية كريمًا سخيًا يغدق على مؤيديه ومعارضيه، فيستحيل معارضيه مؤيدين، كذلك كان يهادن أعداءه فكفوا أذاهم وأطلقوا ألسنتهم تسبح بحمده ، يقول كعب بن جعيل التغلبي الذي كان هواه وهوى قومه تغلب في معاوية[2].

أرى الشام تكره ملْك العراق وأهل العراق لهم كارهينا
وكلا لصاحبه مبغضًا يرى كل ما كان من ذاك دينا
إذا ما رمونا رميناهم وضربٌ يقر العيونا
ومن دون ذلك خرْط القتاد فقلنا رضينا ابن هند رضينا
فقالوا : عليٌ إمام لنا فقلنا : ألا لا نرى أن ندينا

١مروج الذهب ج ١ صـ ٣٥٧
٢الكامل ج١ صـ ٢٣٠ الخرط : قشر الورق عن الشجرة اجتذاباً باليد، القتاد : شجر له شوك أمثال الإبر وهذا مثل يضرب للأمر دونه مانع صعب يحول بينك وبينه ،

وقـــالوا : نـــرى أن تـــدينوا لـــه ودِنـــاهم مثـــل مـــا يُقرضـــونا

وللطرف الأخر شعراؤه فهاهو ذا النجاشي صاحب علي يقول مدافعا :

دعًا يا معاوى مالا يكونا فقـــــد حـقق الله ما تحـذرونا

أتاكم على بأهل العراق وأهل الحجاز فما تصنعونا ؟!(١)

وآثر الإمام اللقاء السيفي رغمًا عن نصح ابن عمه " عبد الله بن العباس" قائلاً له : يا أمير المؤمنين ، أنت رجل شجاع ، أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الحرب خُدعة ؟ ومع ذلك فقد أبى عليٌ إلا أن يجعل السيف بينه وبين معاوية "[٢] مخالفًا آراء كبار الصحابة والتابعين .

وتحذيره الداهية " المغيرة بن شعبة " له من خلع معاوية وتذكيره بأن له في الأمر مندوحة لتعيين عمر له واليًا على الشام إذ قال : والله لا أداهن في دينى، ولا أعطى الرياء في أمرى فأشار عليه المغيرة أ ن يعزل من شاء من العمال ؛ على أن يبقي على معاوية ،لأن لمعاوية جراءة، وهو من أهل الشام مسموع منه ، وذكر له أن عنده الحجة في إثباته ، فإن عمر ولاه الشام كلها ، غير أن عليًا أجابه بقوله : لا والله لا استعمل معاوية يومين أبدًا "[٣].

والتقي الشيعتان بأئمتهما في " صفين" تلك الموقعة التي كانت تربة خصبة لولادة الصدع الأممي الذي لم يلتئم إذ تفرقت الأمة الإسلامية شيعًا؛ الشام مع معاوية ، والعراق مع علي ، وأوشك جيش العراق على الانتصار ، فأشار عمرو بن العاص أن يرفع الجند المصاحف على أسنة الرماح ففعلوا ذلك ، وكثر رفع المصاحف وقال النجاشي.

١المرجع السابق ج ١ صـ٢٣٣
٢مروج الذهب ج٢ صـ ٣٦٤
٣المرجع السابق ج ٢ صـ٣٦٤

فأصبح أهل الشام قد رفعوا القنا عليها كتاب الله خير قران

ونادوا عليًّا يا ابن عم محمد أما تتقي أن يهلك الثقلان(١)

فاتفق الطرفان على أن يبعث كل منهما حكـمًا يحكم الأمر وينهيه ، فختار معاوية عمرو بن العاص ، بينما اختار فريق على أبا موسى الأشعري – على غير رغبة من الإمام علي – لإنه يعرفه فهو – رجل طيب مسالم أما صنوه فغير ذلك (٢) لكن الجموع دفعته لقبول الحكم والمحكم ، فما كاد التحكيم يعرف حتى ثارت الجموع من بني تميم رفضًا للتحكيم وحجتهم في ذلك هو جعلهم هم والباغين على حد سواء .وهو ما يخالف قوله تعالى " وإن فئتان من المؤمنين اقتتلوا فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء إلي حكم الله " وهم ذهبوا للقتال على يقين أنهم على الحق ومعاوية ومن تبعه بغاة ،إضافة إلي أن التحكيم حصر الخلافة في رجلين وهو مخالف لشورى المسلمين لذا انتشرت جملة " لا حكم إلا لله" فسموا المحكمة" ورفضوا التحكيم من منبعه فسموا الرافضة ، واتخذوا منهجًا من الاعتراض التصعيدي على الإمام إذ كتبوا ذلك في المسجد ولا قوه بها في الطرقات ثم طالبوه أن يقر بخطئه لقبوله التحكيم ، ثم رموه بالكفر وخرجوا عليه . ولاذوا " بحروراء" فسموا بالحرورية وأمروا عليهم أحدهم سموه أمير المؤمنين " عبد الله بن وهب الراسبي" واشتد عصبيتهم للإسلام ، وفي رأيهم أن الخليفة لم يلتزم أمر الله ونواهيه فيجب قتاله ، وقد التقاهم الإمام علي عام ٣٨ه-٣٩ ه وقتل منهم مقتلة عظيمة فردوا شراسة معادتهم له حتى بلغت الذروة بأبي ملجم الذي مات من أسرة زوجته أو خطيبته الكثيرون مما حنقهم عليه... فطعن الإمام علي

١مروج الذهب ٢؟ صـ٤٠٠

٢ فقد شب علي مع عمرو بن العاص في ربوع مكة ويعلم مستقرهم ومستودعهم

كان الإمام يحارب معاوية ، ويحـارب الخـوارج ، ويحـارب عصـيان جنـده ؛ وعدم طاعتهم له ، وظل على طاعتـه كبـار الصـحابة . سـلمان الفـارسي ، وأبـو ذر الغفاري ، المقداد بن الأسود ، عمار بن ياسر ،الفضل والحبر ابنا العباس ، وغـيرهم الذين رأوا في معاوية طمع من لا يستحق وأنه جائر.وبعـد مقتـل الإمـام اسـتحال التعاطف الشعوري إلي فرقة لها عقيدة محددة من أحقية آل البيت والدفاع عن ذلـك فتبلور ذلك في مذهب سياسي وحقناً لدماء المسلمين عقدت – معاهدة – معاويـة والحسين على أن يتركلمعاوية – فقط – الخلافة على أن تكون من بعده شورى بـين المسلمين ، فلم يقاتل الحسين لما رآه من تخاذل من أنصاره وتهافتهم فآثر حقـن دمـاء الأمة(لما صالح الحسن معاوية ، قام فخطب في أهل الكوفة ، وقال : " أيهـا النـاس إن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بأخرنا .. يا أهل الكوفة لم تذهب نفسيـ عـنكم إلا لثلاث خصال ، مقتلكم لأبي ، وسلبكم ثقلي ، وطعنكم في بطنى – وكـانوا قـد نهبوا سرادقه ، ورحله، وطعنوا بالخنجر في جوفه - لذا إنقاد إلي الصلح (١)

لكن معاوية طمع فى الحكم لولده يزيد مبتدعًا أحدوثة جديدة مـن اسـتحالة الحكم من شورى إلى ملك عضوض يـورث ، وبـدأ يمهـد لـذلك بصـبر وتـؤدة ، وحنكة سياسية ، وكرم وسخاء في الأعطيات لرعيته فقد كـان (مجربًـا قـد حنكتـه الأيام ، واسع الصدر ، حليمًا ، وكان يقول عن نفسه

قد عشت في الدهر ألوانًا على خُلق شتى وقاسيت فيه اللين والطبعا
لا يملأ الأمر صدري قبل مصدره ولا أضيق به ذرعًا إذا وقعا (٢)

لذا بدأ في بذل الغالي والنفيس ، ويغدق على الشعراء لما يعرفه من قـوة تـأثير الكلمة ، وحدة أثرها ، ولم يكتف بتأييد عرب اليمن " أخوال يزيد " بل بدأ الملاينـة

١اتجاهات الشعر في العصر الأموي ، د صلاح الدين الهادى، صـ ٢١ مكتبة الخانجى ، ط ١ ١٩٨٦
٢الأمالى أبى على القالي ج٢ صـ ٣٠٨

في بني هاشم ، ويقظًا لرءوس بني هاشم لكيلا يعادوه وقد أوعـز إلى رجـل مـــن الأزد يقال له ذو الُكُلاع أن يواجه وفود الأمصار في مجلسه بطلب البيعة ليزيد ، ولما كان هذا المجلس ، قام الرجل فقال : هذا أمير المؤمنين ، وأشـار بيـده إلى معاويـة ، فإن مات فهذا ، وأشار بيده إلي يزيد، فمن أبى فهذا وأشار إلى السيف .، ثم قال :

معاويـــــة الخليفـــــة لا نـــــاري ... فـــإن يهلـــك فسائســـنا يزيـــد

فمـــن غلـــب الشـــقاء عليـــه جهـــلاً ... تَحكـــم في مفارقـــه الحديـــد(١)

وخشي الناس بأسه واستنام أكثرهم للدعة يقول السلولي:

فـــإن تـــأتوا برملـــة أو بهنـــد ... نبايعهـــا أمـــيرة مؤمنينـــا

إذا مـا مـات كسـرى قـام كسـرى ... نعـــد ثلاثـــة متناسـقينا (٢)

أما أهل الحجاز فأصيبوا بخيبـة بالغـة إذ اسـتبعدوا عـن الإمـارة واسـندت للخليع (يزيد بن معاوية)الذى كان "متهماً برقة الدين ، وشرب الخمـر والإقبـال على اللهو ، ومجالس الغناء ومنادمة الفساق " حتى أطلق عليه الخليع (٣)

واستعانوا بالحسين الذى رفض مبايعة " يزيد" استطلبها منه معاوية ٦٠ هــ ذهب الحسين إلى مكة ثم أرسل إليه أهل الكوفة اليمانية على الخصوص أكبر القبائل عددًا وأهمها في الكوفة يطالبون بالثورة على يزيد ويبذلون الوعـود المغلظـة لتأييـده والدفع عنه. فبعث ابن عمه " مسلم بن عقيل " ليستوثق من البيعة ويمهد لمقدمه ، ويأخذ العهد فبذلوا لمسلم ذلك ، فأرسـل الأخـير إلى الحسـين يـدعوه للحضـور ، معلمه بأخذه العهد والبيعة ، وتحفظ على ذلك الذهاب المخلصون لما عرف عن أهل

١المرجع السابق ج١ ص ١٦٢ والعمدة ج ١ ص٢١٢
٢رسائل الجاحظ ج ٢ صـ ١١
٣المرجع السابق صـ ج٢ صـ ١١

ذلك المصر من الخيانة فقال له عبد الله بن عباس : يا ابن عم بلغني أنك تريد العراق ..وأنهم أهل غدر فلا تعجل ، وإن أبيت إلا محاربة هذا الجبار .. فاشخص إلي اليمن فإنها في عزلة ، ولك فيها أنصار وإخوان ،فأقم هناك وبث دعاتك ، وأكتب إلى أهل الكوفة وأنصارك بالعراق ، فيخرجوا أميرهم ، فإن قووا على ذلك .. ولم يكن بها أحد يعاديك أتيتهم ، وما أنا بغدرهم بأمن .. كما نصحه أبو بكر بن الحارث بن هشام الأموي بنحو ذلك ، ولكن الحسين احتج بأن مسلمًا كتب إليه باجتماع أهل المصر " الكوفة " على بيعته ونصرته ، وأنه عازم على المسير إليها " (١)

وكثير من الصحابة أسدوا إليه النصح ، لكنه أخبرهم بعزمه على الذهاب لآن مسلم بن عقيل أخذ البيعة له ، وعندما علم يزيد بن معاوية بذلك عزل والي الكوفة " النعمان بن بشيرالأنصاري " وولى عبيد الله بن زياد " الذي أوسع الناس قتلاً ؛ إذ قتل مسلم بن عقيل وتوعد من ينصره

كربلاء : من الأحداث الموجعة في التاريخ الإسلامي .. فقد توجه الحسين إلى الكوفة بناءً على المواثيق المأخوذة ؛ ثم عرف خبر مقتل مسلم بن عقيل ،لكنه استمر في السير تصحبه ثلة من أهله ، وأبناء عمومته ، والتقى خيل عبيد الله بن زياد بقيادة " عمرو بن سعد بن أبى وقاص" " فعدل إلى كربلاء ، فحُصر فيها ثلاثة أيام ولم يك معه ماء حتى بلغ بهم العطش مبلغه وفي تاريخ الطبري " وفي العاشر من المحرم سنة(٦١) استعد الفريقان للقتال ، ومع الحسين اثنان وثلاثون فارسًا وأربعون رجلاً من بينهم ثمانية عشر من أبناء عمومته وودع أصحاب الحسين صاحبهم على موعد لقاء في الجنة ، قبل أن يدخل كل واحد منهم المعركة الواحدة بعد الآخر ، وكذا فعل أبناء عمومته حتى قتلوا جميعًا ، واستطاع " شمر ابن ذي الجوش" ومعه فرقة من الجند ، أن يبعدوا الحسين عن معسكر النساء

١اتجاهات الشعر في العصر الأموي صـ ٢٤

والأطفال ، ثم انقضوا عليه طعنًا وضربًا حتى أصابوه بثلاث وثلاثين طعنة ، وأربع وثلاثين ضربة، وسلبوه سراويله وقطيفته ، ونعليه ، وسيفه، .. ثـم مـالوا إلى نسـاء الحسين ومتاعه حتى كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه (١)

وبعد مقتل الحسين اجتزت رأسه الشريف، ويقال إن يزيد حينما أتـاه الخـبر (تمثل بقول عبد الله بن الزبعرى متشفيًا فى قتلى المسلمين فى أحد:

ليـــت أشـــياخى ببـــدر شـــهدوا جــزع الخــزرج مــن وقــع الأســل

لا ســـتطاروا واســـتهلوا فرحـــا ثـــم قـــالوا : يـــا يزيـــد لا تســـل

والبيت الثاني من صنعة يزيد لا من قول ابن أبى الزبعرى (٢)

ويقال أيضًا: إن يزيد حين علم بمقتل الحسين دمعت عيناه وقال : كنـا ارضى من طاعتكم بدون قتل الحسين ، لعن الله بن سمية (عبيد الله بن زياد) امـا والله لـو أنى صاحبه لعفوت عنه ، فرحم الله الحسن ، وقالوا وكان جميـع مـن حضرـ مقتـل الحسين من العساكر ، ومحاربيه ، وتولى قتله من اهـل الكوفـة خاصـة ولم يحضرـهم شامى[٣].

وكان ذلك جرأة على قتل سبط رسول الله ، ولم يـك فى مخيلـة أحـد أن يبلـغ الخلاف تلك الدرجة ، حتى إن الحسين نفسه عندما اعترضه

(الحر بن يزيد التميمى) فى ألف فارس من جند بن زياد وناشده آلا يعرض نفسه وآل بيته للقتل ، قولاً: " انـى أذكـرك الله فى نفسـك فـإنى اشـهد لإن قاتلـت لتقتلن " ، فقال له الحسين : " وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلونى "؟!

١تاريخ الطبرى ج٦ صـ ٢٦٠
٢رسائل الجاحظ ج٢ صـ ١٤
٣اتجاهات الشعر ص٢٦

وكانت تلك الفاجعة من أقوى العوامل التـي سـاعدت عـلى حشـد النـاس خلف آل البيت متشيعين ومهددين الأمويين بالانتقام خاصة الموالي في العراق ، فقد كـان عليًـا مـن قبـل ينصـفهم ويقـيم العـدل فـيهم ، (١) وقامـت ثـورة المختـار بن أبي عبيد الثقفي المختلفة عدداً والمشحونة ضد المعتدين واتخذوا شعار " يالتارات الحسين "

وكان الموالي يقومـون بتلـك الثـورات " لا عـن مـوالاة خالصـة للعلويـة ، ولا عن حمية للحق المسلوب ، بل لبث الفرقة والانقسام ، وتقويد الوحدة ، وزلزلة القوة ؛ ليكـون هـذا وسـيلة لاسـترجاع الحكـم الفـارسي والخـلاص مـن الحكـم العربى "(٢).

عبد الله بن الزبير: ثار عبد الله بن الزبير وخلع الولاء ليزيد وحاصروا عامله، فأرسل له يزيد مددًا في اثنى عشر ألف رجلاً فقتلوا منهم مقتلة عظيمـة ، واسـتباح الجند المدينة ، وعثوا فيها فسادًا في الأموال والدور ، ثم كانت " موقعة الحرة " التي قتل فيها كثير من الصحابة وأبنائهم واحتمى عبد الله بن الزبير بالكعبة " أطلق عليه " المستجير بالله أو العائذ بالله " لكن ذلك لم يحل بينهم وبين رمي الكعبـة بالمجـانيق والغرادات وحرق أستارها ، ثم مات يزيد بعد بضع وسبعين يومًا من موقعة الحـرة منتصف ربيع الأول ٦٤ هـ فعاد جيشه إلى الشـام واسـتقر الوضـع " لعبـد الله بـن الزبير " ودعوا له في المساجد ودُعِى له في في الحجاز والعراق والـيمن ومصرـ، ثـم انتقلت الخلافة للبيت المرواني الذى هاجم عبد الله بن الزبير واستخلص الشام .بعد

---

١)والموالي أصناف منهم : من كان يؤمن بحق على وآل البيت في الخلافة ويدافع عن ذلك الحق، ومنهم من كان يريد بث الفرقة والانقسام في المجتمع الإسلامي ليستعيدوا مجدهم المسلوب ، فقد كانوا يرون أنهم أصحاب الحق الإلهي في الحكم لما يجري في عروقهم من دم إلهي – تيارات ثقافية بن الغرب والعرب دأحمد الحوفي صـ٨٦ ،ط٣ ١٩٧٨، - ومنهم من كان يبغض الأمويين ويصطف في صفوف أعدائهم نكاية فيهم واجتمعت تلك الأصناف على المكيدة للأمويين والتربص بهم حتى واتتهم الفرصة

٢اتجاهات الشعر ص٢٨

موقعة مرج راهط " التي قتل فيها ولي عبد الله بن الزبير على دمشق " الضحاك بـن قيس الفهري " زعيم القيسية **يقول مروان بن الحكم:**

لما رأيت الناس صاروا حزبا

والمال لا يؤخذ إلا غصبا

دعوت غسانا لهم وكلبا

والسكسكيين رجالًا غُلبا

والقين تمشى فى الحديد نكبا

والأعوجيات يثبن وثبا (١)

يحملن سروات ودينا صلبا

ثم قتل مصعب والي عبد الله على العراق وشقيقه ، ثم قتل الحجاج بن يوسف عبد الله بن الزبير ٧٢هـ وانتهى بموته حزبه الذي لم يك حزبًا بالمعنى المفهوم قدر ما كان حركة سياسية ، وخاصة إنه لم يك يستعمل الحنكة بل عاد الهاشـميين فحرمـوه تأييدهم، وانسلخ عنه المتعاطفين مـن آل البيـت ، ولم يصـانع المختـار بـن عبيـد الله الثقفي، مما جعله ينفض عنه ويجحد بيعته ، إضافة إلى زهده الـذى دفعـه إلى مسـك يده عن الشعراء (أبواق الدعاية وجواذب التأييد) فنفضوا عنه يقول أبو حره مـولى الزبير(٢):

إن الموالى أمست وهى عاتبة   على الخليفة تشكو الجوع والحربا

ماذا علينا وماذا كان يرزؤنا   أى الملـوك على مـا حـولنا غلبا

١اتجاهات الشعرص٣٠

٢اتجاهات الشعرص٣١

كل تلك الأحداث صاحبها الشعراء .. إما مؤيدين أو معارضين أو عارضين للأحداث مسجلين الوقائع مثبتينها ، فقد تنفس الشعراء ذوي الأهواء بعد الخلفاء الراشدين، وقصة الحطيئة مع عمر بن الخطاب شهيرة ،ورفض الخليفة الثالث تجاوز الشعراء واجتراءهم على الأعراض وعندما علم أن الشماخ بن ضرار هجى بنى سليم ، ونال من أعراضهم ، بقوله مخاطبا امرأة منهم تدعى أسماء(١) :

وإنك من قوم تحن نساؤهم إلى الجانب الاقصى حنين المنائح

استدعاه الخليفة الراشد عثمان بن عفان من البادية ، وهدده ، لولا أن أقسم الشماخ يمينا مغلظة على منبر رسول الله انه ما هجاهم.

وصاحب الأدب بقسميه الأحداث في كل ذلك

عصبية قبلية:

كان هناك مساندة من كبار الصحابة للآل البيت تعاطفًا أو تشيعًا لا بالمفهوم المذهبي وإنما بالمفهوم الشعوري إذ رأوا أن الخلافة تكون في آل البيت العباس بن عبد المطلب ، وابن عمه علي بن أبي طالب لكن علي بها أولي ، فالعباس أسلم بعد الفتح . وكان في صفوف المشركين في بدر أما على فهو من هو وفضله لا ينكره أحد لخصاله الشخصية . ومواقفه الإسلامية ، ورؤاه العقلية ووضعيته الإجتماعية التي لا ينافسه فيها أحد

التفسير الديني للأحداث السياسية وضعوا مجريات الأمور تحت أضواء الدين فظهرت جماعة المرجئة ، التى نادت بالتخلي عن الحكم على العباد فحكمهم إلى ربهم ، فبمجرد شهادة المرء بالتوحيد (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) يكون مسلمًا أما ما يأتي به من أحداث مخالفة أو موافقة للإسلام فلا

١اتجاهات الشعر ٣٢

شأن لنا بتقيمها بل نرجعها إلي الله ، ومن ثم فلا يجوز أن نحكم على عثمان وعلي ومعاوية وما أُتوه من أحداث فالحكم عليها لله لا للبشر .

ظهرت المرجئة بمنهجها القائم على الحجاج والجدل ، وحشدت له الحشود ، واقيمت المنظرات على المستويين العام والخاص، في مجالس العلماء والفقهاء والحكام، وشاعت المجادلات وحُبرت الحجج والدلائل، وواكبت الرؤية الفنية الطفرة العقلية وتم بلورت ذلك المذهب وصياغة دعائمه في أشعار تتناقل يقول ثابت ابن قُطنة الذي نشأ في العراق ، ثم تقلب في حروب خراسان قائداً وعاملاً من عمال الثغور ، يقول (١):

"نرجى الأمور إذا كانت مشبهه ونصدق القول فيمن جار او عندا

المسلمون على الاسلام كلهم والمشركون اشتـــــوا دينهم قددا

وما قضى الله من أمر فليس له ردٌّ وما يقض من شئ يكن رشـــد

كل الخوارج مُخط في مقــالِتِه ولو تعبَّد فيها قــال واجتهـــــدا

أمـا عليٌّ وعثـــمان فإنهــــما عبدان لم يشركا بـــالله مذ عبــدا "

فقد انقسمت المرجئة إلى جبرية وقدرية إذ منها ما يرى أن ما يقترفه الإنسان من شرور وآثام مجبر عليه ، لا حيلة له فيه وفي طي ذلك الفهم سربوا فكرة جبرية حكم بنى أمية ، وأن حكمهم لا اختيار للرعية فيه ، بل مجبورين عليه ، والحكام الأمويون أنفسهم تبنوا فكرة الجبر ، وأنهم قد يدفعون إلى أعمال جبروا عليها و كتبت عليهم ويذكر أن عبد الملك بن مروان حين غدر بعمرو بن سعيد بن العاص الذى ثار عليه في حمص فاستقدمه ليصالحه ثم قتله ثم نادى في أصحابه ((إن أمير

١التطور والتجديد ٧٦

المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق والأمر النافذ الذي لايمكن تجنبه.)) مبررًا غدره بعمرو.

والقسم الثاني هو القدرية أولئك المقرون بحرية الإنسان ، وقدرته على اختيار أفعاله من خير أو شر ومجازاته به ، ورفض ذلك القسم ما تشى به الجبرية من التهاون والاتكال ، والخضوع لجبريته.

وكانت الفتاوى غالبًا واضحة بينة ، وكان أهل الحل والعقد يتحاورون ويتناقشون مفصحين عن عقول مستنيرة وأفكار مستمدة من الكتاب والسنة، فها هو ذا الشعبي يجلس مناظرًا لأصحابه وتلاميذه ، وكانت البيئة كلها تسم بالعقل ليس على مستوى الأفراد ، بل أيضًا كسياسة لدولة ، فقد جمع سليمان بن عبد الملك بين قتادة والزهرى ، فغلبه قتاده، كذلك روي ابن إياس بن معاوية حين قدم واسطًا جعلوا يقولون : قدم البصري ، فأتاه ابن شبرمة بمسائل قد أعدها له ، فجلس بين يديه ، قال : أتأذن لي أن أسألك ، قال ما ارتبت بك حتى استأذنتني ، إن كنت لا تعنت القائل ولا تؤذي الجليس فسلْ ، فسأله عن بضع وسبعين مسألة ، فما اختلفا يومئذ إلا في ثلاث مسائل أو أربع، رده فيها إياس إلى قوله ، ثم قال : ياابن شبرمة هل قرأت القرآن ؟ قال : نعم من أوله إلى أخره ، قال فهل قرأت (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي) قال : نعم وما قبلها وما بعدها ، قال : فهل وجدته بقى لآل شبرمة شيء ينظرون فيه ؟ فقال : لا ، فقال له إياس : إن للنسك فروعًا، فذكر الصوم والصلاة والحج والجهاد ، وقال ، إني لا أعلمك تعلقت من النسك بشيء أحسن من شيء في يدك : النظر في الرأي (١) فهذه الرواية تعكس قوة الإيمان بالعلم حتى إن الفقهاء جعلوا النظر في علوم الدين

١التطور والتجديد في الشعر الأموي صـ ٧٣

والمسائل الفقهية وإعمال العقل فيها تنيل صاحبها مرتبة أعلى مـن العبـادة والنسـك والوقف عليهما .

ولأهمية النظر في المسائل الفقهية التي بلغ أصـحابها مرتبـة أعـلى مـن مرتبـة الشك والعبادة كان البعض يتحاشى الفتوى ، وإذا ما أفتى تسرـب مـن القطعيـة ، فقد روى عن النخعي أنه كان لا يقول عن شيء إنه حرام مطلقًـا أو حـلال مطلقًـا ولكن يقول : إن هذا يتكرهه الصحابة وذلك يستحسنونه (١)

وفي الطرف الأخر توسع البعض في الفتوى حتى إن الفـرزدق كـان يضـمن إبداعه أحكامًا فقهية، ففي الأغاني أن رجلاً " سأل الحسن البصرـي يومًـا وعنـده الفرزدق عن اليمين اللغو في الكـلام مـن مـثللا والله !فقـال الفـرزدق لـه : أو مـا سمعت ما قلت في ذلك ؟! فقال الحسن . ما كل ما قلت سمعوا فما قلـت ؟ فقـال : قلت :

ولستَ بمأخوذ بلغو تقوله إذا لم تَعَمَّدْ عاقدات العزائم

ولم ينشب أن جاء شخص آخر فسأل الحسن عن سبية الحرب المتزوجة أتحـل لمن سبها ؟ فقال الفرزدق أيضًا أوما سمعت ما قلت في ذلك ؟

وذات حليل أنكحتنا رماحنُا حلالٌ لمن يبني بها لم تُطلَّقِ (٢)

فالشعراء كانوا وثيقي الصلة بعلماء عصرـهم وفقهائـه، وروي أن الفـرزدق كان يختلف لحلقة الحسن البصري بينما جرير كان يجلس في حلقة ابن سـيرين ، فهـا هما ذا قطبي الإبداع والتجديد يتواصلون عن كثب مع بيئـة عقليـة تمـور بـالخلاف وتتهادن بالاتفاق مما عمق بصرهم ووسع بصيرتهم، وانساب الشعر من فيهما معبرًا عن الأحداث ومحدثيها.

١المرجع السابق صـ ٧٢
٢الأغانى ج١٩ صـ ١٤

الإبداع الفني والعقلي : كان الشعراء رواد مستديمون في مجالس الفقه ، يطلعون على آراء الفقهاء ، ويعون الخلافات والاختلافات التي قد تقع بين أهل الحل والعقد مما أثر في عقولهم فتسرب إلي إبداعهم ، فلم يك منعزلين عن تلك المجادلات والمناوشات الكلامية والفكرية الدائرة والتى شغلت الساحات الشعبية والملكية ، بل قد أشاروا إليها في إبداعهم يقول جرير :

ولا خير في مالٍ عليه أليةٌ ولا في يمين غير ذات مخارم (١)

فقد ظهر في تلك الأون في العراق خاصة (علم الحيل) وهو إيجاد حل لمن وقع في إشكال دينى يلجأ إلي الفقهاء فيرفدونه بفتوى تخلصه من مأزقه ولا سيما في الجانب العقادي ، لذا تسرب المصطلح إلى شعر الشاعر، **يقول ذو الرومة** :

طوى طيةً فوق الكرى جفن عينه على رهبات من جنـــان المحاذر

قليلاً كتحليل الأُلى ثم قلصت به شيمةٌ روعاء تقليص طائر(٢)

فقد شبه غفوته في سفره وانتباهه بتحليل الأُلى جمع أُلوة : وهي اليمين، فما يكاد أحدهم يقع في مأزق يمين حتى سريعا يجد له هؤلاء حلاً.

وكان لوجود المعتزلة وظهور علم الكلام شأن كبير فقد كانت البيئة لازالت ممتدة الوشائج بالعصر النبوي ، والمسائل الإيمانية حاضرة في الأذهان ، فنتصب الجدل حول الإيمان آلابد أن يرافقه عمل ؟ وما حكم من جار عن القصد ولم يؤدى ما أُمر به ؟ أيسوى بمن ألتزم المأمورات لانهما جميعًا من أهل القبلة ؟ أم هناك فرق بينهما ؟ وظهرت فئة المرجئة وتبلورت دعوتها في ترك المحاسبة لله عز وجل فعثمان وعلى ومعاوية مؤمنون ومجازاتهم أو الحكم بينهم من على صواب ومن حاد يرجع

١الألية : اليمين ، المخارم ، الطرق في الجبال

٢يقول : أن صدره ملء خوفًا فلم يغمض عينيه إلا قليلاً ، وإن شيمته رائعة قوية قلصت به تقليص طائر أي ارتفعت به .

لله ، كذلك الحكم على العاصين يرجأ لله ، ووسعت نظرتهم الحكمية فرأوا أن الخلافة حق لمن حاز شروطها وحصَّل التقوى وليست حكرًا على البيت العلوى أو الأموي ، **وانقسموا** ما بين مؤيد لحرية الإنسان وانتموا للقدرية وما بين مناصر للجبر وسلبوا الإنسان حريته فما يقارفه مجبور عليه وجرى به القلم ؛وكثر الجدل وشاع النقاش خاصة فى العراق ولا سيما في الكوفة دار الشيعة ومستقرهم.

يقول الشاعر:

إذا المرجىٌّ سرَّك أن تراه   يموت بدائه من قبل موته

فجدد عنده ذكرى علىٌّ   وصلِّ على النبي وأهل بيته(١)

مما يعكس التواصل وحدة التأثر بين البيئة الفقهية والبيئة الاجتماعية ،والتعبيرية الفنية ، فأراء الفقهاء لها مردود وصدى ليس عند العامة فقط ؛ بل نستطيع أن نلمس آثارها على الاتجاه الفني ، فالشعر واكب التيارات الفكرية المولَّدة من النمو العقلي ، والتطور الجدلي فنشأ الحِجاج في الشعر لشيوعه في المجتمع الذي تسربت النظرات العقلية فيه إلي الإبداعات الفنية ، وتم مزج النواحي الدينية بالاتجاهات السياسية ، وتبدى ذلك في ملموسة أشياء منها :-

ظهرت التأملات العقدية من نحو ارتبط إيمان المرء بالعمل أم أقتصر على قوة المعتقد لان هذا يترتب عليه شيء غير ذلك ، فإن لم يك مرتبط بالعمل إذاً يتساوى المؤمن المقصر مع المؤمن الملتزم فكلاهما مؤمنين من أهل القبلة مهما أتيا من معاصي وذنوب .

١البيان والتبيين ج٣ صـ ٣٥٠

حكم بني أمية

وبلغ الجدل بين قسمي المرجئة مبلغه ولا سيما في الكوفة الحاوية أنصار الإمام علي ، وكان من أشد القائلين بالقدرية " الحسن البصري" ويحشد الآيات والأحاديث الدالة على مذهبه ، وها هو ذا عطاء بن يسار ومعبدًا الجهني كانا يأتيانه فيقولان " إن هؤلاء الملوك – بنى أمية – على قدر فيقول كذب أعداء الله، وروى عن أيوب السختيانى: **" نازلت الحسن في القدر غير مرة "** .(١)

الإبداع الفنى والفكري المتعقل: واكب الإبداع الفني المـوار الفكري الذي يضج به المجتمع ، فكل شيء اكتسب الجدل وسوق الحجج ، وظهرت المعتزلة وبدرت الأضواء في حكم مرتكب الكبيرة أفي الجنة أم في النار ، وكان الحسن البصري يجمع بين المجادليْن ، واصل بن عطاء وعمر بن عبيد ، كلٌ يسوق رأيه المؤيد بالأسانيد والحجج ، وقد روي المرتضى في أماليه إحدى المناظرات.

وطرح كل شيء على طاولة الحجاج ففشى الانقسام مما دعى زيد بن جُندب خطيب الأزارقة يقول :

ما كان أغنى رجالا ضل سعيهم … عن الجدال وأغناهم عن الخطب

كنا أُناسا على دين ففرقنا … طول الجدال وخلط الجد باللعب "(٢)

بينما صنوه ذو الرومة كان يدين بالقدرية ، وبما تضفيه من العدل ، وأن الله ترك الحرية لعباده ثم يحاسبهم على أعمالهم عن إسحاق بن سويد:

١التطور والتجديد في الشعر العربي، شوقي ضيف صـ ٧٩

٢المرجع السابق ص ٨٠

انشدنى ذو الرمة قوله :

وعينان قـال الله كونـا فكانتـا فعولان بالألباب ماتفعل الخمر

فقلت له : هلا قلت فعولين ، فأجاب لو قلت : سبحان الله والحمدلله ولا اله إلا الله والله اكبر خير لك)) ، يريد ان يعرفه انه راغب عن فكرته في الجبر [1].

وقضبي الشعر في تلك الفترة جرير والفرزدق كانا بوق دعاية لفكـرة جبريـة الخلافة الأموية ، وحتمية الخضوع لذلك يقول جرير [2]:

نال الخلافة إذ كانت له قدرا كما اتى ربه موسى على قدر

كذلك دعى الأعشى إلى إقرار أفعال أمير المؤمنين لإنها كالـدهر الـذى لابـد للخضوع إليه فيقول:

وإن أمـــير المؤمنين وجرحه لكالدهر لا عارٌ بما فعل الدهر

ثم تفجرت الأرض مذاهبا وشيعًا ، ووقف المبدعون ينافحون عما يدينون به، من تلك المذاهب، فألف الكميت ديوانه لنصف الهاشميين والبيت العلوي خاصة.

وإثبات أحقيتهم في الخلافة ، ويعد ديوانه الذى ألفه لنصرة يزيد بن عـلي بـن الحسين – إمام الطائفة الزيدية – نصرة لفكر الإعتزال ؛ والمـذهب الشـيعي إذ كـان زيد تلميذ لواصل فتبعه من اتبع شرعته، لذا يعد ديوانه جـامع للفكـر الإعتـزالي ، والمذهب الشيعي في مناظرات ضامة للفكر الجدلي ، ولعرض التوجه العقلي المـنظم السائد آنذاك .

وهو ما يغاير كلية الشعر في العصـر الجاهلي المتسم بالبساطة والعفوية والحق أن عقلية الشاعر الأموي اختلفت تمام الاختلاف عن عقلية الشاعر القـديم ، فقـد ثقف أشياء لم يثقفها الشاعر الجاهلى . وخضع في تفكيره لأشياء لم يكـن يخضـع لهـا

١التطور والتجديد ٧٩
٢المرجع السابق ٧٩

الشاعر الجاهلي ، فأنتج النقائض ، وهاشميات الكميت من جهة وأنتج عمقًا وطرافة في التفكير، الفنى نلاحظهما في معانى كثير من الأبيات من جهة أخرى [1] .

فالشاعر الأموي توجه نتيجة للفكر المعاصر إلى مدارسة الفكرة ، والإحاطة بأجزائها ، وتطويرها، بما عايشه من إضافات ورؤى جديدة رأها في الجدل العقلي بين المتكلمين والفرق المختلفة فانعكس ذلك على إبداعه الشعري، فمثلاً حينما تحدث زهير عن الموت والحياة قال : رأيت المنايا عشواء من تصب تمته ومن تخطى يعمر فيهرم استوفى المعنى واستقصاه الشاعر الأموي أبو النجم العِجلى ، ورأى أن يعبر عن هذه لفكرة تعبيرًا جديدًا ،أو يبسطها مستفيضًا **فقال** :-

إن الفتى يصبح للأسقام   كالغرض المنصوب للسهام

أخطأه رام وأصاب رام

فقد استوعب المعاني الجاهلية واستقصاها ثم أبدع في استعمالها مصبغًا عليها شيات الحياة الجديدة.

خصوصية التوجه الفني .. كان ذلك نتيجة الحياة العقلية النشطة التي سادت في العصر الأموي وغلب على الشعراء توجهًا فنيًا أقبلوا عليه وزادوا فيها... عن غيره من الأغراض فأفرطوا فيه وفرَّطوا في غيره فلمسوه لمسًا ، فقد أفاض جرير والفرزدق في الهجاء ، وتيم ذو الرومة بوصف الصحراء .. وما فيها .. بينما استوقفت شاعرية عمر بن ابي ربيعة الغزل .وشغل آخرون بالجانب السياسي ، وطرح الأفكار ، وعرض وجهة النظر التى يؤيدها

الإبداع المقصود : نتج من تلك العوامل أن وجد نخبة من الشعراء أنفسهم بإزاء الناحية التعليمية ، من تعليم وتأديب النشء فبدأوا ينظمون القصائد راصين فيها غرائب اللغة وأوابدها ، والألفاظ الشاذة والمهملة ليعلمون النشء ولا سيما

---

١ التطور والتجديد صـ ٨١

أصحاب الأراجيز رؤبة وابنه العجاج حتى شاعت عبارة " لولا رؤبة لضاع كثير من اللغة العربية " وأخذ الاهتمام بتعليم النشء ملامح عدة من ذكر الأيام ، والنحو، والاهتمام باللغة نفسها ، وشاع من الشعراء المُعَلمين : الطرِّماح ، الكميت، رؤبة وأضربهم ممن كانوا ينظمون الشعر لحاجة لغوية لا وجدانية ، هادفين التيسير على المُعَلِمين والمُتَعلمين ، بنظم ما يحتاجون لفهم اللغة واستيعابها .

الحياة الدينية

العصر الأموي عصر قريب العهد بالإسلامي مور على أرضه بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين يقتفوا أثره ويتبعوا خطاه ، وكان هذا أهم العوامل المناوئة للكيفية الأموية ، سواء أكانت تلك المناوئة لطريقتهم في الاستيلاء على الحكم ، أو نهجهم فيه ، وسلوك الحكام ومؤيديهم ، وقد ترسخ الظل الإسلامي علي الرؤية المُقَيمة للأحداث والأشخاص ، والسلوك ، إذ يعمد المفسرون لستبانة وضعية المُقَيَّم (حدث – شخص – سلوك) من خلال الرؤية الإسلامية وجه إلي ذلك المسلك ، فإن كان مبعثه الإسلام وخلقه وتوجهه، قُبل ورُفع به ، وإن كان سلكه للهوى والنفس تحفظوا عليه ورفضوه – غالبًا– وقد اشتهر العزوف عن الدنيا توافقًا مع المنهج النبوي فقد كان الصحابة يرون زهد رسول الله ، وعزوفه عن الدنيا ومنحه للفقراء، وعزوفه عن المباهج والزينة

فكان كثير من الصحابة يعزفون عن الدنيا ومباهجها ، ويطمعون فيما عند الله، من مثل ما يروى من أن رجلاً قال للنبي صل الله عليه وسلم: " دلنى على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس ، قال: أزهد في الدنيا يحبك الله ، وأزهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس."[1]

ومن هؤلاء الصحابة معاذ بن جبل ، أبو بكر ، على وعمر الذي كان يقول: استغزروا الدموع بالتذكر . وكان ابنه عبد الله من كبار الزهاد ، ورسم ابن سعاد لزهده في طبقاته صورة طريفة ، فقال : إنه كان يترك الحمام و يعده من رقيق العيش، وكان لا يلبس الحز ولا يشرب في أقداح مفضضة ولا من زجاج ، إنما كان يشرب

١البيان والتبيين الجاحظ ج ٣ صـ ١٦٦

في أقداح من عيدان . ومثله كان عمرو بن العاص . اذ يجمع الرواة على انه كان شديد المجاهدة لنفسه ، فكان يقضى الليل مصليا والنهار صائما.

وقد عبروا عن الدنيا وزيفها في كلمات بليغة ، وعبارات أدبية شديدة الصلة بالدين والواقع يقول حذيفة: ((أضحكني ثلاث وأبكاني ثلاث ، أضحكني مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل لا يغفل عنه ، وضاحك ملئ فيه ، ولا يدرى ساخط ربه أم راضى، وابكاني هول المطلع ،وانقطاع العمل ، وموقفي بين يدي الله لا يدرى أيأمر بي إلى الجنة ام إلى النار)) (١)

كذلك كان للزاهدين أبو ذر الغفاري – والحسن البصري كلمات مؤثرة (فالحسن البصري ثار على معاوية وهو وال بالشام لعثمان بن عفان ، حين رأه يستأثر بالفىء ويبيح للناس تبعًا لسياسة عثمان أن يمتلكوا الضياع . وجادل معاوية قي ذلك واحتج عليه بقول الله تعالى: ﴿...ۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة التوبة: الآية ٣٤] واستمر في ثورته ، فرفع معاوية أمره إلى عثمان ، ، فرسم بإشخاصه إلى المدينة فلما ذهب هناك ثار ثانية حين رأى بعض الصحابة يقتنون الدور والقصور ، فنفاه عثمان إلى قرية مجاورة للمدينة تسمى " الربذة" . ويروى عنه أنه قال " فارقت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوتي من الجمعة إلي الجمعة مُدٌ ولا والله أزداد عليه حتى ألقاه " وكان يقول " إنما مالك لك أو للجائحة أو للوارث فاغْنَ

ولا تكن أعجز الثلاثة [٢] وقال الحسن البصري " أدركت من صدور هذه الأمة قومًا كانوا إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم ، يفترشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يناجون مولاهم في فكاك رقابهم [٣].

١التطور والتجديد صـ ٥٦
٢البيان والتبيين ج٣ صـ ١٩١
٣المرجع السابق صـ١٣٦

ونرى بذلك أن الدين كان مظلة ينضوي تحتها المبدعون ، فلا تخلى عن الأخلاق والقيم ؛كما كان في المجتمع الجاهلي الوثني وإنما هو تحلي بتعاليم الإسلام . فكانت الحياة الفنية تمد بأسباب إلي التوجيه الديني قد تضعف هذه الأسباب وقد تقوى لكنها لا تتمزع ولا يبدعون – غالبًا– بعيدًا عنها مهما بلغ بهم الأمل ، وقصر عنهم العمل ، فها هو الفرزدق على ما اشتهر به من فسق واستهتار حينما توفيت زوجته النوار والتقى الحسن البصري سأله الأخير وهو بإزاء القبر " ماذا أعددت لهذا المضجع ؟ قال شهادة أن لا إله إلا الله منذ ثمانين سنة ، فقال له الحسن هذا العمود . فأين الطّنُبُ ؟ فقال في الحال :

أخاف وراء القبر إن لم يُعافنى أشد من القبر التهابًا وأضيقا
إذا جاءنى يوم القيامة قائدٌ عنيف وسوَّاق يسوق الفرزدق
لقد خاب من أولاد دارم من مشى إلى النار مغلول القلادة موثقا
يُقاد إلى نار الجحيم مسربلاً سرابيل قطران لباسًا محرقًا(١)

وقيل إنه في صغره كان فصيحًا فأحضره أبوه إلى الإمام علي ليبارك موهبته ، فقال له : علمه القرآن ، فظلت هذه رغبة دفينة حتى إذ ما بلغ السبعين من عمره ألحت عليه تلك النصيحة فربط نفسه في سارية سريره ليحفظ ، وقيل إن قصيدة هجاء إبليس " للحزين الكناني " **ونسبت أيضًا للفرزدق:-**

ألم ترني عاهدت ربي وإنني لبين رِتاجٍ قائمًا ومقام
على قَسمٍ لا أشتم الدهر مسلمًا ولا خارجًا من فيّ سوء كلام
أطعتك يا إبليس سبعين حجة فلما انتهى شيبي وتمَّ تمامى
فررت إلى ربي وأيقنتُ أنني مُلاق لأيام المنون حمامى

وبالقصيدة كثير من الألفاظ والتعابير القرآنية .

١ديوان الفرزدق صـ ٥٧٧

فالجانب الديني والحياة الدينية كانت مراعة من قِبل المبدعين فلم تجذب اللمسة الفنية بعيدًا عن الانغماس الديني ، حتى إن جريرً عندما يرى الجنازة يقول " أحرقتني تلك الجنائز" **وحينما رثى زوجته أم حرزة قال:**

صلى الملائكة الذين كبروا   والطيبون عليك والأبرار

بل إن الصفات والخصال الإسلامية صار لها القدح المعلى في المدح والقدح، ففي المدح يتوالى وصف الممدوح بالصفات الإسلامية يقول كثير في مدح عمر بن عبد العزيز:-

وصدقت بالفعل المقال مع الذى   أتيت فأمسى راضيًا كلُّ مسلم
وقد لبستْ لِبس الهلوك ثيابها   تراءى لك الدنيا بكفٍّ ومعصمِ
وتومضُ أحيانًا بعين مريضةٍ   أمامك في يومٍ من الشر مظلم
فأعرضت عنها مشمئزًا كأنما   سقتك مَدُوفًا من سمامٍ وعلقم
تركت الذى يفنى وإن كان مونقًا   وآثرت ما يبقى برأيٍ مصمم
وأضررت بالفانى وشمَّرت للذى   وتبسمُ عن مثل الجُمان المنظم

وكما كان يمدحون بمعيار ديني كانوا يقدحون معيرين ومعيبين بذلك المعيار يقول الطرمَّاح هاجيًا تميمًا منتصرًا لقومه الآزد:-

لو حان وِرد تميم ثم قيل لها أو   حوض الرسول عليه الأزد لم ترد
أنزل الله وحيًا أن يُعذبها   إن لم تَعُدْ لقتال الأزد لم تعد

الحياة العقلية

كان المؤثر الأقـوى عـلى مختلـف النـواحي القـرآن الكـريم ، بلفظـه البـديع وأسلوبه المنيع ، وفواصله الآلقة الحازمة ، فهو المعجزة الآلهية التي جمعت بين الدين والدنيا فمبتغي أحدهما أو مبتغيهما معًا واجد بغيته في القرآن الكريم .

وقد انتشرت العلوم المتعلقة به. فما كاد الإسلام يشيع وينتشرـ حتـى توالـت العلوم والمعارف الإنسانية من مختلف الأصقاع تنكفىء على دراسته وتحاول تفسيره وتبينه . وتوسعوا في القياس وزادوا من مساحة العقل المستمد من النقـل ، وكانـت الحياة العقليـة بيئـات وأمصـار بينهـا اختلافـات لم تـؤدِي بهـم إلى الخصـومات أو المشاحنات إضافة إلى وجود مسيرة تبحث عن الاستثناءات والتحليلات إضافة إلي وجود الفرق الإسلامية ، وما وجد في ظلها مـن رؤى وتفسـيرات ، تشـهد للعقـل العربي بالكفاءة ، فقد دخل الإسلام الكثيرون مـن أصـحاب الثقافـات والمعـارف الأخرى التى نقلت العربي إلي مسـاحات فكريـة ، وأمدتـه بطـرق تفكيريـة لم تـك معهودة من قبل ،" وقد سأل أحدهم الفقيه الحسين البصرـي عـن بعـض فتاويـه ! أبرأيه أم سمعها ،فقال: لا والله ما كل ما نفتي به سمعناه مما يدل عـلى سـعة إعـمال العقل ، واستنباط الفقه ، وكما كان لتلاقي العقول المختلفة أثـر في تنشـيط الأذهـان وكد الخواطر كذلك كانت للأمصار مجهودات محمودة إذ كـان لكـل مصرـ علـماؤه الذين يفتون بما قال الله ورسوله ومراعين لأحـوال النـاس ، وإن غلـب عـلى أهـل الحجاز الحديث وغلب على أهل العراق القياس فنبثق مـن بيـنهم " أهـل الـرأي " وكان لكل بيئة بل لكل رأى حجته ومبرره فيما ذهب إليه مما ضـخ رحمـة واسـعة في المجتمع فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قـال : " اخـتلاف أمتـى

رحمة " وعن يحي بن سعيد " أهل العلم أهل توسعة ، ومـا بـرح المفتـون يختلفـون فيُحَلل هذا ويحرم هذا فلا يعيب هذا على هذا ولا هذا على هذا " (١)وجعل الحيـاة الدينية مواكبة للحيـاة الاجتماعيـة والسياسـية ومتوافقـة إلى حـد مـا مـع التجديـد المجتمعي الحاصل.

١المرجع السابق صـ ٧٢

الحياة السياسية

استتبع الفوران العقلي، والتفاعل الاجتماعي رؤية عقلية في العصر الأموي، والمعروف أن العصر الأموي وفترته الممتدة ٤٠- ١٢٠ هـ كانت ملىء بالقلاقل والثورات التي تتأجج ثم تخبو ثم تعاود الاشتعال . والحق أن البيئة السياسية ، والرأي في الحكم الأموي كان تبعًا للموقع الصادر عنه فمن أصاب مغنمًا من الحكم مدح وأيد كقبائل الشام، ومن أصابه مغرمًا قدح وعارض كالعلويين والشيعة الذين رأوا أن الخلافة حق للعلويين لقربهم من رسول الله دون غيرهم .

بلاد الشام : كان هناك التأييد الوافر لبني أمية الذين أغدقوا على الشاميين الأموال وأسندوا إليهم هام الأعمال فرأى الشاميون فيهم محققي أحلامهم ومعيدي مجدهم التليد حتى عدوا أنفسهم ورثة شرعيين للآ ل جفنة، واستكانوا ، ولا سيما بعد أن نكح إليهم معاوية "ميسونة" بنت بجدل الكلبية)فأصبحوا أخوال يزيد فساندوه .

بلاد الحجاز والعراق: هذه البلاد اتخذت موقفًا مناوئًا رافضًا مبلورين ذلك الرفض والنفور في أحزاب سياسية لها أبواقها الشعرية الدعائية .وقد بغضا الحكم الأموي الذي استبعدهم من المشهد السياسي ، فبعد أن كانوا مهبط الوحي، وعنهم تأخذ مختلف الأصقاع أ غدق عليهم الأمويون الأموال نظيرخروجهم من المشهد السياسي. **وقد ضمت البيئة السياسية تبعًا للرأي في الإمامة ومن الأحق بها.**

الأمويون: ومن سار في ركابهم من القائلين بأحقيتهم في الإمامة إذ وعدوا المؤيدين بوافر العطاء ، وتوعدوا الرافضين بشديد العقاب

الشيعة : وهم متمركزون في العراق (الكوفة خاصة) فشعراء الإمام علي يقولون إن الإمامة لابد أن تكن لعربي قرشي من آل البيت – بنى هاشم – فهم بيت رسول الله وهم أصحابها الحقيقيون مستندين إلى جمع رسول الله لأل بيته فاطمة علي الحسن الحسين وقال:هؤلاء آل بيتى

الخوارج : وهم من خرجوا على الإمام " عثمان ثائرين ثم هدءوا بإمامة علي ؛ ثم خرجوا عليه مرة أخرى حينما قبل التحكيم ، ثم حاربوه ؛ وجعلوا ديار المسلمين ديار حرب، إذ رأوا أن الإمامة ترد إلى جموع المسلمين يتولاها أكفئهم وأجدرهم بها، سواء أكان قرشًيا أم عبدًا حبشيًا

الزبيريون رأوا أن ترد الخلافة للحجازيين ليتولاها أحد أبناء الصحابة لا يزيد بن معاوية ؛ وهو ينسب لعبد الله بن الزبير الذي خلص له الحكم بعد وفاة يزيد إذ بايعه أهل مصر واليمن والحجاز والعراق ، وبعض بلاد الشام ، لكن لم يستمر حكمه الأعوام الطوال إذ وجه إليه مروان بن الحكم جيشًا قضى على حركته في موقعة " مرج راهط" ولاذ بالكعبة فضربها الحجاج بالمجانيق ، ثم قتل عبد الملك بن مروان أخاه مصعبًا والي عبد الله على العراق ، والتف الشعراء حول مصعب ، وتحدثوا عن الزبيريين ، الذين لم يستمروا أكثر من تسع سنوات ، لكن شعر هؤلاء أقرب إلى الحماسة أو الهجاء منه إلى شعر يقر مبادىء حزب معروف الملامح والوجهة .

الفرق الإسلامية والإبداع الشعري

الزبيريون

قاد الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير الثورة ضد الأمويين؛ بعد أن أخذ معاوية البيعة لابنه يزيد ، ناقضًا لعهد أبرمه قبلاً بأن يترك الحكم شورى للمسلمين بعد وفاته ، وبعدما قتل الحسين وعاذ ابن الزبير بمكة وأخذ في جهاد الأمويين والتشنيع عليهم ؛ بعد نقلهم مقر الحكم من الحجاز إلى الشام وحكمهم البلاد بيد قبيلة كلب التي أصهر إليها معاوية ميسون بنت نجد الكلبية ، وتبعه نسله في إحكام القبضة وتسلط سيف القوة ، وقد وجه جيشًا إلى مكة فنتفض للزود عنها أولاد كبار الصحابة والتابعين.

وينسب الزبيريون إلى عبد الله ابن الزبير بين العوام حفيد السيدة صفية عمة رسول الله ﷺ والسيدة خديجة أم المؤمنين وابن ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر شقيقة السيدة عائشة زوج رسول الله ﷺ والزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ وأحد أهل الشورى الذين عينهم عمرو ليختار منهم الخليفة، ولد بعد الهجرة بعشرين شهر سُر بمولده رسول الله ﷺ لأن اليهود ادعوا أنهم سحروا المؤمنين ولن يولد لهم ذكور.

ولذا قال رسول الله ﷺ لأمه أرضعيه ولو بماء عينيك و كان أول شيء يدخل جوفه ريق رسول الله ﷺ بعد حنكه.

التف حوله جمع كثير يريدون عودة الأمور إلى نصابها وإرجاع أمر الحكم إلى المسلمين وعدم استئثار البيت السفياني بالحكم وعلى الرغم كونهم قرشيين إلا أنهم نحّو المدينة وأهلها عن سدة الحكم فأنضم تحت لواء عبد الله بن الزبير الشام

والجزيرة والعراق و دمشق وخرسان بقيادة عبد الله بـن حـازم السـلمي القيسـى ، وظل يناوىء الأمويين حتى بعد انتقال الخلافة إلى البيت المراوني ، و اتخذ مـن مكـة ملاذًا له حتى سمي العائذ لكن بعد أن تولى عبد الله بن مروان الحكـم خلفًـا لأبيـه مروان.وقد اشتعلت العصبيات وعادت الحمية الجاهلية بين قيس من جهة وتغلب والقبائل اليمنية من جهة أخرى ، وانبرى الشـعراء ينتحـون نـواحي تؤيـد وجهـه نظرهم فهو بقيس مع الزبير وتغلب والقبائل اليمينيـة وجهـه بنـي أميـة وضـجت الأشعار بالهجوم أو الدفاع ، التأييد أو المعارضة.

تكوين حزب بن الزبير

هاجم البعض عبد الله بن الزبير وقالوا إنه لم يكن صاحب مبدأ أو مدرسة بدليل موت دعوته بموته، إذ أن دعوته استمرت تسع سنوات وهي فترة زهيدة.

نجد الشعراء المؤيدين لها قلة لإمساك عبد الله بن الزبير زهدًا و ورعًا إذ لم يكن يعنيه مدح المادحين و نلاحظ على أشعار المؤيدين ميلها إلى الجانب الحسي في المدح من مدح عبد الله و وصفه بالورع والتقوى والعدل وكان شجاعًا بايع رسول الله وعمره ثمانية سنوات وكُنيت خالته أم المؤمنين السيدة عائشة باسم أم عبد الله ، وكان فصيحًا رابط الجأش إذ يروى أن الصبيان كانوا يلعبون معه وعندما مر عمر تفرق الصبيان وفروا لكنه ثبت: فسأله عمر لما لم تفر معهم؟ فأجابه: لم أجرم فأخافك ولم تكن الطريق ضيقة لأوسعها لك!!.

... لم يلجأ الشعراء لتأييد الدعوى الزبيرية بتوضيح المبادئ والأسس التي قامت عليها إذ وُجه لها نقد عدم وضوح رؤية سياسية أو فكرة بنائية يدافعوا عنها ويحشدون الحشود للتأييد مستندين إلى حتمية تولي الحكم قرشي لأن أبي بكر يوم السقيفة نص على ذلك ، وكان عثمان ابن عفان قد أسند إليه حراسة دار الخلافة يوم الدار يوم تكالب عليه المنافقون و لعله استأنس بذلك حينما دعي لنفسه بالخلافة ٦٣هـ وتم له الأمر في الحجاز واليمن ومصر والعراق، وأوشكت الشام على الاستسلام ، لكن استطاع الأمويون استرداد عافية ملكهم في "مرج راهط" ومكن عبد الله ابن الزبير لنفسه في تلك البقعة يجبي الخراج ويعين الولاة، يعينه مصعب أخوه الذي كان يحب الشعراء ويحبونه، وحينما تولى عبد الملك ابن مروان الحكم

خرج مهاجمًا وقتله "بلخمرى" بين واسط والكوفة سنة ٧١هـ ثم توجه إلى مكة ثـم قتل عبد الله ابن الزبير ٧٣هـ وقتلت معه آمال الحجازيين في الخلافة.

وعلى الرغم من حب التابعين للدعوة الزبيرية لعبد الله ابن الزبير إلا أن ذلك لم يمنع وجود مناوئين رافضين له ولبعض تصرفاته فسخروا من مسماه الشهير العائذ- لستعاذته بالبيت الحرام- وقالوا بل العائذ محمد ابن الحنفية، وعبد الله ابن العباس اللذان رفضا مبايعته فسجنهما في سجن "عارم" وقال كثير:

تخبر من لاقيت أنك عائذ ... بل العائذ المظلوم في سجن عارم

سمي النبي المصطفى وابن عمه ... وفكاك أغلال وقاضي مغارم

الحق أن انشغال عبد الله بمحاربة المناوئين ودلفه إلى صراع حربي مع الأحزاب إذ حارب الشيعة لأنها ترى الخلافة في أبناء على وحاربته بضراوة خاصة العراق بيد المختار بن أبي عبيد الثقفي و وجه الأمويون الجيش تلو الآخر بالإضافة لتغير الخوارج عليه بعد أن ناصروه بمكة ضد جيش الشام ، إلا أن الخوارج كانت تنازعه حصره الخلافة في القرشيين لأنها ترى إن الجدير يحكم ولو كان عبدًا حبشيًا .

فالزبيريون لم يبدوا رأيهم في كثير من المسائل الفقهية ولم يكن لهم حكمًا يروى في مرتكب الكبيرة وغيرها من المسائل التي شغلت الناس آنذاك ، إلا أن ذلك لا يعني إنهم لم يكونوا ذوى فكر وإلا ما خرجوا على السلطان ، وعاشوا في جهاد السيف واللسان فقد نص أبو بكر على أحقية قريش بالخلافة إذ أنهم أول من أمن برسول الله " الملك في قريش والقضاء في الأنصار والأذان في الحبشة "وقوله" الأئمة في قريش".

والزبيريون كانوا يمثلون المضرية الحجازية أقوى تمثيل بل يمثلون العرب الفوارس عامة لا يولون لقبيلة اهتمامًا زائدًا كما تفعل تعتز بنو أمية باليمنية بل

يعتزون بالحجاز حاضنة الدعوة الإسلامية ومصدر إشعاعها. وقد قال البعض أنهم حزب طارئ مُفَجّر للثورات مناهضًا لحكم بني أمية ، وإن كان هناك ملامح محدودة له كلما تنضو تحت مظلة حزب الحجازيين والقرشيين لاستبعادهم من سدة الحكم وهم السابقون وأصحاب الأمر والنهي أولاً.

ونلاحظ على الزبيريين استيائهم من نقل الحكم إلى الشام مقر الأمويين بين إتباعهم.

استعادة قريش مجدها يساندها المضريين بعد أن استأثر بنو أمية يساندهم اليمنية .

رفض ابن الزبير ابتداع معاوية لشرعة هرقلية من توريث الحكم بعد الشورى، وتجدد المنافسة بين الزبيريين – الأمويين- الهاشمين لتولى الحكم. وقد رفض بني الزبير فكر الخوارج الهادف للتعميم دون تخصيص قرشي وحصر فيها.

قصر مدة وجود الزبيريين- تسع سنوات- إلى جانب فترة حكم الأمويين تسعون سنة في الشام وأزيد في الأندلس مكَّن الأمويين من وجود أتباع ومذيعين ينشرون يعارضن ويؤيدون ، إضافة إلى شدة المنافسة بين البيت الأموي والهاشمي ، أما الزبيريون فبعدموت مصعب وعبد الله اندثر الحزب لأسباب خاصة وعامة.

فمن الأسباب الخاصة- عدم وجود دعاية من خلال أبواق الشهرة " الشعراء " فقد كان عبد الله ممسكًا وتحكي في ذلك الحكاوي إذ إن فضالة ابن شريق الاسدي- وقيل بل ابنه- قال له إن ناقتي قد نقبت ودبرت .. فقال أرقعها واخصفها بهلب وسر البردي بها تصح .. فقال فضالة إني آتيتك مستحملاً ولم آتيك مستوصفًا، فلعن الله ناقة حملتني إليك فقال له ابن الزبير: إن وراكبها.

وانصـرف فضالة من عنده **وهو يقول:**

شـكوت إليـه أن نكبـت قلـوصي فــرد جــواب مشــدود الصــفاد

يًضــــن بناقـــة ويـــوم ملكًـــا محـــال ذلكـــم غـــير الســـديد

وانطلق متغنيًا بكرم بني أُمية. وهذا الموقـف وغـيره يوضـح سـبب عـزوف الشعراء عن مساندة الحزب الزبيري ويعكس زهد ابن الزبير في الإطراء والمدح.

كان اجتراء ابن الزبير على عبـد الله بـن عبـاس ، ومحمـد بـن الحنفيـة وعـدم مراعاته سبقهم ولا مكانتهم عند النـاس وأذاهـم حتـى اسـتنقذهم المختـار وقـدر الشيعة والمسلمون ذلك .

ومن الأسباب العامة:

كونت الفرق والأحزاب التـي لم تقبـل العصـبية القبيلـة حـزب الـزبير يـين إذ يتعصبون لقريش فأنشغل الزبيريون بمحاربتهم ممـا بـدد قـوتهم وفـرق جمعهـم فأضلعوا السنوات دون ترسيخ مبدأهم أو أفكارهم .

تغير المناخ في الحجاز إذ انصرف الغالبية عـن السياسـة، إمـا هجـرًا إلى حيـاة اللهو والمجون ، أو هجرًا للأمويين الـذين أغـدقوا علـيهم ألأمـوال ومـدوهم بـما يساندهم على الدعة والترف .

وحينما مات تبدد الحزب ، وقد اختلف النـاس في قبولـه بـل في الوقـوف إلى جوار قطبيه "عبد الله ومصعب " ، فبينما كان عبد الله ممسـكًا كـان مصـعب أخـوه وواليه على العراق باذلاً معطاءً وكان يضرب بعبد الله المثل في البخل وقال " عجب قد ملأه استبداد برأيه ، بخل قد التزامه فلا يسود بها أبدًا.

شعر الزبيربين

كان حصاد شعر الزبيرين قلة فالفترة التي علـوا فيهـا لم تكـن كافيـه ليتغنـى الشعراء بمآثرهم أو يذيعوا مبادئهم ثم أعمالهم.

إضافة إلى أن شخصية عبد الله بن الزبير كانـت عـلى النقـيض مـن شخصـية غريمه .. فبينما نرى عبد الملك بن مروان كريمًا سخيًا يجذب إليه المناوئين كـان عبـد الله ممسكًا مقترًا ففر منه مؤيدوه ، إضافة إلي عدم وضوح الرؤيـة الزبيريـة في أمـور وأشياء كثيرة .

وقد أيد بعض الشعراء الزبيرين وتغنوا بهم ؛ ولكـن لقلـتهم نجـد إنهـم قـد مسوا عطاء الزبيريين القليل مثل النابغة الجعدي الذي صـوره كـأبي بكـر و عمـرو عثمان يقول مخاطبًا ابن الزبير.

حكيـــت لنـــا الصـــديق لمـــا وليتنـــا ... وعـــثمان والفـــاروق فارتـــاح معـــدم

وسويت بين الناس في العـدل فاسـتووا ... فعـاد صـباحًا حالـك اللـون مظلـم

أتـــاك أبـــو ليـــل يجـــوب بـــه الـــدجي ... دجـي الليـل جـواب الفـلاة عثمـثم

لتجـــبر منـــه جنبًـــا زغريـــت بـــه ... صروف الليـــالي والزمـــان المصـــمم

وقصة هذا الشعر أن النابغة الجعدي وفد على ابن الزبير فدخل عليه المسـجد الحرام وأنشده الأبيات .

فقال له ابن الزبير: هون عليك يا أبا ليلى فإن الشعر أهـون وسـائلهم عنـدنا، أما صفوة مالنا فلآل الزبير، وأما عفوته فإن بني أسد بن عبد العزى تشـغلها عنـك وتيمًا معها ولكن لك في مال الله حقان حق برؤيتك رسول الله ﷺ وحق بشـــركتك

أهل الإسلام في فيئهم ثم أخذه بيده فدخل بيت النعم فأعطاه قلائص سبعًا وجملاً رجيلاً أوفر له الأبل برًا وتمرًا وثيابًا .

ومن الشعراء من اعتنق بعقله وقلبه فكر الزبيرين وعلق بهم بشكل لم يتزعزع مثل أبو وجزه السعدى ،و إسماعيل بن يسار النسائي وفي الأغاني " خرج أبو وجزة السعدي وأبو زيد الأسلمى يريدان المدينة، وقد امتدح أبو وجزه آل الزبير وامتدح أبو زيد الأسلمى إبراهيم ابن هشام المخزومي فقال له أبو وجزه: هل لي في أن أشاركك فيما أصيب من ال الزبير، وتشاركني فيما تصيب من إبراهيم ، فقال كلا والله لرجائي في الأمير أعظم من رجائك في ابن الزبير فقدما المدينة، فأتى أبو زيد دار إبراهيم فدخلها وأنشد الشعر وصاح وجلب فقال إبراهيم فدخلها وأنشد الشعر وصاح وجلب فقال إبراهيم لبعض أصحابه: أخرج إلى هذا الأعربي الجلف فاضرب بغله وأخرجه، فأُخرج وضُرب. وأتى أبو وجزة أصحابه فمدحهم وأنشدهم ، فكتبوا له إلى وال لهم بالفرع أن يعطي منه ستين وسقاً من التمر، فقال أبو وجزه يمدحهم:

راحت قلوصي رواحًا وهي حامدة ... آت الزبير ولم تعدل بهم أحدًا

راحت بستين وسقًا في حقيبتها ... ما حملت حملها الأدنى ولاالسندا

ذلك القرى لا كأقوام عهدتهم ... يقرون ضيفهم الملوية الجددا

يعني السياط

أما إسماعيل ابن يسار فقد كان من موالي قريش وكان بعامة شديدي الحنق على الأمويين لظلمهم إياهم، وإذا كان الموالي يلتفون حول كل معارض للأمويين كموقف مبدئي، فهم في العراق مع الشيعة، وفي الحجاز مع الزبيريين.

ونجد أن الملتفين حول الدعوة الزبيرية من الشعراء كانوا قلة ؛ بل المحيطين بمصعب وإلى عبد الله على العراق أكثر من الملتفين حول الأخير، فمصعب كان

جوادًا حليمًا ، والمعروف أنهما خصلتان محببتان للخلق ، والخالق تستران أي عيب ،، فالتسامح تجلي في موقفه من الرد على الأحنف ابن قيس الذي جاء لفك حبس البعض قائلاً " أصلح الله الأمير: إن كانوا حبسوا في باطل فالحق يخرجهم وإن كانوا حبسوا في حق فالعفو يخرجهم" .. فخلاهم.

أما ما يدل على تسامحهم " أن أخذ مصعب بن الزبير رجلاً من أصحاب المختار فأمر بضرب عنقه فقال: أيها الأمير ما أقبح أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة ووجهك هذا الذي يستضاء به فأتعلق بأطرافك وأقول أي رب سل مصعبًا فيها قتلني.

قال: أطلقوه .

قال: اجعل ما وهبت لي من حياتي في خفض.

قال: أعطوه مائة ألف.

قال: بأبي أنت وأمي، أشهد الله أن لابن قيس الرقيات منها خمسين ألفا.

قال: ولم ؟

قال لقوله فيك.

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك رحمة ليس فيه جبروت يخشى ولا كبرياء
يتقى الله في الأمور قد أفلح من كان همه الاتقاء

فضحك مصعب، وقال: (أرى فيك موضعًا للصنيعة، وأمره بلزومه وأحسن إليه فلم يزل معه حتى قتل وهذا يدل على الكياسة والفطنة والذكاء).

والفارق بين مصعب وأخيه في البذل والتسامح بيّن واضح، فأين هذا الذي صنعه مصعب من فعل أخيه عبد الله حينما دخل عليه أبو صخر الهذلي في قومه

يطلبون العطاء، وكان عبد الله يعرف أن هـوى الهـذلي في بنـي أميـة فمنعـه العطـاء وقال:(عليك ببني أمية، فاطلب عندهم عطائهم)

مما أحفظ الهذلي فرماه بشدة البخل وفضل عليه الأمويين، فغضب ابن الـزبير ثم أمر بسجنه عامًا في "عارم".

ويضرب الرواة مثلا على بخل ابن الزبير وشحه في العطاء على الشـعراء عـلى فضالة بنت شريك الأسدي وقل بل ابنه عبد الله.

أصـــــحوت عـــــن أم البنـــــــ   يـــــن وذكرهـــــا وغنائهـــــا
وهجتهـــــا هجـــــر إمـــــرئ   لم يقـــــل صـــــفو صـــــفائها
زادت عـــــلى البـــــيض الحســـــا   ن بحســـــــنها ونقائهـــــا
لـــــولا هـــــوى أم البنيـــــــ   ن وحـــــاجتي للقائهـــــا
قـــــد قربـــــت لي بغلـــــه   محبوســـــة لنجائهـــــا

والزبيريون مناضلون تصادميون لم يتحدوا مع العناصر والفئات الموجـودة ؛ فقد نقموا على الأمويين .. تجريدهم الحجاز مـن سـلطانهم القـديم ، وحنقـوا عـلى الخوارج نظرتهم العامة دون سواهم، ورفضوا رؤيـة الشـيعة القـاصرة عـلى إسـناد الحكم للهاشميين دون سواهم واستعانتهم بالموالي ، **يقول ابن قيس الرقيات مهاجمًا الأمويين ثم الخوارج:**

كيـــف نـــومي عـــلى الفـــراش   ولمـا تشـمل الشـام غـارة شـعواء
تـــذهل الشـــيخ عـــن بنيـــه وتبـــدي   عـــن براهـــا العقيلـــة العـــذراء
أنـــا عـــنكم بنـــي أميـــة مـــزور   وأنـــتم في نفســـي الأعـــداء

ثم يندد بالمضريين الذين خانوا مصعبًا في موقعة "نهر دجيل".

أن الرزيـــــة يــــوم مســـــــ كـــن والمصـــيبة والفجيعـــة
بـــابن الحـــوارى الـــذي لم يعـــده أهـــل الوقيعـــة
غـــدرت بـــه مـــضر العـــرا ق وأمكنـــت منـــه ربيعـــة
فأصـــبت وتـــرك ياربيـــــ ع وكنـــت ســـامعة مطيعـــة
يـــالهف لـــو كانـــت لـــه بـــالطف يـــوم الطـــف شـــيعة

مما يدل على تسجيل أكثر المواقف شعرًا وإن قل عدد المتشيعين لهـذا الحـزب الذي مات وتفتت بموت قائده ... عبد الله ابن الزبير.

عبد اللّه ابن قيس الرقيات

شاعر الحزب الزبيري ظل فترة طويلة يدعوا للحزب الزبيري ويـدافع عنـه، ثم انتقل لمدح والدفاع عن الأمويين ، وسبب تلقيبه " الرقيات " أنه علق أكثـر مـن فتاة تسمى رقية وشبب بها ، ولم تكد تقع عينه على رقيـة أبنـة عبـد الواحـد ابـن أبي سعد أحد أفراد قبيلته حتى هاجر وترك الديار و أُغرم بها وظل يشبب بها.

وقد صاحب المغنيين مثل " سائب خائر بُديح فند" من مغنيين المدينة ، وقـد عاش حياة اللهو وينظم أوقات لهوه فكان ينظم الشعر فيتلقفه المغنيون والمغنيـات، ثم ترك المدينة في أيام زياد ابن معاوية وحينما وقعت موقعة "الحرة" كان هو خـارج المدينة وقتلا ابني شقيقه عبد الله "أسامه وسعد" فبكـى بكـاءًا مـرًا ودعـى النـاس للثورة على بن أمية والخليفة يزيد يقول:

إن الحـــوادث بالمدينـــة قـــد أوجعنـــي وقـــر عـــن مروتيـــه

يُنعـــي بنـــو عبـــد وإخـــوتهم حـــل الهـــلاك عـــلى أقاربيـــه

ونُعـــي أســـامة لي وإخوتـــه فظللـــت مســـتكًا ســـامعيه

تبكـــي لهـــم أســـماء معولـــة وتقـــول لـــيلى وارزيتيـــه

والله أبـــــرح في مقدمـــــة أهـــد الجيـــوش عـــلى شـــاكتيه

حتـــى أفجعهـــم بـــإخواتهم وأســـوق نســـوتهم بنســـوتيه

وقد امتلأت روحه بفكر الزبيريين ... مـن نحـو حتميـة الخلافـة في قـريش روحًا وواقعًا عمليًا حاضرتها الحجاز، اسـتبعاد كلـب التـي قامـت بموقعـة الحـرة وأوجعت الجميع، ضرورة التخلص من الأُمويين ونقض حكمهم في الشام .

وأعلن ذلك في قصيرة أفتتحها بقول:

أقفـرت بعـد عبـد شـمس كـداء فكـــدي فـــالركن فالبطحـــاء

وقد تغني بقريش وعدد مناقبها ومدح مصعب ابن الزبير كما امتـدح رسـول الله والخلفاء الراشدين ، ويفخر بقريش وينعي البيت الحرام الذي تجـرأ عـلى حرقـه جيش الشام ودعا لحرب عبد الملك وبني أُمية لتجرأهم على البيت والمدينة وقـتلهم الحسين في كربلاء.

حبـذا العـيش حـين قـومي جميـعٌ لم تفـــرق أمورهـــا الأهـــواء

قبـــل أن تطمـــع القبائـــل في ملـك قـريش وتشـمت الأعـداء

وهاجم الخوارج الذين يردون الأمر إلى الأمة والمسلمين جميعًا.

آيهـــا المشـــتهي فنـــاء قـــريش بيـــد الله عمرهـــا والفنـــاء

إن تـــودع مـــن الـــبلاد قـــريش لا يكـــن لحـــي بعـــدها بقـــاء

فقريش عمود الخلافة، ولو زالت عنهـا لسـقط ركناهـا ويمـدح مصـعب في أبيات:

أنـــما مصـــعب شـــهاب مـــن الله تجلـــت عـــن وجهـــه الظلـــماء

الغزل السياسي يعد قيس ابن الرقيات من الشعراء الـذين فاضـوا في الغـزل السياسي، فبعد أن شبب عبد الـرحمن ابـن حسـان ابـن ثابـت برملـة بنـت معاويـة وخاض ابن قيس حربًا شعواء غزلاً في نساء بني أمية حتى تغزل في عاتكة زوج عبد الملك فاستحل دمه ثم عفى عنه **يقول**:

في عاتكة بدت لي في أترابهـا فقتلننـي كـــذلك يقـــتلن الرجـــال كـــذلك

وقالـت لـو أنـا نسـتطيع لـزاركم طبيبـــان منـــا عالمـــان بـــدائكا

ويتغزل في أم البنين:

أتتنـــــــي في المنـــــام فقلـــــــــ ت هـــــذا حـــــين أعقبهـــــا

فلــــــما أن فرحـــــــت بـــــــه ومـــــــال عــــــلًى أعــــــذبها

شربـــــــت بريقهـــــــا حتـــــــى نهلـــــــت وبـــــــت أشربهـــــا

وبـــــــت ضــــــجيعها جَـــــذلاً ن تعجـــــــبن وأعجبهـــــــا

وأيقظهـــــــــا منـــــــــاد في صـــــلاة الصـــــبح يرقبهـــــا

الخـــــوارج

الشراة- المحكمة- الحرورية

هم فئة من المؤمنين الصادقين انفصلوا عن الجموع الملتفة حول الأمام عـلى ؛ ورفضوا التحكيم وخرجوا عن قبوله ، وعن الإمام وشروا- باعوا- أنفسهم ابتغاء جنة الله وزهدوا- غالبًا – في الدنيا.

ما رغبة النفس في الحياة وإن عاشت قليلاً فالموت لاحقها.

وأيقنـــت أنهـــا تعـــود كـــما كـــان   براهـــا بـــالامس خالقهـــا

يوشـــك مـــن فـــر مـــن منيتـــه   في بعـــض غراتـــه يوافقهـــا

مـــن لم يمـــت عبطـــه يمـــت هرمـــا   والمـــوت كـــأس والمـــرء ذائقهـــا

واشتهروا بالشراة وهو مسمى مأخوذ مـن قولـه تعـالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِى نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ ...﴾[سورة البقرة:٢٠٧]

كانوا يريدون الآخرة ويتطلعون إلى الشهادة رجال ونساء ، حتى إن أم حكيم الخارجية تطلعت إلى الشهادة والخلاص من الدنيا.

أحمـــل رأســـا قـــد ســـئمت حملـــه   وقـــد مللـــت دهنـــه وغســـله

ألا فتى يحمل عنى ثقله.

فقد حاكت الرجال في ذلك إذ يقول أحدهم:

أبيـــت وسربـــالي دلاص حصـــينة   ومغفرهـــا والسـيف فـوق الحيـازم

أريـــد ثـــواب الله يومـــا بطعنـــة   غموس كشدق العنـبري بـن سـالم

ووسموا خوارج من قوله تعالى :

﴿... وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ...﴾[سورة النساء:١٠٠]

وهي فرقة أشداء أقوياء لا يخافون في الله لومة لائم، كذلك سموا بالحرورية ؛ لنزولهم قرية قرب الكوفة تسمى حروراء، وقد لحق بهم مسمى المحكمين لأنهم رفعوا شعار " إن الحكم إلا الله" ... لكنهم سرعان ما انقسموا على أنفسهم من بعد إلى عدة فرق الأباضية، النجدية، الصُفرية الأزارقة .. كل منها إتبعت أحد الرواد الذين انفصلوا عن الفرقة الأساسية لاختلافه معها. أو لأنه أوجد مفاهيم جديدة.

والمعروف أن النصر كان في ركاب الأمام على ؛ وأوشك قائدة "الاشتر النخعي" على حيازته ، فنتبه داهية العرب"عمرو ابن العاص" وتفتق ذهنه عن حيلة إذ أشار على معاوية أن يرفع المصاحف على أسنة الرماح ويطلب تحكيم كتاب الله " إن الحكم إلا الله" و في ذلك قال النجاشي:

فأصبح أهل الشام قد رفعوا القنا　　　عليها كتاب الله خير قران

ونادوا عليًا يا ابن عم محمد　　　أما تتقي أن يهلك الثقلان

وعلم الأمام على خبث الخديعة وخطورتها فرفضها ، لكن تكالب عليه الجمع ، إلا نفر قليل فاضطر إلى قبول التحكيم ثم دفعوه إلى قبول أبي موسى الأشعري وكيلاً للتحكيم وكان الأمام يعلم ضعفه ولينه لكنه دُفع لقبوله ، فخرج البعض على الإمام معلنين إنهم على الحق وأن ذلك – قبول التحكيم – دنية لن يقبلوها لأنهم يثقون أنهم على الحق. لذا خرجوا مجاهدين .. إضافة إلا أن التحكيم يحصر الشورى في رجلين – الحكمين– ويجعل مصير المسلمين مرتبط برؤياهما على خلاف أمر الشورى الذي وسع نطاق المستشارين.

وحارب الإمام جيش معاوية والخوارج ، مما أنهك قواه وبدد شمله. وكانوا حادين في خصامهم عنفاء في قتالهم إذ أن الباعث على مخالفتهم التعصب للإسلام ورغبتهم في استرداد .شكل خلافة السابقين المقربين ، فالمسلمون هم من يختارون أميرهم المدبر لأمورهم الخاصة والعامة ، ولم يك الباعث لديهم رغبة في منصب أو استحياء للعصبية القبلية ، إذ أنهم كانوا يحرصون على الموت باغينه ، حتى أنهم حبوا أعدائهم لأنهم سيحققون لهم مبتغاهم ، ثم ينتقلون من دار فانية لدار باقية ، **يقول أبو بلال:**

أبعد بن وهب ذي النزاهة والتقى ومن خاض في تلك الحروب المهالك

أحب بقاء أو أرجى سلامة وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا

فيارب سلم نيتي وبصيرتي وهب لي التقى حتى أولاقى أولئك

وهم يخافون الله ويلتزمون دينيًا :

كم من أخ لك قد فجعت به قوَّام ليلته إلي الفجر

متأوه يتلوا قوارع من أي القرآن مفزَّع الصدر

وهم ابتداءً خالفوا الفرق الموجودة في كثير من المسائل الدينية الهامة كمسألة الخلافة وقتل البغاة ، ويرون أن الخلافة حق للجدير بها سواء أكان قرشيًا أم عبدًا حبشيًا، بخلاف الفرق الأخرى إذ اشترط الزبيريون أن يكون عبدًا حبشيًا ، واشترط الشيعة أن يكون هاشميًا ، واشترط الأمويون أن يكون أمويًا ... أما الخوارج فهم برءاء من صنف خاص ، وأباحوها للمسلمين كافة ، من امتلك قوامها منهم . فلا جنس ولا قبيلة ولا عائلة تنحصر فيها الخلافة ، فالناس سواسية والعبرة بالمُكرم " إن أكرمكم عند الله أتقاكم " وقال عمران بن حطان :

فنحن بنو الإسلام والله ربنا وأولى عباد الله بالله من شكر

والخوارج أثرت في مسار التاريخ الإسلامي ؛ لقوة أعضاءها وتأثيرهم في مجريات الأمور وتحريك الأحداث إذ حاربوا الحكام ، وأقضوا مضاجعهم ، ووجه إليهم جيش إثرى أخر ، وحصلت مواجْهات يُغْلَبون ثم يغلبون يدفعهم إلى استرخاص أرواحهم وبذلهم النفس والنفيس بيقين كامل بثبات موقفهم حتى قال شاعرهم " أريد ثواب الله يومًا بطعنة " وقتل بلال بن مرداس قعصًا بالرمح ، ومقتله يشهد ببسالة الخوارج وجلدهم وصلابتهم ، التى تسحب لهم النصر ، فقد روى أن ابن زياد أمر بإحضار أخيه عروة بن أُدية فبترت يداه ورجلاه ، ثم سأله كيف ترى ؟ قال : أرى أرى أنك أفسدت دنياي وأفسدت أخرتك !! فأمر به فقتل ومعه ابنته ، فخرج أخوه أبو بلال بن مرداس في أربعين رجلاً من الخوارج ورابطو بالأهواز فأرسل إليهم عبد الله ابن زياد جيشًا مؤلفًا نت ألفي رجل يقودهم ابن حصن التميمي فهزمهم الخوارج ، وفي ذلك بقول شاعرهم عيسى ابن عاتك الخطي:-

فلما أصبحوا صلوا وقاموا ... إلى الجُرد العتاق مسومين

فلما استجمعوا حملوا عليهم ... فظل ذوو الجعائل يُقتلونا

بقية يومهم حتى ارتآهم ... بأن القوم ولوا هاربينا

ألفًا مؤمن فيما زعمتم ... ويقتلهم بأسك أربعونا

كذبتم ليس ذلك كما زعمتم ... ولكن الخوارج مؤمنين

هم الفئة القليلة قد علمتم ... على الفئة الكثيرة يُنصرونا

وتمنى شاعرهم عمران بن حطان أن يموت موتته ، على الرغم من أنه من الصفرية المؤمنين بالقعود عن القتال، **لكن موت بلال آثر فيه أيما تأثير فيقول:**

لقـــد زاد الحيـــاة إلي بغضًـــا وحبًـــا للخـــروج أبـــو بـــلال
أحـــاذر أن أمـــوت عـــلى فـــراشي وأرجو المـوت تحـت ذرى العـوالي
ولـــو أني علمـــت بـــأن حتفـــي كحتـــف أبي بـــلال لم أُبـــال
فمـــن يـــك همـــه الـــدنيا فـــإني لهـــا ورب الكعبـــة قـــالي

وقد تفرقت الخوارج إلى عدة فرق:-

الأزارقـة: أتباع نافع ابـن الأزرق ثـم قطـري ابـن الفجـاءة وهـم أكثـر فـرق الخوارج تشددًا وتطرفًا ويتركزون في البطحاء قرب البصرة ويكفرون مـن لم يقتنـع فكرهم من المسلمين ، ويستحلون نساءهم، ويبيحون الغدر بأعداءهم .. وأرهقـوا الدولة بالحروب حتى أرسل إليهم مصعب ابن الزبير، المُهلب ابن أبي صُفره فظفـر بهم في عصر الحجاج.

الصُفرية: أتباع زياد ابن الأصفر وهم أقل غلوًا وتشـددًا تركـزوا في الموصـل وبلاد الجزيرة ومن قادتهم شبيب الشيباني والضحاك ابن قيس..

النجدات: أتباع نجدة ابن عـامر الحنفـي تمركـزوا في اليمامـة وحضرـ مـوت والبحرين وهم أكثر فرق الخوارج اعتدالاً وجه لهـم الحجـاج عبيـد الله ابـن معمـر فقضـى عليهم.

الأباضية: أتباع عبد الله ابن يحي ابن أباض التميمي تمركزا في اليمن غـالوا في الحكم على مخالفيهم ؛ كالأزارقة تمركزوا في اليمن من أهم قوادهم أبو حمزة الشاري استولى على مكة والمدينة ثم استردها منه مروان ابن محمد.

وقد صاحب الأدب تلك الفرق وسجل الشعراء آراءهـم ورؤيـتهم، وعـلى الرغم من حبهم للخروج للقتال والاستشهاد إلا أن منهم من رغب عن ذلك حبًا

لابنته كما فعل أبو خالد القناني حين أعلن ذلك عندما لامه قطري ابن الفجاءة قائلاً:

**أبا خالد يا انفر فلست بخالد		وما جعل الرحمن عُذرًا لقاعد**

**أتزعم أن الخارجي على الهُدى		وأنت مقيم بين لص وجاحد**

فكتب إليه خالد:

**لقد زاد الحياة إلى حُبًّا		بناتي إنهن من الضعاف**

**أحاذر أن يرين الفقر بعدي		وأن يشربن رَنقًا بعد صافي**

ومنهم من رفض الخروج تعلقًا بالحياة أو حبًا لزوجه أو لهرمه كما قيل في عمران ابن حطان الذي رفض الخروج وعُد رئيس القاعدة ونُسب إلى الصُفرية.

أشعار الخوارج

لأن الخوارج أصحاب رؤية سياسة من حرية اختيار الحاكم وأن المسلمين أحرار في اختيارهم عن طريق الشورى، وكما أن للخليفة الحرية في التنازل عن الخلافة إذا ما عرض له عارض من مرض أو غيره دون أن يوصى أو يعهد بها ، فلأحدهم كذلك للمسلمين الخروج على الإمام الجائر وقتاله لذا دخلوا في حوار حاد وعنيف مع الأمويين أرهق كل منهما صاحبه.

وقست عليهم الدولة وعاملتهم بعنف وحدة قابلوها بلا مبالاة وجلد يقول شاعرهم عروة ابن نوفل:

ما إن أبالي إذا أرواحنا قُبضت — ماذا فعلتم بأوصال وأبشار

تجرى المجرة والنسران بينهما — والشمس والقمر الساري بمقدار

وقد علمت وخير القول أنفعه — أن السعيد الذي ينجو من النار

وقد اعتنقوا فكر تلازم الإيمان والعمل فالذي ينطق بالشهادة لا بد أن يعمل بحقها ويزهد في الدنيا .

لذا صاحبهم الجهاد وامتشاق السيوف وكانوا ذوى رؤية ضيقة للنص القرآني يأخذون ظاهره دون تأويل أو اجتهاد.

إلا النجدات فأجازوه، كذلك اتفقوا على تكفير مرتكب القبيلة وإن لم يصر عليها إلا النجدات.

وقد تماثلت أشعارهم في سمات الفنية فشعرهم يغلب عليه المقطوعات القصيرة فهم ينطقون بالشعر لوقوعهم تحت تأثير موقف ما فيبثوا التأثير في التو واللحظة .

دون إعداد أو تنميق أو امتداد مما ترتب عليه عدم الدقة في انتساب الأبيات فهي لخارجي .. قد تنسب لزيد وقائلها عمرو وتتشابه المقطوعات في السمات فلا تفرد وإنما تنضوي جميعها على إحساس قوى بالإيمان وفداء الإسلام والامتثال للأمر الإلهي والحض على التضحية والفداء يقول أبو مالك ولذا يقل شاعرهم أبو مالك عبيدة ابن هلال اليشكري في خارجي سقط صريعًا في إحدى المعارك:

ومسوّم للموت يركب درعه ... بين القواضب والقنا الخطار
يهوي وترفعه الرماح كأنه ... شلو تنشَب في مخالب ضاري
فثوى صريعًا والماح تنوشه ... إن الشراة قصيرة الأعمار

وهم يفاخرون بالتزام الفرائض وآتيانها كاملة حتى لو أرهقتهم يقول الطرماح:

لله در الشراة إنهم ... إذا الكرى مال بالطلا أرقوا
يرجّعن الحنين آونة ... وإن علا بهم ساعة شهقوا
خوفًا تبيت القلوب واجفة ... تكاد عنها الصدور تنفلق
قوم شحاح على اعتقادهم ... بالفوز مما يُخاف قد وثقوا

فهم صابرون مداومون على العبادة واثقين بالفوز، ولم يكونوا من هواة الجدل بل يفعلون ما يعتنقونه بيسر وسهولة.

كما يشيع في أدبهم شعرًا ونثراً ، الدعوة للإقبال على الآخرة والزهد في الدنيا ، والنغم الديني وقوة الإيمان والحماسة والنشاط وأن حياتهم العملية صاحبة رؤيتهم الحياتية التي عبرت عنها أشعارهم، إذ اتسمت بالصدق والصراحة مما جعلهم شديدي التأثير في الناس جاذبين لهم ومن نثرهم الذي يبين منهجهم في الحياة رد قطري ابن الفجاءة على الحجاج إذ بعث إليه رسالة قائلاً:

" بسم الله الرحمن الرحيم من الحجاج ابن يوسف إلى قطري ابن الفجاءة سلام عليك الموحد الله ، والمصلى عليه محمد عليه السلام، أما بعد فإنك كنت أعرابيًا بدويًا تستطعم الكسرة، وتخف إلى التمرة ثم خرجت تحاول ما ليس لك واعترضت على كتاب الله ومرقت من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فراجع عما أنت عليه بما زين لك وادعني، فقد أن لك ذلك".

فرد عليه قطري بقوله:

"بسم الله الرحمن الرحيم من قطري ابن الفجاءة إلى الحجاج ابن يوسف سلام على من اتبع الهدى ذكرت في كتابك أني كنت استطعم الكسرة ، وأبدر إلي التمرة ،وبالله لقد قلت زورًا ، بل الله بصرني من دينك ما أعماك عنه ، إذ أنت سائح في الضلالة ، غرق في غمرات الكفر ، ذكرت أن الضراوة طالت بي، فهلا برز لي من حزبك من نال الشبع، واتكأ فاتدع، أما والله لئن أبرز الله صفحتك، وأظهر لي صلعتك لتنكرن شبعك ، ولتعلمن أن مقارعة الأبطال ليست كتطيير الأمثال".

فنجد فكرًا مصبوبًا في بلاغة وبيان ، جلي وهم يلتفون حول مبدأ لا حول شخص، لذا يشيع في أشعارهم الدعوة إلى ترسيخ هذا المبدأ ويدعون إلى ترك الجدل ثباتًا ويقينًا بصواب وجهتهم فهم يدعون للدفاع عن دين الله للفوز بالآخرة، إذ الدنيا دار حرب وجهاد للدفاع عن حقوق الإسلام ، وإن لم يُعزز الحق استوجب الخارجي النار ، فهم وارعون متقون يقضون نهارهم صيامًا وليلهم قيامًا تالين للقرآن الكريم .

إذا ذُكرت الجنة تشوقوها وإذا ذُكر العذاب كادت قلوبهم أن تنخلع هولاً من الخشية **وهو فكر تشبعوا به يقول أحدهم:**

فتيــــة تعـــرف التخشـــع فـــيهم ... كلهـــم حكـــم القـــرآن غلامـــا
قـــد بـــرى لحمـــه التهجـــد حتـــى ... عـــاج جلـــدًا مصـــفرًا و عظامًـــا

وأخر يعتقد أنه ينصر في جهاده لالتزامه الصوم فيقول:

أجاهـــد أعـــدائي إذا تتـــابعوا وأدعـى باسـمي للهـدى فأجيـب

معي كل أواه برى الصـوم جســ مـه ففي الجسـم منـه نهكـةُ وشـحوب

فالتزامهم العبادة نُجِفوا فصاروا جلدًا يعـتلي عظـمًا وهـو يمتـازون ببسـالة وشجاعة لافتة أخافت الحجاج وهو من هو فحينما هجم شبيب الصُـفري وزوجـه غزالة على الكوفة في جمع من أصحابهما هلع الحجاج وتحصن في قصره فقال عمران:

أســد عــلى وفي الحــروب نعامــة ربـداء تنفـر مـن صـفير الصـافر

هــلا بــرزت إلى غزالــة في الضُــحى بـل كـان قلبـك في جنـاحي طـائر

وتشيع في ألفاظهم الألفاظ البدوية فقد .. آثروا العيش بعيدًا عن حياة الترف والحضارة أو .. فرضت عليهم نظـرًا لأنهـم مطـاردون ... لـذا فـالجراءة الصـارمة والصـراحة النقية يصاحب ذلك صدق الباعث، وحدة العاطفة سمات متشـظية في أشعارهم جمعاء، يكسو ظل عقيدتهم المكينة في نفوسهم وعنفوان أثرها وذبهم عنها ، لذا نحّو الموروث الثقافي النظمي جانبًا من المقدمة الطللية أو الغزلية أو الوصـفية أو الخمرية، فهم لا يحتاجونها إذ تدفعهم عاطفة قويـة لاسـتفراغ مـا يجيش داخـل صدورهم. وتئن منه ضلوعهم من حب الله، وقوة الإيمان ، ورسوخ العقيدة حتـى إن الحزن سمة غالبة على أشعارهم فالأكثرية يستشهدون في ساحة الوغي والأقليـة يأملون حيازة ذلك ويخشون أن يفوتهم هذا الشرف يقول كعب ابن عميرة:

لقـد فـاز إخـواني فنـالوا التـي بهـا نجـوا مـن عـذاب دائـم لا يفـتر

أبي الله إلا أن أعــــيش خلافهـــم وفي الله بي عـــز وحـــرز ومنـــصر

ويــا رب هــب لي ضربي بمهنـــد حسـام إذا لا قـي الضــريبة يُهـبر

ونلاحظ أن عباراتهم فصيحة قوية حادة مؤثرة كمبادئهم وحياتهم فهم لم يعرفون الدعة أو اللين حتى في ألفاظهم" والفضل ما شهدت به الأعداء" فقد أقر لهم بذلك عبيد الله ابن زياد يقول عن كلامهم " لكلام هؤلاء أسرع غلى قلوب الناس من النار إلى اليوراع" وقد تعالى الخوارج عن النزعات الخاصة ، فلا مذهب ولا تعصب لقبيلة ؛ وإنما المنطلق الإيمان القوى بالله والغاية جمهورية الخلافة أو إباحتها لمن يقوم بحقها أيًا من كان خلافًا لغيرها من الفرق التي استمسكت ودانت للواء التحزب للجنس أو القبيلة ، فلم ينس بن قيس الرقيات، قراشيته أو يسهو إسماعيل ابن يسار عن فارسيته ، أما الخوارج فالمنطلق العقيدة.. لذا هاجم الخوارج من بني تميم والأزد قرابتهم وذوي رحمهم الذين مالوا للأمويين ، ولأن شعرهم لمحة فيض شعورية تجيش داخل النفس فتقذفه على اللسان ، ولآن القلب واللسان يحفظان ويعينان القرآن الكريم نجد القرآن الكريم حاضرًا في مقطوعاتهم الشعرية يقول الحسن ابن عمرو الأباضي":

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل   خلوت ولكن قل على رقيب
لا تحسبن الله يغفل ساعة   ولا أن ما يخفي عليه يغيب

فالشاعر هنا استوحى قوله تعالى:﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤٢]

واستمد كذلك عمران ابن حطان الآى القرآني:

فنحن بني الإسلام والله ربنا   وأولى عباد الله بالله من شكر

واستوحي عيسى ابن عاتك الخطى قوله تعالى كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين " فقال:

هم الفئة القليلة غير شك   على الفئة الكثيرة ينتصرونا"

الطرماح

ولد قبل الهجرة في الشام ونشأ بها في بيت شرف ومجد في قومه طيء ويفتخر بنفسه **قائلاً**:

أنا الشمس لحمًا أن تغيب ليلُها وغارت فيها تبدو لعين نجومها

ثم وفد الكوفة مع جيوش الفتح ، فنزل في بني تيم اللات ابن ثعلبه ، وكان فيهم شيخًا من شيوخ الخوارج ، له سمت ووقار فلازمه الطرماح وأعتنق مذهبه الخارجي وأخلص له ، وهو من الصُفرية الذين عزفوا عن الخروج وتحببوا القاعدة وقيل من الأزارقة، وقد عمل في تعليم النشء والطرماح هو بن حكيم بن نضر بن قيس بن حجدر بن ثعلبه من بني ثعل بن عمرو بن الغوث بن طئ من قحطان.

وكان يلقب الطراح والطرماح وهو في اللغة: الذي يرفع رأسه زهوا" ومن هذا المعنى أخذ هذا اللقب، لأنه كان مزهوا بنفسه، فيه كبر وفخر. ويؤيد هذا ما رواه أبو الفرج الأصفهاني عن أبي تمام الطائي قال: مر الطرماح بن حكيم في مسجد البصره، وهو يخطر في مشيته فقال رجل من هذا الخطار؟ فسمعه، فقال: أنا الذي أقول:

لقد زادني حبا لنفسي أنني بغيض إلى كل امرئ غير طائل

وقد سئل حفيد الطرماح أبو مالك: لم قيل لجدك الطرماح؟ وما الطرماح في كلام العرب؟

فقال: أما في كلامنا معشر طئ، فإنه الحية طويل.

وقد قال أبو الفرج الاصفهاني: سمي بن الحكيم بالطرماح لقوله:

ألا إيها الليل الطويل ألا أصبح بصبح وما الإصباح منك بأروح
بلى، إن العينين في الصبح راحة بطرحها طرفيها كل مطرح

وقد قلد الأصفهاني بهذا الزعم العرب القدماء في عاداتهم التي درجوا فيها على تلقيب الشعراء بألقاب يتخذونها من أبيات مشهورة لهم.

وكان الطرماح يكني أبا نفر، وأبا ضبينه.

قبيلته: هي طئ من قبائل قحطان من اليمن، وبذا يعد الطرماح من شعراء قحطان وقد تعصب لها، والطرماح من بيت شرف في قومه، كان جده قيس بن جحدر قد وفد على رسول الله صلى الله عليهم وسلم وأسلم وله معه صحبه.

وقد تصادق مع الكميت الشاعر الشيعي ، وشبت بينهما صداقة قوية عرف كل منهما قدر صاحبة، يقول الجاحظ "لم ير الناس أعجب حالاً من الكميت والطرماح كان الكميت عدنانيًا عصبيًا ، وكان الطرماح خارجيًا صفراويًا، وكان الكميت يتعصب لأهل الكوفة. وكان الطرماح يتعصب لأهل الشام وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قط ، ثم لم يجر بينهما صرم ولا جفوة ولا إعراض ولا شيء مما تدعو هذه الخصال إليه".

" لم ير الناس أعجب حالا منهما وكان الطرماح فصيحًا حتى إن الكميت قال حينما سمع قوله:

إذا قيضت نفس الطرماح أخلقت — عرى المجد واسترخي عنان القصائد

أي والله وعنان الخطابة والرواية ... مما يدل على تمكن الطرماح منها وكان أبي النفس يقول عن نفسه.

لقد زادني حبًا لنفسي أنني — بغيض إلى كل امرئ غير طائل

وأني شقي باللئام ولا ترى — شقًا بهم إلا كريم الشمائل

وقد أُعجب بيزيد ابن المهلهل ابن أبي صفرة ولازمه ومدحه بقصائد جياد من شعره، وقد أجاد في وصفه ووصف حروبه وفتوحه يقول:

إليك يا ابن القرم أطوى بها مجهول أرض بعد أعلامها

ولقد مدحه مدحًا مميزًا وكان الطرماح كثير التنقل والسفر يبغي المال ويتفقد أماكنه وكان يتردد على عامل البصرة خالد ابن عبد الله القسري ١٠٥هـ لينال عطاياه، وكان مقصد خالد كثير من الطرماح حتى مدحه قائلا.

أرجو وأمل كل عام نفحة منكم تدق خطائر الإقتار

لكنه بعد حل وترحال لم يجز ما يبغي مما جعله يقول:

وشيبني أن لا أزال مناهضًا بغير ثرًا أثروا به وأبوع

ريب المنون ولم أنل من المال ما أعصى به وأطيع

فلما سمع خالد القسرى أمر للطرماح بعشرين ألفا ... وقال له إعص بها الآن وأطع إن شئت.

وشعره سار مسارين مسار التماثل مع أقرانه في اللفظ والمعنى ، حينما يطلب الدنيا ويتكلم عن حوادثها وأحداثها ومسار التأديب والتعليم مغلبًا مهنته حينما يتكلم عن الصحراء وما فيها من فيافي فتكون ألفاظه أقرب للبداوة والخشونة يقول:

لله در الشراة إنهم إذا الكرى مال بالطلا أرقوا

يرجعون الحنين أونة وإن علا ساعة بهم شهقوا

خوفًا تبيت القلوب واجفةً تكاد عنها الصدور تنفلق

كيف أرجي الحياة بعدهم وقد مضى مُؤنسى فانطلقوا

قوم شحاح على اعتقادهم بالفوز مما يُخاف قد وثقوا

ويتحدث عن ذم الشح ويوم الحساب:

كــل حــي مســتكمل عِــدة العمــ	ـر ومـــود إذا انقـــضى عـــدده
عجبًــا مــا عجبــت للجــامع المــا	ل يبــــاهي بـــه ويرتفـــده
ويُضـــيع الـــذي يصـــيره اللـــ	ـــه إليـــه فلـــيس يعتقـــده
يـــوم لا ينفـــع المخـــول ذا الثـــر	وة خِلانــــــه ولا ولـــــده
يـوم يـؤتي بـه وخصـماه ووسـط الــ	ـــجن والأنـــس رجلـــه ويـــده
خاشــع الصــوت لــيس ينفعــه ثــً	ـــم أمانيـــــه ولا لـــــدده

وكان يدخل بعض الألفاظ النبطية في شعره وتوفي عام ١٠٥هـ .

الشيعة

قام الحزب الشيعي على عماد أحقية آل البيت بالخلافة ورفضوا الظلم الذي أوقعه المغتصبون –بنو أمية– على آل البيت وقد تكونت جماعة ، ثم حزباً نظر للأمر تلك النظرة واستندوا في ذلك إلى قرابة علي لرسول الله وإصهاره إليه ، نشأته في بيت النبوة وتشربه خصال وصفات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحسن بلائه في الإسلام وزعم البعض منهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عهد إلى علي بالخلافة **لذا حينما بُيع أبو بكر قال أبو سفيان:**

بني هاشم لا تطمعوا الناس فيكم ولا سيما تيم بمضرة أو عدي

فما الأمر فيكم وإليكم وليس لها إلا أبو حسن علي

والحق أن علي ساند الخليفين الأولين، وناصح الثالث أن يكف عما يثير الأمة ضده ، لكن بعد مقتله حيت فكرة تولي الهاشميين سياسياً وعسكرياً إذ رأو أن الخلافة حق لعلى ثم بنيه والخلافة تقف عليهم ولا تكون إلا فيهم مخالفين بذلك المذاهب السائدة.

يقول د/ مصطفى محمد أبو طاحون في كتابه الشعر الإسلامي والأموي: "وهم في ذلك يخالفون الأمويين من حيث أن الأمويين يرون أن أسرتهم أحق بالخلافة لكافئتهم أولاً ، واستمرارًا لخلافة عثمان ثانياً ، وأخيراً رضوخاً لعملية التحكيم ونتائجها، فهم يخالفون الأنصار الزبيريين الذين يرون الخلافة للقرشيين عامة دون الناس جميعاً ودون أن تحبس في بيت قرشي، ويخالفون الخوارج الذين

وسعوا دائرة اختيار الخليفة إلى أوسع مدة وأبعد غاية حين جعلوها حقاً لكل مسلم كفء للنهوض بتبعتها."

وقد انقسمت الفرقة الشيعية بعد ذلك في اختيار الأئمة والخلفاء في إقرار مبادئ وآراء وتعاليم مختلفة ووجدت الإمامية والزيدية.

الإمامية: نسبة إلى الإمام علي والسيدة فاطمة إذ رأوا أن منهم الأئمة واحد تلو الآخر.

الزيدية: فتنسب إلى يزيد ابن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب وحصروا الخلافة في أولاد فاطمة الزهراء فقط وبينما يرى الإمامية أن الشيخين اغتصبا الخلافة ويجب التبرؤ منهما رأت الزيدية أنه يجوز ولاية المفضول مع وجود الفاضل.

الكيسانية: تنسب إلى كيسان مولى علي أو تلميذ محمد ابن الحنفية ويقولون بالرجعة أن محمد ابن الحنفية حي مقيم بجبل رضوى وأنه سيعود يملأ الأرض عدلاً.

شعر الشيعة:

عُد شعر الشيعة صرخة احتجاج ضد ظلم الأمويين وضد تكميم الشفاة ، الذي تبناه الأمويون وتشظت الحجج والبراهين في أشعارهم التي تثبت أحقيتهم بالخلافة حتى إنهم تفننوا في سوق الحجج والبراهين حتى قال الجاحظ عن الكميت إنه وطَّأ للشيعة وفتح لهم باب الاحتجاج لمذهبهم، وحوى شعرهم صدقاً فنياً، وتصويراً بارعاً ،وقوة عاطفة ، فقد كان حب آل البيت يسري في كيانهم ، ويُدفع حدة شعورهم في أبيات تتسم بالصدق الفني واكتسيت تصوير بديعاً قال دعبل الخزاعى في على ابن موسى الرضا بخرسان.

مدارس آيات خلت من تلاوة　　　ومنزل وحي مقفر العرصات

لم يلتزم الشعراء الشيعيين إيقاعاً واحداً بل تنوع عالي النبرة حزناً على الشهداء، واستهوالاً لتجاوز الأمويين، هادئ حين يسوق الحجج على أحقيتهم بالخلافة، ويتحسر على النكبات والكوارث التي تصيب آل البيت، هناك تجديد في شعر الشيعة إذ يعتمد على إيضاح المذهب السياسي والأفكار التي قامت عليه، ونجد القرآن الكريم حاضراً في أشعارهم لفظاً ومعني ، وقد أثنى عبدالملك ابن مروان على أشعارهم من أنها تصيب المحز، وعاب على شعراء بلاطه قائلاً: "يا معشر الشعراء تشبهوننا مرة بلأسد الأبخر، ومرة بالجبل الأوعر، ومرة بالبحر الأجاج ، آلا قلتم كما قال أيمن ابن خزيم في بني هاشم:

نهاركم مكابدة وصوم ... وليلكم صلاة واقتداء

وحب آل البيت والتغني بأفضالهم ومزاياهم سمة غالبة على الشعر الشيعي

أحب محمداً حباً شديداً ... وعباساً وحمزة والوصيا

وجعفرَ إن جعفر خيرُ سبْط ... شهيداً في الجنان مهاجرياً

يقول الأرذلون بنو قشير ... طوالَ الدهر ماتنسى عليا

بنو عم النبي وأقربوه ... أحب الناس كلهم إليا

فإن يك حبهم رشداً أُصِبْهُ ... وفيهم أسوة إن كان غيا

أحِبهُم لحب الله حتى ... أجِيءَ إذا بُعِثْتُ على هويا

وفي شعرهم مهاجمة للأمويين يقول أبو الأسود الدؤلي مهاجماً الأمويين:

ألا بلغ معاوية بن حرب ... فلا قرت عيون الشامتينا

أفي شهر الصيَامِ فَجَعتُمُونا ... بخير الناس طُرا أجمعينا

قتلـــتم خـــيرَ مـــن ركـــب المطايـــا وذللهـــا، ومـــن ركـــب الســـفينا

ومـــن لـــبس النعـــال ومـــن حـــذاها ومـــــن قـــــرأ المثـــــانيَ وائمبينـــــا

لقـــد علمـــت قـــريش حيـــث كانـــت بأَنـــكَ خـــيرهُمْ حَســـبًا ودِينـــا

مـــاذا تقولـــون أنْ قـــال النبـــي لكـــم ماذا فعلتم وأنتم آخر الأُمم

كــثير

هو كثير عزة "عبدالرحمن بن أبي جمعه " كان راوية لجميل بن معمر العذري ، وكان يحب عزة بنت حُميل الضمرية ، وكان شديد القصر، محمقاً وقيل لم يكن يحبها وإنما يستحببها ليروي عنه الأشعار ويشتهر بالتشبيب، وقال ابن سلام: إنه كان يتقول ولم يكن عاشقاً ولا صادق الصبابة ، كان لسان صدق وبوق دعاية للكيسانية، كما كان الكميت بوق دعاية للزيدية، وكان يتحمس لمحمد ابن الحنفية وانضم له حينما أيد عبدالملك وذهب إليه وظل يمدح عبدالملك ويثنى عليه شجاعته وجسارته وكان يدفع لقتال مصعب ويثنى عليه يقول:

ذا ما أراد الغزو لم تثن همه   حصان عليها عقد دُر يزينها

نهته فلما لم ترى النهى عاقه   بكت فبكى مما شجاها قطينها

وكان يقول بالرجعة وينتظر عودة محمد ابن الحنفية الذي سيأتي في جيش قوي يقوض حكم الأمويين ومات سنة ١٠٥ أو ١٠٧ كان يغالى في تشيعه ويرى أن الخلافة حق لعلي وأولاده فقط أما من سبقه من الولاة فهم في رأيه مغتصبون يقول:

بَرئت إلى الآله من ابن أروى   ومن دين الخوارج أجمعينا

ومن عمر بِرئت ومن عتيق   غداة دُعى أمير المؤمنينا

التجديد في الشعر الأموى

كان للعصر الأموي ظروفًا خاصَّة إذ اختلف عن العصر الجاهلي وصدر الإسلامي فقد بدأت الحياة السياسة والاقتصادية والثقافية تتبلور أكثر وضوحًا مائلة مياه عظمى تجاه الحضارة والتقدم مشيحة بوجهها عن العصر الجاهلي ببداوته وبدائيته ... وعن العصر الإسلامي الأول بالانغماس في الدين وإعلاء رايته ، وغض الطرف عن الحياة ، وما يعن من أمرها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وهذا التقدم المعيشي ولا شك سحب رداءه على كل شيء بما فيه الأدب فأصابه سهم التقدم وتناولته الألسن بالتعبير والتبديل وكان ذلك لأسباب عدة.

١ . **شكل الخلافة:** فالدولة الأموية استطاعت تغيير شكل الخلافة والولاية من الانتخاب والشورى إلى الفرض والإجبار وذلك بجعلهم الولاية ملكية يتلقاها الابن عن أبيه... وتكون أخذ البيعة بعد ذلك أمرًا شرفيًا أو تحصيل حاصلًا لا يسمن ولا يغني من جوع ... وكانت العصبية هي العقال الذي يحكم كل شيء... فالعصبية لبني أمية ضد بني هاشم ، وللعرب ضد الموالي، ولأهل الشام ضد أهل العراق والحجاز، .. بل أنهم أزكوا نار العصبية القبلية التي كانت أوارها أنطفى بعد إشراق الإسلام فتزوج معاوية "ميسونة" بنت بجدل الكلبية وأولدته ولدها يزيد لأن قبيلتها اليمنية كانت تنفس على المضرية مكانتها وسبقها في الإسلام فانتقال الخلافة من المدينة إلى الشام أحدث تطورًا خطيرًا، و أصبح بلاد الحجاز بمعزل عن المشاركة الفعلية في الحياة السياسية والعملية وتكونت جهة معارضة في بقاع شتى.

أ- ففي بلاد الشام[1] مقر الحكم توافد عليها الشعراء من كل حدب وصوب يمدحون الولاة خالعين عليهم أرفع الخصال ، وأرقى السمات ، رغبة في

١- التجربة العذرية وأثرها في الشعر الجاهلية –رسالة دكتوراه/ محمد عبدالفتاح القشلان ١٩٩٨ صـ ٣٥٧ بتصرف.

عطاياهم، ونيل إكرامهم، والحكام يعتقدون إن إشاعة المدح عنهم يوطد لهم في الحكم يقول الأخطل عن بني أميه:

شمس الصدارة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلامًا إذا قدروا

بني أمية نعماكم مجللة تمت فلا منة فيها ولا كدر

ب- وفي العراق تركز الخوارج الذين دعوا للانقضاض على الدولة الأموية وتقويض بنيانها لأنها خارجة على النظام الإسلامي فقد أردنا أن تكون الخلافة من حق كل مسلم عادل عالم زاهد ولو كان عبدًا حبشيًا فلا يشترط أن يكون قرشيًا كما قال الزبيريون .. ولا من العلوين كما تقول الشيعة ولا أمويًا كما انتزعت بني أمية الحكم وجعلتها اِرثًا يأخده لاحق عن سابق، وانتصر الشعراء لأحزابهم وشاع الهجاء القاذع بين الأطراف جميعًا.

ت- أما في بلاد الحجاز فقد تكاتفت عليها ظروف عدة صبغتها بصبغتها:

(١) عمد الحكام إلى استبعاد الحجازيين عن الولاية لشعورهم بأحقيتهم في الولاية لأنهم أبناء السابقين في الإسلام فلهم حق التقدم والقيادة وعليهم "الأمويين" واجب التنحي والإتباع.

(٢) أغدق الأمويون الأموال الباهظة على الحجازين ليصرفوا انتباههم وينقلوا تفكيرهم ويغيروا اهتمامهم من المجال السياسي إلى حياة الدعة.

(٣) أحاط الحجازيون أنفسهم بكل مظاهر اللهو والترف ودرج الأبناء –المدينة ومكة في بحبوحة من العيش وترف من العطاء ... يقول د/ طه حسين[1]: "إن الحياة السياسة في أيام بني أمية اضطرت أهل الحجاز إلى الابتعاد عن العمل وأوقعت في قلوبهم اليأس ولكنها أغنت قومًا فلهو وفسقوا وأفقرت قومًا آخرين فزهدوا وعفوًا وطمحوا إلى المثل الأعلى " قصد طه حسين بتلك العبارة أهل الحجاز وأهل نجد.

١- حديث الأربعاء، د. طه حسين حـ ١ ـ ١٩٠.

(٤) فقد تمتعت نجد بطبيعة خاصة إذ ظلت حياتهم قائمة على التقاليد والأعراف البدوية الموروثة عن العصر الجاهلي فالقبيلة هي وحدة المجتمع .. والظعن والتنقل والارتحال هو الطابع العام للحياة بها كما ظلت من الناحية الاقتصادية مجتمعًا رعويًا تعتمد الحياة فيها على الرعي كما كان في الجاهلية، وأصبحت في عزلة تامة عن التيارات السياسية التي حشدت الشام والعراق ... وهكذا اجتمع لأهلها الفقر مع العزلة أو اليأس من الحياة السياسة والعملية مما ولد في نفوسهم تعففًا عن النواحي المادية والبحث عن مثل أعلى تتحقق فيه مُثُل الروح السامية[١] فالحجاز ونجد على تجاورهما اختلفت سبل الحياة بينهما".

(٥) وعلى مقربة من الحجازيين ظهر الزبيريون الذين رأوا أن الخلافة حق لقريش كما قال أبو بكر في مؤتمر الثقيفة[٢] وأنها لابد أن تكون في أكفاء القريشين وعبدالله بن الزبير أكفأهم وأشهرهم.

وكان من أشهر شعراء الزبيريين عبدالله بن قيس الرقبات ... وهناك الكثيرون الذين هاجموا الدولة الأموية بلا هوادة ، قدم عقبة الأسدي على معاوية ودفع إليه رقعه فيها هذه الأبيات.

معاوي أننا بشر فاسجع   فلسنا بالجبال ولا الحديد
أكلتم أرضنا فجردتموها   فهل من قائم أو من حصيد
أتطمع بالخلود إذا هلكنا   وليس لنا ولا لك من خلو
فهبنا أمه هلكت ضياعًا   يزيد أميرها وأبو يزيد

١- التجربة العذرية صـ ٣٦٠.

٢- حين اجتمع المهاجرون والأنصار في ثقيفة بني سعد وخطب سعد بن عباده في المسلمين يريد البيعة لنفسه واثني على الأنصار .. فقام أبو بكر فأثنى عليهم ثم قال أما ذكرتم فأنتم أهل له وانتم أجدر بالثناء من أهل الأرض جميعًا ، فأما العرب فلا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش فمنا الأمراء ومنكم الوزراء فلا تنفثوا على أخوتكم من المهاجرين ما منحهم الله من فضله.

طبيعة الحجاز الجغرافية ومكانتها الدينية جعلها ملتقى الشعراء حيث يلتقي المغمورون بالمشهورين فيأخذوا عنهم ويعرضون عليهم نتاجهم مما أذكى نار المنافسة بينهم واشتد أوارها نتيجة لتشجيع النقاد على تلك المنافسة.

أو الخصومة الأدبية ولاسيما التي اشتعلت بين جرير والفرزدق والأخطل. وانطلقت الألسن تلهج بالثناء على أل البيت

قال الشاعر[١] يمدح الإمام زين العابدين حينما وسع له الناس لاستلام الحجر الأسود ولم يوسعوا لهشام بن عبدالملك أثناء الحج في أيام أبيه:

هذا الذي تعرف البطحاء وطئته — والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا بن خير خلق الله كلهم — هذا التقي النقي الطاهر العلم

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله — بجده أنبياء الله قد ختموا

وليس قولك من هذا بضائره — العرب تعرف من انكرت والعجم

كلتا يديه غياث عم نفعهما — يستو كفان ولا يعروهما عدم

سهل الخليفة لا تخشى بوادره — يزينه اثنان حسن الخلق والشيم

فقد انصرف أهل الحجاز ونجد إلى فن الغزل وظهرت مدرستان:

أحدهما: تتغنى بالجمال الجسدي وتهيم في أوصافه وفتنته وتزعمها عمر بن أبي ربيعة.

ثانيهما: تتسم بالطهارة والعفة في الوصف والتصوير كقيس ليلى جميل بثينه كثير عزه.

١- اختلف الرواة في نسبه هذه القصيدة منهم من قال أنها لداود بن سالم في ختم بن العباس وبعضهم يرويها لخالد بن يزيد في ختم هذا وكان خالد مولي له ومنهم من رواها للحزين الكناني في عبدالله بن عبدالملك وهو عند عبدالعزيز بن مروان ويؤكد الأصبهاني في الأغاني أن البيت لثاني عشر والذي قبله للحزين الكناني والثالث عشر لدواد بن سالم ، وينكر أن تكون للفرذدق —والمرزاني في معجم الشعراء قال إنها للحزين الكناني في مواجهة عبدالله بن عبدالملك أو في مواجهه هشام.

٢. **بسط اليد للمؤيدين:** فمن أيد الدولة شملته يد العناية وعين العطف ومن ناصبها العداء أو ابدي تململًا عرض نفسه للقتل والتشريد.

٣. **الأحزاب السياسية:** كان للأحزاب السياسية دخل كبير في تقدم الأدب وازدهاره ... فلكل حزب شعراءه وأدباؤه الذين ينافحون عنه وينتصرون له وينصبون أنفسهم لمهاجمه أعداءه فقد هجم الأنصار من قبل شاعر الأمويين الأخطل حين قال لهم:

ذهبت قريش بالمكارم   واللؤم تحت عمائم الأنصار

حتى أن النعمان بشير الأنصاري استاء منها وذهب شاكيًا إلى معاوية ما يلقاه أنصار رسول الله من الشعراء .... وكان الشعراء يهجون الأمويين وشعراء الآمويين يردون هجاءهم يقول الأخطل:

شمس الصدارة حتى يستقاد لهم   وأعظم الناس أحلامًا إذا قدروا

بني أميه نعماكم مجلله   تمت فلا منة فيها ولا كدر

وهكذا كان هناك الشعراء لهم موقفًا محددًا إما مؤيدين أو معارضين للدولة الأموية فعلى الرغم من أنه كان هناك مؤيدين للدولة الأموية إلى ان هناك مذاهب عدة لكل منها مؤيدها ومعارضيهم وكان المتشيعين لآل البيت دائمًا ينظمون فضائلهم ،يقول الكميت مادحًا آل البيت :

طربت وما شوقا إلى البيضي أطرب   ولا لعبًا مني وذو الشيب يلعب

ولكن إلى أهل الفضائل والنهي   وخير بني حواء والخير يطلب

إلى النفر البيض الذين بحبهم   إلى الله فيما نالني اتقرب

بني هاشم رهط النبي فأني   بهم ولهم أرضى مرارًا وأغضب

فجعل التوسل بأهل البيت وحبسهم وسيلته للتقرب إلى الله جاعلهم سبب غضبه إذا غضبوا وسبب رضاه إذ رضوا

٤. **الحضارة:** حينما من الله على الناس بالإسلام بدأت كثير من البلدان تدين بدينه وتنضوى تحت لواءه فطالع المسلمون الحضارات المختلفة ولاسيما في البلاد المفتوحة واستلفت انتباههم هذا التقدم وذلك الازدهار ... وحينما جاءت الدولة الأموية ونقلت الخلافة إلى الشام سعت إلى التقدم وأدخلت التغيير والتعديل في أبسط الأمور وأعقدها من المأكل والمشرب حتى شكل الخلافة.

ورد في العقد الفريد: "قال يزيد حدثني أبي أن عمر بن الخطاب لما قدم الشام قدم على حمار ومعه عبدالرحمن بن عوف على حمار فتلقاهما معاوية في موكب ثقيل فجاور عمر معاوية حتى أخبر به فرجع إليه فلما قرب منه نزل إليه فأعرض عنه فجعل يمشي إلى جنبه راجلًا فقال له عبدالرحمن بن عوف أتعبت الرجل فأقبل عليه عمر فقال: يا معاوية أنت صاحب الموكب أنفًا مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: ولم ذلك؟ قال: لأنا في بلد لا نمتنع فيها من جواسيس العدو ولابد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان، فإن أمرتني بذلك أقمت عليه وإن نهتني عنه انتهيت ... فقال لإن كان الذي تقول حقًا فإنه رأي أريب وإن كان باطلًا خدعة أديب وما أمرك به ولا أنهاك عنه فقال عبدالرحمن بن عوف لحسن ما صدر هذا الفتى عما أوردته فقال فيه. لحسن موارده جشمناه ما جشمناه[1].

... من هنا تبين قدر التغيير الذي أدخله مؤسس الدولة الأموية على الحكم، وتحفظ أمير المؤمنين على إبداء رأيه فيه لقوة حجته ونصاعة مقولته وأهمية هدفه.

٥. **الحالة الإقتصادية:** عمد الأمويون إلي تغير حالة البلاد من خلال التشجيع على التجارة والزراعة والصناعة وأخذوا يبذلون المال في كل اتجاه، ويغشون به أعين

١- العقد الفريد جـ ١ صـ ١٥ دار الكتب العلمية لبنان.

الناس ، ويعمون به آذانهـم ، حتـى ينشـغلوا بالعطـاء مـن النظـر في الأحـوال السياسية حتى إن أبو جهم مدح معاوية قائلًا:

ونغضـــبه لتخـــبر حالتيـــه　　　فنخـبر مـنهما كرمًـا ولينًـا

نميـــل عـــلى جوانبـــه كانـــا　　　نميـل إذا نميـل عـلى أبينـا

٦. **الثقافة:** شجع الأمويون المتأبين على العلوم المختلفة من ثقافة وعلوم متنوعة أما الأدب فقد حظى بالنصيب الأوفر من الاهتمام فقد كـان هنـاك مجـالس العلـم والأدب التي غصت بالعلماء والرواة للعربية والشعر، وعظمت رحلة الرواة إلى البوادي للسماع عن الأعراب، والأخذ منهم حتى يضمنوا سلامة اللغة وبقاءها واستمراريتها وهذا بدأ مع التعصب للغة العربية وها هو عبدالملك بـن مـروان يقيم المجالس الأدبية تمتعًا بالأدب والأدبـاء ففـي أحـد مجـالس عبـدالملك بـن مروان يدخل عليه أعرابي من "عذره" تبدو عليه مخايل العقل والفطنـة فيدنيـه الخليفة ويسأله قائلًا:

الخليفة: ألك معرفة بالشعر؟
الأعرابي: سلني عما بدالك يا أمير المؤمنين؟
الخليفة: أي بيت قالته العرب أمدح؟
الأعرابي: قول جرير:

ألستم خير مـن ركـب المطايـا　　　وأنـدى العـالمين بطـون راح

الخليفة: وأي بيت تقوله العرب أغزل؟
الأعرابي: قول جرير

إن العيون التـي في طرفهـا حـور　　　قتلننـــا ثـــم لم يحيـــين قتلانـــا

الخليفة: فأي بيت أفخر؟
الإعرابي: قول جرير

**إذا غضبت عليلـك بنـو تمـيم		حسبت الناس كلهم غضـابا**

الخليفة: فأيها أهجى؟

الإعرابي: قول جرير

**فغض الطرف فإنك من نمـبر		فـلا كعبًـا بلغـت ولا كلابـا**

الخليفة : فأي بيت أحسن تشبيهًا؟

الإعرابي: قول جرير:

**سرى نحوهم ليل كأن نجومه		قناديل فـيهن الـذبال المفتـل**

وكان الشاعر جرير حاضرًا .. فقال للخليفة ... جائزتي للعذري يا أمير المؤمنين فقال الأمير: لك جائزتك وله مثلها لا تنقص منها شيئًا.

بل إن الملوك أنفسهم كانوا على بينه ومعرفة بالشعر جيده من رديئه فقد مدح ذو الرمة عبد الملك بن مروان قائلًا:

**ما بال عينك منها الماء ينسـكب		كأنها مـن كُـلي مفريـة سرب**

تضايق وظن أنه يلمح إلى ما بعين الخليفة من مرض يستوجب هطول الـدمع منها ؛ فرد على الشاعر قائلًا: بل عينيك أنـت، حيـث تـوهم أنـه عنـاه بخطابـه أو عرض به[1].

فلا شك أن اهتمام الخلفاء بالشعر وتبصرهم به جعل الشـعراء يبـذلون غايـة جهدهم.وعظيم اهتمامهم لنيل جوائزهم واستحسان أشعارهم.

وهناك مدارس أدبية بها ظواهر فنية وجدت في العصر الأمـوي وذاع صـيتها وتناولتها بالدراسة والتحليل منها.

١-في النقد الأدبي د نظمي عبدالبديع صـ ٣٤٣ط ١٩٩٠.

النقائض الشعرية

من الظواهر الفنية العظيمة الأثر التي ظهرت فى العصر الأمـوى " النقـائض الشعرية " وقد ساعد على وجودها إحياء العصبية القبلية:-

فالعصبية القبلية كانت منهجاً متبعاً قبل الإسلام فأبطلها الإسلام ثم عـادت بعد وفاة الإمام علي " إذ أن أهل الكوفة في آخر عهد على كانوا قبائل، فكان الرجـل يخرج من منازل قبيلته، فيمر بمنازل قبيلة أخرى، فينادي باسم قبيلته، يـاللنخع، أو يا كندة، فيتألب عليه فتيان القبيلة التي مر بها فينادون يالتميم أو يالربيعة، ويقبلـون إلى ذلك الصائح فيضربونه، فيمضي إلى قبيلته فيستصرخها فتسـل السـيوف وتثـور الفتنة -كما ورد في شرح نهج البلاغة-

وقد وهن الحس الـديني الـذي وئـد العصـبيات القبليـة في صـدر الإسـلام فاستعادت العصـبيات عنفوانهـا وقوتهـا، وعـادت تعلـو عـلى السـطح اسـتعظاماً وتضاءل إلى جوارها سلطان الدين وسيادته. وقـد سـاعد معاويـة في إذكـاء نارهـا بحرصه على إرضاء أهل الشام وتقريبهم له ورعاية مصالحهم حتى ظل وقتاً طويلاً لا يفرض من بيت المال عطاءً إلا لهم. وقد كان المجتمـع قـد التأمـت أقسـامه بعـد الإسلام، إلا أنه كان إلتئاماً على أوضار سرعان ما حللت هذا الالتئام فتناثر شظايا. وانقضـى عهد الوحدة العربية وتناثر المجتمع تفتينًا فيقال: "إن وفود جند المسلمين قدمت على عمر من جلواء وحلوان وتكريت والموصل وغيرها مـن مـدن العـراق يذكرون له الفـتح والغنـائم ، فلاحـظ إن جـو هـذه المـدن قـد أضر بصـحة جنـد المسلمين، وكان حذيفة ابن اليمان قد كتب إلى عمر في ذلك فأرسـل عمـر إلى سـعد ابن أبي وقاص: إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلـدان وأمـره أن يختـار لهم منزلاً برياً بحرياً، لا يجعل بينه وبينهم بحراً ولا جسراً فاختار سعد موقع الكوفة على مقربة من الحيرة وهي مثلها تقع على الفرات، غير بعيد من الصحراء فاختارت

كل قبيلة مكاناً نزلته وجعلت به خيامها، ثم اتخذوا بيوتهم من البوص، فلما وقع فيها الحريق اتخذوها من اللبن، وكان ذلك سنة ١٥ هـ -كما جاء في مروج الذهب-

وزكى معاوية الفرقة بين القبائل وتبنى سياسة التأليب ،إذ يؤلب البعض على البعض ليضمن ولاء الجميع" مما يدل على أن منهج حشد الحشود للنزاع وسل السيوف للقتال مسلكاً متبعاً آنذاك فعادت إلى الاشتعال العصبية القبلية.

والمعروف أن العصيبة لها حيزاً كبيراً في ذهن أفرادها المنضوين تحت لواءها ، فهي الملاذ عند الخطر وهي المنجى عند وقوع الضر.

فالشاعر يدافع عنها دفاعه عن حياته لأنه إذا تخرمته المصائب لجأ إليها لشد عضده، لذا فهو يجند لسانه لتمجيدها لإشادة بمفاخرها ومآثرها وانتصاراتها ، وإذاعة لحاضرها والتذكير بماضيها ، ولإبراز ما يتمنى لها في مستقبلها ؛ من سيادة القبائل وتزعمها .. يواكب ذلك التنديد بأعدائها والانتقاص من قدرهم وسبهم وإهانتهم. ولا ينسى التنويه على أفرادها المميزين الذين آتوا أعمالاً فخراً لها وقيدوا في جيد الزمان اسمها باق خالد، وهنا نجد الشاعر ككتلة شعورية متأثرة تواري خلف الترنم بأمجاد القبيلة إذا هي محور شعره وباعثه وخدمة قصده وغايته.

وهناك شعر يشارك في بعض الخصائص الشعر الباعث على العصبيات: وهو الشعر السياسي، وإن كان في الشعر السياسي مندوحة للفرد ليعبر عن رأيه وسبب اعتناقه هذا المذهب دون غيره من المذاهب ، بل قد يمتد ذلك إلى مس هجوم على المذاهب الأخرى لكن في المطلق هناك عفاف لساني وترشيد في العبارة فلاتفلت ولا تجاوز، بعكس المسلك الهجائي في العصبيات القبلية إذ تتسم بالشطط والإيغال في الهجوم بل قد نقف "على غير قليل من المعاني والعبارات التي تخدش الحياء وتنافي الفضيلة وقيم الأخلاق والدين ، وفيها إفحاش وغلو في هتك الحرمات ونهش

الأعراض والتصريح بالمخازي مما يضطر الباحث إلىالإمساك لسانه عن روايته وترديد نصوصه".(١)

جذور النقائض:

تعد النقائض امتداداً للنوع نفسه الذي وجد في الشعر الجاهلي فهي وإن كانت تسير على ركيزتين الفخر والهجاء إلا أنها تنضوي أيضاً على ذكر الأيام الماضية وما حدث فيها وما أُبلو وما أَبلو باعثاً الفكر الجاهلي من مرقده بكل قيمه الخلقية وعصبياته القبلية وهو هنا يتخطى الأنوار الإسلامية التي ضوءت المجتمع، ويأووب إلى ظلام الجاهلية بعد أن تلألأ نور الإسلام وانكشفت العصبية إبان وجود رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خليفتيه اللذان استطاعا سل سخيمة العداوة وإقرار الإخاء والمودة على رغم وجود مناوئين باثين لسمومهم كما قال الحطيئة.

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكر

أيورثها بكراً إذا مات، بعده فتلك، وبيت الله، قاصمة الظهر

وقد صاحب الشعر ذلك منذ البداية فنجد الشاعر الأموي قد استجلب الأفكار والمعاني والأخيلة من الشعر الجاهلي مع اكساءها رداءً أموياً من الحدث والصور، يقول عبيد الأبرص:

يا أيها السائل عن مجدنا إنك عن مسعاتنا جاهل

إن كنت لم تأتك أيامنا فأسأل تنبأ أيها السائل

قومي بنو دودان أهل النهي يوماً إذا ألقحت الحائل

١- اتجاهات الشعر في العصر الأموي، د صلاح الدين الهادي مكتبة الخازندار صـ٦١ .

كـم فـيهم مـن سـيد أيـد ذي نفحــات قائـــل فاعـــل

لا يحـرم السـائل إن جـاءه ولا يُعفـــى ســيبه العـــاذل

والطاعن الطعنة يوم الـوغي يـذهل منهـا البطـل الباسـل

وقد يأخذ الشاعر الأموي المعاني نفسها من الشاعر الجاهلي.

أغار عمير بن الحباب على كلب واليمنية فنهب وقتل، فعبأ ابن بجدل الكلبي قومه وهزم عمير، في بني نمير وغيرهم من القيسية، وتعرف هذه الموقعة بـ (يوم دهمان)، وقال في ذلك الشاعر اليمني منذر بن حسان:

وباديـة الجـواعر مـن نمـير تنـادي وهـي سـافرة النقـاب

تنـــادي بـــالجزيرة يـــالقيس وقـيس بـئس فتيـان الضرـاب

قتلنـا مـنهم مـائتين صـبراً وألفـــاً بـــالتلاع وبـــالروابي

وأفلتنـا هجـين بنـي سـليم يُفَدّى المُهْرَ مـن حـب الإيـاب

فلـــولا الله والمهـــرُ المُفَـــدَّى لَغُـودِرَ وهـو غِرْبَـالُ الإهـاب

يهجو الشاعر قيساً بالجبن والقعود عن نجدة بني قومهم، ويفخر بـما أصـابه قومه من أعدائهم، ويسجل على قائد القيسية عمير عار الفرار من المعركة، وأنـه مـا كان ينجو لولا فراره ، وهذه الأبيات كسابقتها، تتحدث عن معانٍ جاهلية بأسلوب جاهلي، ولن نخدع بذكر الله في البيت الأخير؛ فطالما تـردد لفـظ الجلالـة في أشـعار الجاهلين، من ذلك قول عبد يغوث بن الحارث في يوم الكُلَاب الثاني، وهو من أيام العرب في الجاهلية.

جزى الله قومي بـالكُلاب ملامـة صريحهـم والآخـرين المَوَاليـا

فالشـاعر في الناقضـة يعتمـد عـلى مقالـة الشـاعر المنقـوض تفنيـداً ونقـداً ، فالقصيدة الأولى تسمى منقوضة والثانية تسمى ناقضـة ونظـراً لطـول القصـائد في الهجاء والفخر، نجد الشاعر تبنـي ظـاهره الاستقصـاء والتكـرار إذ يكـرر المعـاني بألفاظ مختلفة بعد أن فرغت جعبته ينثني مجترأ ما سبق لاكهـا مثبتـا مهـارة لغويـة، ومقدرة على اصطياد التراكيب، وتأليفها وإن تخلى عنه التجديد إلا أن طرافة العبارة وبهائها أفادته وصاحبته يقول الفرزدق مفتخراً بقومه:-

ومـا أحـد إذا الأقـوم عـدوا عـروق الأكـرمين إلى الـتراب

بمحتفظـين إن فضـلتمونا عليهم في القـديم ولا غضـاب

لو رفع السحاب إليـه قومـاً علونـا في السـماء إلى السـحابا

يفخر بآبائه وأجداده الكرام، وبقديم قومـه في المجـد، وعلـو منـزلتهم فـوق الناس جميعاً. ويكرر هذه المعاني في عبارات أخرى مخاطباً جريراً:

بـأي أب يـاابن المراغـة تبتغـي رهـاني إلى غايـات عمـو خاليـا

هلـم أبـا كـابني عقـال تعـده وواديهـما يـا ابـن المراغـة واديـا

تجـد فرعـه عنـد السـماء ودارم من المجد منه اترعت لي الجوابيا

بنى لي به الشيخان من آل دارم بنـاء يـرى عنـد المجـرة عاليـا

واللغة : وان كانت جزلة قويـة إذ مـا كانـت اللغـة في العصرـ الجـاهلي إبـان فصاحتها وعنفوانهاً ، إلا أن ألفاظاً من القرآن الكريم قد تسربـت إليهـا لـيس عنـد الشعراء المسلمين فقط بل تخطتهم إلى الأخطل المسيحي يقول:

إذا ما قلت قـد صـالحت بكـرا أبي البغضاء لا النسب البعيـد

وأيـــام لنـــا ولهـــم طـــوال يعـض الهـام فـيهن الحديـد

همـــا اخـــوان يصـــطليان نـــاراً رداء المـــوت بيـــنهما جديـــد

فالقصيدة سارت مسار الشعر الجاهلي من الغـزل ثـم وصـفت الراحلـة ثـم الدخول إلى الغرض الأساسي.

النقائض في عصر صدر الإسلام

اتسمت النقائض في صدر الإسلام بالصبغة الإسلامية ، ودارت في فلك الدفع عن الدين الإسلامي، ومهاجمة المشركين ومايتفرع من هذا المعنى ؛ من الفخر بالصحابة وأفعالهم ومعايرة المشركين بسوء أفعالهم.

وتعد النقائض في صدر الإسلام امتداداً للنقائض الجاهلية وإن كان ثمة اختلافاً في الغرض والأسلوب والعبارات.

فالنقائض في ظل الإسلام اتسع دورها من الدفع عن القبيلة إلى الدفع عن العقيدة ، والحياة المستقيمة ، الدفع عن مبادئ إنسانية تقود الإنسان وتنهض به رقياً إلى الحياة الصحيحة.، والأسلوب تنوع فالقصائد تراوحت بين الجزالة والوهن ، فالشعراء دُفِعوا لطرق باباً جديداً لم يعرفوه ومنهاجاً لم يألفوه فحتاجوا مراناً ودربةٍ كي يجيدوا المعاني والعبارات التي تأثرت في الأسلوب ؛ ثم شهدت تجديداً واضحاً إذ تسربت إليها الألفاظ والمعاني الإسلامية إذ دارت في فلك الكفر – الإيمان – البعث– الثواب– العقاب، وظهر ذلك جليا في نقائض عبدالله بن رواحه ، وكعب ابن مالك ، وشعراء المشركين ودارت قصائدهم حول الدفع عن نظم الحياة التي يحيونها وكلاهما خلا من الفحش والإسفاف.

قال عبدالله بن الزبعري يثني على قريش واحلافها يوم الخندق:

حي الديار محا معارف رسمها ... طول البلى وتراوح الأحقاب

فكأنما كتب اليهود رسومها ... إلا الكنيف ومعقد الأطناب

قفراً كأنك لم تكن تلهو بها ... في نعمة بأوانس أتراب

فاترك تذكر ما مضي من عيشة ... ومحلة خلق المقام يباب

واذكر بلاء معاشر واشكرهم … ساروا بأجمعهم من الأنصاب

أنصاب مكة عامدين ليثرب … في ذي غياطل جحفل جبجاب

حتى إذا وردوا المدينة وارتدوا … للموت كل مجَّرب قضّاب

شهر وشهراً قاهرين محمداً … وصحابه في الحرب خير صحاب

نادوا برحلتهم صبيحة قلتم … كدنا نكون بها مع الخُيّاب

لولا الخنادق غادروا من جمعهم … قتلى لطير سُغَّبٍ وذئاب

فابن الزبعري يقص خروج قريش وأحلافها من مكة، في جيش كثيف على رأسه قائدان عظيمان: عيينة بن حصن الفزاري على الأحلاف وأبوسفيان بن حرب القائد الأعلى للأحزاب، وكيف حاصرت الأحزاب المدينة أربعين يوماً، وأنزلت الرعب في قلوب أهلها، وأنه لولا الخندق لألحقوا الهزيمة النكراء بالمسلمين.

ونهض حسان بن ثابت للرد عليه بقصيدة، منها قوله:

هل رسم دراسة المقام يَبابِ … متكلم لُمحاور بجواب

قفر عفارِهَمُ السحاب رسومه … وهبوب كل مُطِلَّةً مِرْباب

ولقد رأيت بها الحُلولَ يزينهم … بيض الوجوه ثواقَب الأحساب

فدع الديار وذكر كل خريدة … بيضاء آنسة الحديث كعاب

وأشك الهموم إلى الإله وماترى … من معشر ظلموا الرسول غضاب

ساروا بأجمعهم إليه وألَّبوُا … أهل القرى وبوادىّ الأعراب

جيش عيينة وابن حرب فيهم … متخمطين بحلية الأحزاب

حتـــى إذا وردوا المدينـــة وارتجـــوا   قتـــل النبـــي ومغـــنم الأســـلاب
وغـــدوا علينـــا قـــادرين بأيـــدهم   ردوا بغـــيظهم عـــلى الأعقـــاب
فكفـــى الإلـــه المـــؤمنين قتـــالهم   وأثـــابهم في الأجـــر خـــير ثـــواب

وحسّان ينظر في البيتين الأخيرين إلى بعض آي القرآن الكـريم، ومنهـا قولـه تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ .....﴾[سورة الأحزاب: الآيـة ٢٥]؛ ومـع ذلـك فهـو جـاهلي المطلـع كـما هـو واضح.

-تعريف النقائض:

النقائض: جمع نقيضة، وهي في معجمات اللغة، مأخوذة من النقض في البنـاء وهو الهدم، وفي الحبل بمعنى حلُّه، وفي العهد، بمعنى عدم إبرامه، وقيـل: الـنقض: ضد الإبرام، ويكون في البناء والحبل والعهد، قالوا: والمناقضة في القول: أن يـتكلم بما يتناقض معناه، أي يتخالف، وناقضه في الشيء مناقضة ونقضاء: خالفه.

فالشاعر الأول يفتخر بنفسه ويهجو شاعراً آخر فيأتي المعنى ينسـف مـا قالـه الأول من معاني وصور ويزيد فخراً وهجاء قاصداً (أن يفسـد عـلى الأول معانيـه، فيردها عليه، إن كانت هجاء، ويزيد عليها مما يعرفـه أو يخترعـه، وأن كانـت فخـراً كذبه فيها، أو فسرها لصالحه هو، أو وضع إزاءها مفاخر لنفسه وقومه).

وقد يسعى الشاعر في هجاء الشاعر الأول ، ويتشعب فخره فيصـبح الشـعر فخر مقابل فخر وهجاءً مقابل هجاء وتكن بإزاء نقيضتان الأولى بمعنى منقوضـة ، والثانية بمعني ناقضة، فكل منها يطلق عليها نقيضة متى التـزم الـوزن ، والقافيـة، والموضوع، ولا تخفى الحرية التي يتمتع بها الشاعر الأول وقدرتـه عـلى الاحتشـاد الانفعالي بعكس الشاعر الناقض فهو محجم بالموضـوع، وقدراتـه الفنيـة واللغويـة

محددة بالوزن والقافية ، المفروضة عليه سلفاً ، ونلاحظ أن الأول أطول نفساً ، وأجود معنى ، وأقوى أسلوباً ، وقد يكون طرفان للنقائض أو أكثر كما ناقض جرير ستة عشر شاعراً ، ومن قبله ناقض حسان شعراء المشركين ، ونجد أن ضوابط التماثل في النقائض تدور في فلك أربع أضلاع.

أضلاع النقائض:

١. وحدة الموضوع فالشاعر الناقض يلتزم الموضوع الذي فرضه عليه الشاعر المنقوض فخراً أو هجاءً أو مذهباً شعرياً أو عاطفة شعورية من غزل أو رثاء فلابد من تماثل الموضوع.
٢. وحدة القافية: يجب التزام القافية التي ارتضاها الشاعر المنقوض واختارها تتمة لوزنه .. فالقافية تظهر بعض من براعة الشاعر وقدرته الفنية وبها ينهي النفس النغمي الذي ارتضاه والتزمه للتناقض.
٣. البحر العروضي: يجب على الناقض أن يلتزم البحر الذي ارتضاه المنقوض ويحاول أن يبدع فيه ويتفوق عليه. فالشاعر المنقوض يقع عليه وحده.. الموسيقى – الطويل – البسيط – الكامل التي تستوعب آراءه وأفكاره فيصبها فيه نغماً مرناً وعلى الناقض أن يلتزمه ولا يحيد عنه بل يفوقه إبداعاً ونظماً.
٤. نقض المعنى وهو عماد النقائض ومحورها الذي تقوم عليه.

فالشاعر الأول يثبت لنفسه ولقبيله المزايا والسمات ، ويجرد الآخرين منها ، وينسب لهم خسيس الفعال ووضيع التصرفات ، فيأتي الشاعر الناقض فيعكس ذلك المعنى ويفسد ذلك المقصد ، فينسب للأول خسيس الفعال ، ويجرده من المزايا وجميل الخصال، فحين قتل وكيع بن حسان التميمي قتيبه بن مسلم الباهلي القيسي؛ قال الفرزدق:

فدى لسيوف مـن تمـيم وفيَّ بهـا ... ردائي وجلُت عن وجوه الأهاتم

شفين حزازات النفوس ولم تدع ... علينـا مقـالاً فـوى وفـاء للائـم

أبنـا بهـم قـتلى ومـا في دمـائهم ... وفـاءً وهـن الشـافيات الحـوائم

وقد يأخذ نقض المعاني أوجهاً أخر مثل أن يكذب الشاعر في نقيضته ما ذكره الشاعر صاحب المنقوضة كما فعل العباس بن يزيد الكندي.

حينما هجا جرير الراعي النميري، في قصيدته التي مطلعها:

أقـلِيَ اللـوم عـاذل والعتابـا ... وقولي إن أصبت لقـد أصـابا

والتي يقول فيها:

إذا غضـبت عليـك بنـو تمـيم ... حسبت الناس كلهـم غِضَـابا

فقد رد عليه العباس، مكذباً هذا المعنى، قائلاً:

لقـد رغمـت أنـوف بنـي تميم ... فسُاة التمـر أن كـانوا غضـابا

لقـد غصبت عليـك بنـو تميم ... فـما نكـأت بغضـبتها ذُبابـا

وهناك مخالفة التقدير والتوضيح فقد يعمد الشاعر إلى حدث أو موقف فيصوغه مفاخراً متباهياً ، فيأتي الآخر يخالفه في تفسيره للحدث قالباً له من المفاخرة إلى المعايرة ، فجرير يفخر بقيس عيلان، ويراها جديرة بالثناء فعليها المعول في النصرة، والدفاع عن الحوزة، والحفاظ على الأمجاد، كما يفخر بقومه بني يربوع، ويراهم حماة تميم، في قوله:

وإني مـن القـوم الـذين تعـدهم ... تمـيم حمـاة المـأزق المـتلاحم

وقوله:

وقيس هم الفضل الذي نستعده لفضل المساعي وابتناء المكارم
إذا حدبت قيس على وخندف بنوا لي عادياً رفيع الدعائم
وقيس هم الكهف الذي نستعده لدفع الأعادي أو لحمل العظائم

فيتصدى له الفرزدق مفسراً موقفه من قيس بأنه موقف الدعيّ المرتزق، الذي يتنكر لقومه، في سبيل نهزة يصيبها أو كسب تافه يلقى إليه به، فيفقد بذلك انتماءه لقومه، ولا يلحق انتماءً بالآخرين:

فما أنت من قيس دُونها ولا من تميم في الرءوس الأعاظم
وإنك إذ تهجو تميماً وترتشي تبابين قيس أو سحاق العمائم
كمهريق ماء بالفلاة وغره سراب أثارته رياح السمائم
أنا ابن تميم والمحامي وراءها إذ أسلم الجاني ذمار المحارم
أدرسان قيس لا أبا لك تشتري بأعراض قوم هم بناة المكارم

ومن طرق مناقضة المعاني إظهار الإدعاء والكذب فيها، كالذي فعله العباس بن يزيد الكندي.

وقد يفخر الشاعر بموقف ما فيأتي الآخر ويفخر بموقف مقابل له عزة وفخراً.

وقد التزم الشعراء الأمويين تلك القواعد في النقائض وبدت جلية في أشعارهم مما يدل على وعيهم بالقواعد والضوابط اللازمة للمناقضة في العصر

الأموي يقول عقال بن هاشم مناقضاً ابن ميادة فيما كان بين اليمن ومُضر من ملاحاة أيام الوليد بن يزيد، إذ قال ابن ميادة:

فجرنا ينابيع الكلام وبحره ... فأصبح فيه ذو الرواية يسبح
وما الشعر إلا شعر قيس وخندف ... وقول سواهم كُلفة وتملح

فرد عليه عقال قائلاً:

ألا أبلغ الرماح نقض مقال بها ... خطل الرماح أو كان يمزح
لئن كان في قيس وخندف ألسن ... طوال وشعر سائر ليس يُقدح

وحين قتل وكيع بن حسان التميمي، قتيبة بن مسلم الباهلي القيسي، قال الفرزدق، مفتخراً:

فدى لسيوفد من تميم وفي بها ... ردائي وجلَّت عن وجه الأهاتم
شَفَيْن حزازات النفوس ولم تدَعْ ... علينا مقالا في وفاء للآئم
أبانا بهم قتلى وما في دمائهم ... وفاء وهُنَّ الشافيات الحوائم

تصدى جرير لهذا الفخر، فجرد الفرزدق من حق الافتخار بهذا المعنى، لأن وكيعا ليس من بني مجاشع، قال:

فغيرك أدَّ للخليفة عهده ... وغيرك جلَّى عن وجوه الأهاتم
فإن وكيعاً حين خارت مُجاشع ... كفى شعب صَدْعِ الفتنة المتفاقم
لقد كنت فيها يا فرزدق تابعاً ... وريش الذنابي تابع للقوادم

فالنقائض في العصر الأموي قد استقرت وتطورت وبان لها شكلاً فنياً محدداً وملتزماً ، لا مجال للخروج أو الحيدة عنه ساعد على ذلك أن طغى على السطح

الصراع السياسي واتكأ كل حزب على شعرائه يدافعون ويتفاخرون، ويصوبون إلى غيرهم سهامهم ،حاشدين التدفق الشعوري والإرث الثقافي .

موقف النقاد من النقائض

كان كثير من المعاصرين يدركون أن تلك الإحن فنية شكلية لإثبات الجدارة والاقتدار حتى الولاة كان يطيب لهم اجتماعهما.

وولاة العراق كانوا على إدراك لهذه الحقيقة في العلاقة بين الشاعرين،الكبيرين ؛ ذلك أن الحجاج بن يوسف الثقفي، والي العراق يطلب إليهما أن يمثلا بين يديه تمثيلية الهجاء والفخر (المناقضة) على أن يلبس كل منهما ملابس آبائه في الجاهلية، فيأتي الفرزدق وقد لبس الديباج والخز، وقعد في قبة، وشاور جرير دهاة بني يربوع، فقالوا له: ما لباس آبائنا إلا الحديد؛ فلبس جرير درعا وتقلد سيفا وأخذ رمحا وركب فرسا وأقبل في أربعين فارساً من بني يربوع، وجاء الفرزدق في هيبته التي ذكرنا وبدأ الفرزدق هذه الملهاة بقوله:

وإن كليبا إذ أتتني بعبدها ... كمن غره حتى رأى الموت باطله

رجوا أن يردوا عن جرير بدرعه ... نوافذ ما أرمى وما أنا قائله

عجبت لراعي الضأن في حُطمية ... وفي الدرع عبد قد أصيبت مقاتله

وهل تلبس الحبلى السلاح وبطنها ... إذا انتطقت عبء عليها تعادله

فأجابه جرير بنفس الروح الساخرة، قائلاً:

لبست أداتي والفرزدق لعب ... عليه وشاحاً كُرَّجٍ وجلاجلُه

أعدوا مع الحلى الملاب فإنما ... جرير لكم بعل وأنتم حلائله

وأعطوا كما أعطت عوان حليلها ... أقرت لبعل بعد بعل تراسله

أمن سفه الأحلام جاءوا بقردهم   إليَّ وما قرد لقرم يصاوله؟!

ففي هذه المناقضة هجاء وفخر هزلي مضحك، وفيما تركنا من قصيدتي الشاعرين فحش وإسفاف وسباب وتصريح بما يقبح ذكره، ومع ذلك فالموقف أشبه بتمثيلة هزلية -كما نرى-

ونلاحظ حرص كل شاعر على اصطياد الصورة التي تثبت تفوقه وريادته، ومن ثم فالنقائض تعكس ثقافة وعقلية الشاعر وثقافة العصر. وذلك العصر شاع فيه المناظرات والحوار المعقد وحاكت الأسلوب وطريقة علماء عصرهم في معالجة القضايا العقلية والأدبية، لذا نجد الشاعر يتبع قصيدة ويستقصي كل الجزيئات التي تضمن له الغلبة والتفوق والتميز الفني ، وقد ظلا بينما يتهاجيان نيفاً وأربعين سنة لم يغلب احدهما الآخر وإنما اكتملت النقائض فنياً وتمت صنعاً وكثرت عدداً.

ويلاحظ أن النقيضتين لهما سمات غالبة بل أن سماتهما عدت من ضوابط فن النقائض بعد مرور العصور:

١. طول النقائض إذ عد الطول ميزة عند نقدة الشعر وقضاته في ذلك العصر، لذا طالت النقيضة الأموية عنها في الجاهلية وصدر الإسلام وقد تطول النقيضة المنقوضة لأن صاحبها أطول نفساً لاختياره الوزن والقافية من القصيدة الناقضة.
٢. رصد معظم الأبيات للفخر بالقبيلة والهجوم على القبيلة الأخرى وفضح خزاياها فالشاعر ليس منبتاً عن قبيلته بل يفاخر ويشجب في إطار قبيلته ، والغرض الفني هو الذي حكم ذلك إذا أن الإطار العام قبلي والفخر الذاتي يعد في إطار الفخر القبلي.

فجرير بعد أن يسرد مفاخر قومه، يحرص على ربطها بشخصه، فيقول مخاطباً الفرزدق:

إني ندبت فوراسي وفعالهم   وندبت شرَّ فوارس وفعال

وحتى يوم انتصار القبيلة يجعل منه يوم مجدله، ويوم خـذلان قبيلـة صـاحبه مقصة لخصمه، ويقول جرير:

أحسبت يومك بالوقيظ كيومنا يـوم الغبـيط بقلـة الأدحـال

ويشيد بأخواله، ثم يقول للفرزدق:

جئني بخالك يـا فـرزدق واعلمـن أن ليس خالـك بالغـا أخـوالي

وبالمثل يعدد الفرزدق أمجاد مجاشع ودارم، وأيامهما الغراء في تاريخ المفاخر. ويجعل من ذلك بناء له، ومجا له، ومفاخرة يعلو بها على صاحبه، ويمتاز:

أني بنـــي لي دارم عاديـــة في المجد لـيس أرومهـا بمـزال

١. تظهر روح السخرية في الصورة والمعاني عـلى السـواء ولا سـيما عنـد جرير إذ ركز جرير عـلى صـورة القيـون في حديثـه عـن الفـرزدق في الكلام عن عطية والد جرير وأتانه وصحبته إياه.
٢. لا يتوارى الشاعران عن الفحش والغرق في الكـلام المسـتهجن فـلا يلجأ إلى تلميح أو يمسا التورية وإنما في أشـعارهما تصريـح وكشـف للمحارم ومعايرة بالنساء والرجال على السواء.
٣. ظهـرت السـمة الإسـلامية في النقـائض إذ كثـير مـا استشـهد أحـد الشاعرين بآيات قرآنية ثم نثرهـا في شـعره ولا سـيما الفـرزدق كـان جريئاً في حديثه عن مغامراته فنظر له جرير نظرت المملوز في دينه.

ولجرير أيضاً بعض المعاني الإسلامية في نقائضه مع الفرزدق، تدل على ثقافـة إسلامية، وبصـر بالمعاني القرآنية، من ذلك قوله في الفرزدق:

وشـبهت نفسـك أشـقى ثمـود فقـــالوا ضـــللت ولم تهتـــد

فهو يشير إلى قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ١٢ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا﴾[سورة الشمس: الآية١١ - ١٤].

ومنه قوله:

ألا قبح الله الفرزدق كلما أهل مُصل للصلاة وكبرا

فلا يقربن المروتين ولا الصفا ولا مسجد الله الحرام المطهرا

فإنك لو تعطي الفرزدق درهما على دين نصرانية لتنصرا

فهذا اتهام صريح برقة الدين، وإهمال الطاعات، والفرائض الدينية. والمادة الإسلامية قليلة في نقائض الفرزدق، وهي على قلتها ذات دلالة على وعيه بالثقافة الإسلامية، وبآراء الفقهاء، من ذلك قوله السابق في نقيضته التي قالها وهو بالمدينة:

فلست بمأخوذ بلغو نقوله إذا لم تعمد عاقدات العزائم

فهذا المعنى مستمد من قول الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ ....﴾[سورة المائدة: الآية ٨٩] ثم قوله في القصيدة نفسها:

كما بعث النبي محمداً على فترة والناس مثل البهائم

ينظر فيه إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ ....﴾[سورة المائدة: الآية ١٩]

وله مخاطباً جرير:

فإنك من هجاء بني نمير كأهل النار إذ وجدوا العذابا

رجوا من حرها أن يستريحوا وكان الصديد لهم شرابا

ووفي جزاء الظالمين يقول الحق تبارك وتعالى:﴿.. إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ .. ﴾[سورة الكهف: الآية ٢٩]

فهذا أصل معنى الفرزدق، فالثقافة القرآنية واضحة في هذه المعاني، وأمثالها في نقائض كل من جرير والفرزدق، ولا نشك في أنهما كانا يستمدان من القرآن، فالفرزدق يصرح بما يدل على هذا الاستمداد؛ في لاميته الشهيرة، التي مطلعها:

إن الذي سمك السماء بنا لنا   بيتا من العز دعائمه أعز وأطول

حيث يقارن بين عز بيته، وهوان بيت جرير وضعفه، ويشبه في هذا المقام بيت جرير بيت العنكبوت، الذي تحدث عنه القرآن في قوله تعالى:﴿..وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾[سورة العنكبوت: الآية ٤١].

قال جرير:

ضربت عليك العنكبوت بنسجها   وقضى عليك به الكتاب المنزل

يضاف إلى هذه المصطلحات الإسلامية الكثيرة، الواردة في النقائض، وبخاصة نقائض جرير، الذي كان أكثر تأثراً بروح الإسلام في سلوكه وشعره، من الفرزدق. قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: كان جرير ديناً عفيفاً، وكان الفرزدق يقول ما أحوج جرير مع عفافه إلى صلابة شعري، وأحوجني مع شهوتي إلى رقة شعره، والتقيا يوماً في موسم الحج بمنى، فقال الفرزدق لجرير:

فإنك لاق بالمنازل من منى   فخارا فخبرني بمن أنت فاخر

فقال جرير: لبيك اللهم لبيك.

كان جرير بلاء على من تجرأ عليه؛ ولذا كان الفرزدق يخور ويجزع إذا أنشد جرير خوفاً من هجائه.

أما الفرزدق فقد ذهب بالفخر لما هيئ له من طبع قوي وحسب فخم يشتق منه المعاني ، وغنى عريض ومفاخر شتى استخدمها عناداً مكيناً وأسلوباً جزلاً وكان سمته في النقائض.الفحش في هجاء جرير فحشا فنياً لا في مسلكه ولا في فكره إنما لهج به لسانه لفصاحته وقدرته على غلبة الآخرين فلم يجتمع أحد على هجاء أحد كما اجتمع الشعراء على هجاء جرير واستطاع غلبهم.

وقد صور مروان بن أبي حفصة موازنة بين الفرزدق والأخطل.

ذهب الفرزدق بالفخار روائجا حلو الكلام ومره لجرير

ولقد هجا فأمض أخطل تغلب وحوى...... بمديحه المشهور

ومع أن النقائض الجاهلية، والإسلامية الأولى، لم تخل من الملاحاة والجدل؛ إذ كان هذا أصلاً من أصول المناقضة، كما عرفنا في تفسير معني المناقضة، فإنه لم يبلغ فيها من الدقة والتتبع والتربص مبلغه في هذه النقائض الأموية، للرقي العقلي والتأثر الثقافي، ولعنف التنافس، وعناية النقاد، والعلماء بالشعر، وجمهور الناس بهذا الفن، وارتقابهم الفانز فيه، فقد كان هؤلاء الفحول يشغلون الحياة الأموية، بما يطيرون من مفاخر وأهاج، والعالم من حولهم يستمع إليهم ما بين معجب مصفق مشجع، وساخط ناقم مزور، وراضٍ بمتعة هذا الفن، متأمل عبقرية الشعر فيه، والأمر كله متأثر بهذه النزعات، والقبائل محتفية بما يضفى عليها فن هؤلاء من بُعد الصيت، أو ناقمة لما ألصقه بها من ضعة وهوان شأن، والنقائض في خضم هذا كله مدرسة للنقد، وصحف للعصر، تدفعها الحياة الأدبية، وتياراتها النقدية، ومقاييسها الفنية إلى التجويد والافتتان واستغلال كل معطيات الثقافة العصرية المتاحة، للبلوغ إلى ما لم تصل إليه نظائرهم في العصرين السابقين.

ومن النقائض المهمة التي نالت شهرة لامية جرير والفرزدق:

إن الذي سـمك السـماء بنـا لنـا   بيتـا دعائمـه أعـز وأطـول
بيتا بنـاه لنـا المليـك، ومـا بنـى   حكـم السـماء فإنـه لا ينقـل
بيتـا زراه محتـب بفنائـه   ومجاشع وأبو الفـوارس نهشـل
يلجون بيت مجاشع وإذا احتبـوا   بـرزوا كـأنهم الجبـال المثـل
لا يحتبـي بفنـاء بيتـك مـثلهم   أبـد إذا عـد الفعـال، الأفضـل

فينقض جرير هذا القول بقوله مردداً كثيراً من ألفاظه:

أخزى الـذي سـمك السـماء مجاشـعا   وبنى بناءك في الحضـيض الأسـفل
بيتـا يحمـم قيـنكم بفنائـه   دنسـا مقاعـده خبيـث المـدخل
إن الـذي سـمك السـماء بنـا لنـا   عـزا عـلاك فـما لـه مـن منقـل

ويسخر جرير من حديث الفرزدق عمن يحتبي بفناء بيتهم من سادة وينقضه فيقول:

قتل الـزبير وأنـت عاقـد حبـوة   تبـا لحبوتـك التـي لم تحلـل

ويقول الفرزذق:

أحلامنـا تـزن الجبـال رزانـة   وتخالنـا جنـا إذا مـا تجهـل

فيرد جرير بقوله:

أحلامنـا تـزن الجبـال رزانـة   ويفـوق جاهلنـا فعـال الجهـل

أبلــغ بنــي وقيــان أن حلــومهم خفت فلا يَزنُــون حبــة خــردل

ويفخر الفرزدق فيقول:

وإذا دعــوت بنــي فُقَيْمِ جــاءني مجــر لــه العــدد الــذي لا يعــدل

فيجيبه جرير بقوله:

وإذا دعــوت بــني فُقَــيْمِ جــاءني مجــر لــه العــدد الــذي لا يعــدل

فيجيبه جرير بقوله:

وامــدح ســراة بــني فقــيم إنهــم قتلــوا أبــاك، وثــاره لم يُقتــل

ونجد أن جريرًا دائماً ما يؤكد على معــايرة الفــرزدق ، لإن أحــد أجــداده كــان حداداً ويصور تلك المهنة صوراً ساخرة.

وقد رأى البعض أن النقائض نزاعــاً كلامياً ، أو مبــارزة اقتــدار لغــوي فكــل شاعر يحشد ثقافته ومعرفته وخبرته ولسانه اللاذع لتجريد الأخر، وهَــدّ بنيانــه وتقويضه ، ولم تك أبداً منبعاً لخصومة مستديمة أو لعداء لدد بــدليل أن جريًــرا قد رثى الفرزدق وأبان خسارة قبيلة تميم بفقده حين قال:

لعمري قــد أشــجى تميــماً وهــدها على نكبت الــدهر مــوت الفــرزدق

فلو كانت الخصومة قلبية صدرية ما حزن لفراقــه ومــا رثــاه ، بــل أن الألفــاظ والصور الهجائية المبثوثة داخل النقائض قد تستوجب إقامة الحدود لو أخــذت على محمل الجد، ممــا يؤكــد أن القــائلين والســامعين كــانوا يؤطرونهــا في إطــار المراشقة الكلامية ، إذ كل شاعر يحاول أن يتفوق على الآخر وينفي ما يدعيه ويكأن الشاعر يبغي ترسيخ اسم المهجو وإرساءه في ذهــن المتلقــى مــن خــلال التكرار الملح.

يقول جرير:

إذا علقـــت مخالبـــه بقـــرن أصـاب القلـب أو هتـك الحجابـا
ولـو وضـعت لقـاح بنـي نمـير عـلى خبـث الحديـد إذن لـذابا
فــلا صـلى الإلــه عــلى نمــير ولا سـقيت قبـورهم السـحابا
المغــابن وخضرــاء مــن نمــير يشـين سـواد محجرهـا النقابـا
إذا قامــت لغـير صــلاة وتــر بعيـد النـوم، أنبحـت الكلابـا
تطــلى وهــي ســيئة المعــرى بصـن الـوبر، تحسـبه ملابـا
وقــد جلـت نسـاء بنـي نمـير ومـا عرفـت أناملهـا الخضـابا
إذا حلــت نســاء بنــي نمــير عـلى تـبراك خبثـت الترابـا
ولــو وزنــت حلـوم بنـي نمـير عـلى الميـزان مـا وزنـت ذبـاب
فصــبراً يــا تيـوس بنـي نمـير فـإن الحـرب موقـدة شـهابا

ألم نعتــق نســاء بنــي نمــير فــلا شــكرٍ جــزين ولا ثوابـا
أم تــرني صــبيت عــلى عبيـد وقــد فــارت أباجلـه وشـابا
فغض الطـرف إنـك مـن نمـير فــلا كعبـا بلغـت ولا كلابـا
وحـــق لمـــن تكنفـــه نمـــير وضـبة، لا أبـا لـك، أن يعابـا

وحين أجابه الفرزدق استعان هو أيضاً بالتكرار لكي يؤكد مجد بني نمير ويرفع ما دمغهم به جرير من هوان الشأن، ويدمغ بدوره بني كليب قوم جرير فقال:

فإنك من هجاء بني نمير — كأهل النار إذ وجدوا العذابا

رجوا من حرها أن يستريحوا — وقد كان الصديد لهم شرابا

فإن تك عامر أثرت وطابت — فما أثرى أبوك ولا أطابا

ولم ترث الفوارس من نمير — ولا كعبا ورثت ولا كلابا

ولكن قد ورثت بني كليب — حظائرها الخبيثة والزرابا

ومن يختر هوازن، ثم يختر — نمير ان يخير الحسب اللبابا

وإنك قد تركت بني كليب — لكل مناضل غرضا مصابا

كليب دمنة خبُثت وقلّت — أبى الآبي لها إلا سبابا

وتحسب من ملائمها كليب — عليها الناس كلهم غضابا

فأغلق من وراء بني كليب — عطية من مخازي اللؤم بابا

موقف الشعراء من النقائض

اختلف موقف الشعراء الأمويين من النقائض فعلي رغم دفع الخلفاء للحرب الكلامية لإلهاء الناس إشفاقاً لهم من النظر في أمور الحكم باللسان الحرب بالسنان، في ظل وجود جو مشجع إلا أن هناك فئات أعرضت عن خوض غمار هذا النوع الأدبي ، وآثروا الابتعاد وإنما ترجع هذه الكثرة المفرطة

للنقائض لكثرة الشعراء الذين مسوّا هذا الفن وإن لم يكثروا فيه؛ ويمكن القول إن الشعراء صنفان في موقفهم من النقائض:

أ- صنف أفاض فيه عفو الخاطر على مرات متناثرة حينما ألحت الضرورة لكنهم لم يلتزموه في حياتهم أو يتخذوه ركابا وإنما عرضت لهم مواقف فاضطروا إلى تسجيل مواقفهم منها شعراً، فجرت النقائض على ألسنتهم بشكل عام ، لكنه لم يوقفوا إبداعهم عندها ولم يشحذوا لها قرائحهم مثلما فعل هدبة بن خشرنة العذري القضائي، مع زيادة بن زيد الرقاشي العذري وقد وقع خلاف بينابن ميادة المرى، والحكم بن معمر الخضري، وكان سبب ذلك أن الحكم وقف ينشد بمصلى المدينة (موضع في عقيق المدينة) قصيدته في وصف الغيث، فمر به ابن ميادة، فوقف عليه يسمع، حتى انتهى إلى قوله:

يا صاحبي ألم تشيما عاضا نصح الصراد به فهضب المنخر

ركب البلاد وظل ينهض مصعداً نهض المقيد في الدهاس الموقر

فحسده ابن ميادة فقال: أدهشت وأوقرت، لا أم لك، فمن أنت؟ قال: أنا الحكم الخضري قال: ولله ما أنت في بيت نسب ولا أرومة شعر، قال الحكم: قد قلت ما قلت، فمن أنت؟ قال: ابن ميادة، قال: قبح الله والدين خيرهما ميادة، لو كان في أبيك خير ما انتسبت إلى أمك .... فتهاجيا على إثر ذلك.

ومن أهاجيها، قول الحكم، يسخر من ابن ميادة وقومه بني مرة بن عوف:

فيا مر قد أخزاك في كل موطن من اللؤم خلات يزدن على عشر

فمنهن أن العبد حامي ذماركم وبئس المحامي العبد عن حوزة الثغر
ومنهن أن لم تمسحوا وجه سابق جواد ولم تأتوا حصانا على طهر
ومنهن أن الميت يدفن منكم فيفسوا على دفانه وهو في القبر
ومنهن أن الجار يسكن وسطكم بريئا فيلقى بالخيانة والغدر
ومنهن أن الشيخ يوجد منكم يدب إلى الجارات محدوب الظهر

فناقضه ابن ميادة رادًّ على ماسبه وسب قومه به، مقابلاً ما ذكر من خصال السوء لبني مرة، بخصال سوء تناظرها لبني محارب، قال:

لقد سبقت بالمخزيات محارب وفازت بخلات على قومها عشر
فمنهن أن لم تعقروا ذات ذروة لحق إذا ما احتيج يوماً إلى العقر
ومنهن أن كانت شيوخ محارب كما قد علمتم لا تريش ولا تبرى
ومنهن أن الضأن كانت نساؤكم إذا خضر أطراف الثمام من القطر
ومنهن أن لو كان في البحر بعضكم لخبث ضاحي جلده حومة البحر

فإن كان الهجاء بالسب وسلب خصال حسان يعتز بها العربي من الكرم والمروءة والشجاعة والعفو لكن الأسلوب الذي اتبعاه من الفحش والتعريض بالأعراض ، وصب ذلك في عبارة مسبقة بذيئة ومعنى مكشوف.

هذا يوضح أن بعض النقائض كان يغلب عليها الإسفاف والفحش والبذاءة في العبارة إلى جانب التهكم والسخرية وإلحاق المعرة بالمهجو كالميت الذي يسفو على دفانه والشيخ العجوز الذي يدب إلى الجارات أو الذي نتنت رائحته حتى أنها لتعدى البحر نتانة.

نقائض جرير والفرزدق:

انتسب الشاعران الشهيران إلى قبيلة تميم ... بيد أن هذا الانتساب سار في مسارين مختلفين إذا أن الفرزدق ينتسب إلى مجاشع محى الموءوات، أما جرير فينتسب عن طريق يربوع، وهذا فرع فقير من العائلة. والمعروف أن الملاحاة التي وقعت بين الشاعرين الكبيرين لم تقصد هذا اتهاماً أي لم تك هناك أسباب مباشرة لإشعال الخصومة وإنما أصل الخلاف كان يشير له الفرزدق الذي ربط نفسه آنذاك وأعد عدته لحفظ القرآن، ولكن حدث نزاع بين رهطين من بني يربوع، هم بنو الخطفي رهط جرير المتعصب لقيس المناهضة للسياسة الأموية ، وضد قبيلته الكبرى تميم الأموية الهوى، وبنو جحش بن سيف بن جارية بن سليط، فكان بني الخطفي يهجونهم، ولم يكن في بني جحش شعر، فلاذوا بغسان بن ذهيل بن البراء بن سليط، فهجا بني الخطفي دفعاً عن أبناء عمومته بني سيف، ووقف جرير على هذا الهجاء، فركب إلى بني سليط وهجاهم في رجز قبيح.

وشعر البعيث في نفسه وهنًا،وأنه لن يستطيع مغالبة جرير ولا سيما بعد أن هجى جرير البعيث ، وعير جراءة بني مجاشع استعانتهم ببعيث ثم يسخر من بني مجاشع لاعتمادهم على البعيث في الدفاع عنهم:

لئن راهنت عدوا عليك مجاشع   لقد لقيت نقصا وطاشت حلومها

فأبقوا عليكم واتقوا ناب حية   أصاب ابن حمراء العجان شكيمها

أتشتم يربوعاً لأشتم مالكاً   وغيرك مولى مالك وصميمها

ومعلوم أن مالكا الأب الأكبر لمجاشع ، ودارم وهو يشير بهذا إلى أن الفرزدق أحق من البعيث بالذود عن بني مالك، والتحدث باسمهم.

وبالفعل استغاث بفحل مجاشع الفرزدق، ووجه إليه الدعوة للدخول في المعركة بينه وبين جرير، وكان الفرزدق بعيداً عن الميدان بالبصرة، مقيداً نفسه، عاكفاً على قراءة القرآن وحفظه، حالفاً أن يهجر الشعر، قائلاً الفرزدق:

لعمري لئن أنهى الفرزدق قيده ودرج ذو الدهان وذو الغسل

ليبعثن مني عداة مجاشع بديهة لأواني الجراء ولا وغل

مما حمل الفرزدق على أن يخلع وثاقه ويزحف إلى ميدان الكلام ليصول ويجول ، وزاده حماساً استغاثة نساء بني مجاشع به ليوقف جرير عن هتك أعراضهن والتعريض بهن قال:

دعاني ابن حمراء العجان ولم يجد له إذ دعا مستأخرا عن دعائيا

فنفست عن أنفيه حتى تنفسا وقلت له لا تخش شيئاً ورائيا

الخصومة بين التميمين لسانية ... هل النقائض التي شغلت العصر كله وتمنى المغمورين إتقانها لكي يلتحقوا بالمشهورين المتقنين وعمت الحشود لسماعهم بالمربد كان يقف وراءها خصومة حقيقية بين أبناء العم ..؟

الحق إن الدلائل التاريخية تناقض ذلك إذ في البداية كره الفرزدق تلك الملاحاة، وحقد على البعيث الذي سرعان ما سقط من بين القمتين ولم يتذكره أحد ، ولا سيما أنه قد شاخ فصار ذكره في النقائض ذكرى أو مثلاً للعدو المنهزم، يقول الفرزدق مهاجماً البعيث:

فإن يدعني باسمي البعيث فلم يجد لئيما كفى في الحرب ما كان جانيا

وما أنت منا غير أنك تدعى إلى آل قرط ما شبت عانيا

تكون مع الأدنى إذا كنت أمنا وأدعى إلى غم الغشاء التراقيا

لكن كانت ثمة علاقات انسانية تخطت التحزب لحزب أو التعصب للقبيلة العامة "تميم" أو الخاصة "بني مجاشع" .

بني مجاشع للفرزدق ، وبنى يربوع لجرير، فعلى الرغم ما قيل إن الفرزدق كان يناصر الأمويين وأن جرير كان يتحمس لقيس وقيس زبيرية الهوى ، فكل منهما في مواقفه السياسية محكوم بانتماء قبيلته ويشيع لما تتبناه من مواقف، إلا أن ذلك لم يك عاملاً مؤثراً في إشعال نار المنافسة فالموقف السياسي لكل منهما لم يك هو المحرك للأحداث لأن التهاجي أعلن بينهما عام ٦٧هـ تقريباً، وكانت دولة ابن الزبير قائمة منذ سنوات أعلن الزبير خليفة عام ٦٣هـ فلماذا لم يبدأ التهاجي من ذلك التاريخ ، مع اشتهار الانتماء السياسي لكل من تميم وقيس رغم الخلاف ، بينهما بالإضافة إلى أن الفرزدق لم يشتهر عنه أنه من المتزلفين إلى البلاط الأموى حتى أيام سليمان بن عبدالملك بل ناصب الفرزدق رأس الدولة الأموية – معاوية – العداء حينما ظلم الأخير أحد أبناء بني مجاشع ورد ميراثه إلى بيت المال قال الفرزدق:

أتأكل ميراث الحتات ظلامة ... وميراث حرب جامد لك ذائبه

أبوك وعمي يا معاوي أورثا ... تراثاً فيحتاز التراث أقاربه

وكم من أب لي يا معاوي لم يكن ... أبوك من عبد شمس يقاربه

ولو كان هذا الأمر في غير ملككم ... لأذيته أو غص بالماء شاربه

ولو كان إذ كنا وللكف بسطة ... لصمم عضب فيك ماض مضاربه

ثم تمادى الفرزدق في الخصومة ولم يهاب أو يخشى بل هدد بقطع العلاقة بين قومه وبنى أمية **قائلاً:**

إن تنصــفونا يــا آل مــروان نقــترب إلــــيكم وإلا فــــأذنوا ببعــــاد

فــإن لنــا عــنكم مراحــا ومــذهباً بعــيس إلى ريــح الفــلاة صــوادى

وفي الأرض عن ذي الجـور منـأى ومـذهب وكـــل بـــلاد أوطنتـــك بـــلادي

ومــاذا عســى الحجــاج يبلــغ جهــده إذا نحـــن خلَّفنـــا حفـــير زيـــاد

وهذه الأشعار دالة على براءة الفرزدق من التقرب لبني أمية، ومع ذلك لم تقع خصومة بينه وبين جرير، بل أن جرير كان يتحدث في حقه حديثاً حسـناً لانه يعرف له قدره، وكان يصطحبان في السفر بل أن جرير تشفع عنـد هشـام بن عبدالملك حينما حبسه خالد بن عبدالملك القسري وكـان يبجلـه حتـى قـال لابن عكرمة لما سأله عن أشعر الناس في الإسلام: "**الفرزدق نبعة الشعر في يـده قابضاً عليها**" وكان الفرزدق يقول عن جرير:"**ما أحوجـه مـع عفافـه إلى صـلابة شعرى وما أحوجني مع شهوتي إلى رقة شعره**"؛ فلما مـات الفـرزدق حـزن عليـه جرير حزناً شديداً وقال: "**أما والله أعلم أني قليل البقاء بعده**"... يقول جرير:

لعمــري لقــد أشــجى تمــيماً وهــدها على نكبات الدهر مـوت الفـرزدق

لقد غادروا في اللحد مـن كـان ينتمـي إلى كـــل نجـــم في الســـماء محلـــق

لتبــك عليــه الإنــس والجــن إذ ثــوى فتى مضر في كـل غـرب ومشرـق

كما يبكي فيه رجلاً لن تأتي النساء بمثله، حامياً للذمار، مصلحاً لما فسـد من أمر قومه، ساعياً لهم بالخير عند الحكام:

فــلا ولــدت بعــد الفــرزدق حامــل ولا ذات حمــل مـــن نفــاس تعلــت

هو الوافــد المــأمون والراتــق الثــأى إذا النعــل يومــاً بالعشــيرة زلــت

هذا الإحساس الصادق في الرثاء يوحي بإن الخصومة بينهما كانت مختلقة وأنها فنية أكثر منها إنسانية... فجرير لم يك يجبذان يفضله الفرزدق عند الناس، وعاتب الراعي في ذلك لحكومته وقال له: كان يكفيك إذا ذكرنا أن تقول كلاهما شاعر كريم ولا تحتمل مني ولا منه لائمة، فجرير يعرف للفرزدق حقه لكنه يكره تمييز الناس له عليه مما يدل على أن المنافسة الفنية كانت مشتعلة ، أما العلاقة الإنسانية بينهما فكانت قائمة ، ومما يدل على ذلك حضور الفرزدق من البصرة ليكون في مواجهة جرير في سوق المربد، ليربح الشعر وعشاقه تلك المباراة الكلامية في المنافسة، التي صارت ضرباً من الحوار النظمي وميداناً للمباراة الأدبية ، مع احترام كل منهما صاحبه ، وعرفانه قدره وبراعته في باب النقائض، وتفردهما فيه بالمكانة الممتازة.

دلالة النقائض التاريخية واللغوية والإبداعية

عدت النقائض الأموية امتداد للشعر الجاهلي المحافظ ، إذ سارت على هديه متبعة تقاليده ،مسندة إلى عُمده ، حتى نجد أسلوبها نمطاً يحتذيه التابعون بما وسم من رصانة وعراقة جزالة ونبرة صارمة عالية.

والنقائض.. شكل قديم للمنافسة الجاذبة للجمهور أن يحتشد النقائض ويفند كل منهم آراء وأقوال صاحبه، والناس ملتفون يصفقون للمجيد. فالمتعة الفنية تلقى آذاناً صاغية وعلى الرغم من قدم النقائض ووجودها في العصر الجاهلي ، إلا أنها لم تتضح وتنتشر ويصير لها رواد يبغون المتعة الفنية ، والشهرة الإبداعية، ويتفقون بفنهم إلا في العصر الأموي والنقائض وإن كانت جاهلية المنبع إلا أن خصالها في الجاهلية اتسمت بالعفاف والقصر.

أما في العصر الأموي فقد استطالت طولاً بينا وكثر فيها المستهجن والقبيح، **يقول الفرزدق:**

تصاغرت يا ابن الكلب لما رأيتني مع الشمس في صعب عزيز معاقلة

أو هذا القول المزدحم بنباح الكلب:

فإنك كلب من كليب لكلبة غدتك كليب في خبيث المطاعم

أو نظيره الذي يصور صاحبه حماراً من سلالة الحمير:

يا ابن الحمارة للحمار وإنما تلد الحمارة والحمار حماراً

والنقيضة الأموية توفر لها التقارب بل الوجود في الجوار بالمربد، إذ ينشد الشعراء الناقضة والمنقوضة، وهم حضور مما أوجد أسلوب المناظرة، والملاحة

في المعاني ، والتركيز مع القائل لتفنيد ونقد ما يقول ، وحشد ما استطاع من فكر لتأييد وجهة نظره كل ذلك في إطار فني يتبين فيه براعة الشاعر، وقدرته الإبداعية النظمية، ولا شك أن النشاط العقلي وعنف المنافسة ووجود المتنافسين ، واستملاح المتربصين للنزاع ، والبيئة الثقافية النشطة كان لها دور كبير في توسيع المدارك، ومد العقل بالقدرة على الإحصاء والتتابع، وإن كان ذلك أخذ شكلاً سخرياً مضحكاً سواء في المفاخر أو الأهاج، والمتلقون منشغلون بما يطار وينشر من أفكار، وإن كان منهم الساخط والمشجع والمتربص وراضي عن هذا الفن، إذ يرى فيه إثراء للفكر، أما القبائل فكانت تتأمل العبقرية المنشدة والناقضة ، وما يبثونه في أشعارهم من قدح أو مدح، يلصق بالقبائل فالقبيلة يُبعد صيتها وتشتهر فتنْقم أو تبتهج.

والنقاد يتابعون النقائض التي شكلت (مدرسة للنقد وصحف للعصر تدفعها الحياة الأدبية أو تياراتها ومقاييسها الفنية إلى التجويد والافتنان واستغلال كل معطيات الثقافة العصرية المتاحة للبلوغ إلى ما لم تصل إليه نظائرهم في العصريين السابقين).

ومع إن النقائض الجاهلية والإسلامية الأولى لم تخل من الملاحاة والجدل إذ كان هذا أصلاً من أصول المناقضة، كما عرفنا في تفسير معنى المناقضة، فإنه لم يبلغ فيها من الدقة والتتبع والتربص مبلغه في هذه النقائض الأموية ، للرقي العقلي ، والتأثر الثقافي، ولعنف التنافس، وعناية النقاد والعلماء بالشعر، وجمهور الناس بهذا الفن وارتقابهم الفائز فيه، فقد كان هؤلاء الفحول يشعلون الحياة الأموية، بما يطيرون من مفاخر وأهاج، والعالم من حولهم يستمع إليهم ما بين معجب مصفق مشجع، وساخط ناقم مزور، وراضٍ بمتعة هذا الفن، متأمل عبقرية الشعر فيه، والأمر كله متأثر بهذه النزعات،

والقبائل محتفية بما يفضي عليها فن هؤلاء من بعد الصيت، أو ناقمة لما ألصقه بها من ضعة وهوان الحياة الأدبية، وتياراتها النقدية، ومقاييسها الفنية إلى التجويد والافتنان، واستغلال كل معطيات الثقافة العصرية المتاحة، للبلوغ إلى مالم تصل إليه نظائرهم في العصرين السابقين.

دلالة النقائض التاريخية

إن الناقضة تسجيلاً لبعض الأحداث الهامة وتاريخياً لأفعال بعض الشخصيات ، وذكر لمواقف القبائل من الأحداث. لكن لا تعد النقائض مصدراً مجردًا للأحداث ، إذ أن كل شاعر يلتقط من الحدث أو الشخصية ما يتوافق مع ميوله السياسية ، وأهواءه القبلية، ومناحيه الشخصية يسجله في مباراته الفنية الإبداعية، إلا أن كثير من نقائض الفحول قصت قصصاً واقعية وأحداثًا شهيرة لايتطرق إليها شك ، ولا يلحقها تزييف أو تلاعب؛ فقد ورد فيها أسماء وأيام أثبتتها الكتب وشهد لها المؤرخون.

والحدث الواحد قد يأخذ شكلاً فخرياً من أحد الشعراء المُهاجم أو شكلاً مخزياً من الآخر المُهَاجم ويكون الحدث صحيحاً كما حدث مع مقتل قتيبة بن مسلم الجاهلي إذا فخر به الفرزدق وعير به جرير.

دلالة النقائض اللغوية

كل شاعر من شعراء النقائض برع وأجاد في التركيب والصياغة والصور الشعرية كانوا ينتقون ألفاظاً وينتخبون كلمات لتصل إلى الغاية بلا إفراط أو تفريط مما جعل النقائض مستودعاً متسقاً أميناً للمفردات والتراكيب العربية ساعدت بمرور الزمن ثم فساد اللسان العربي –لأسباب متعددة– على الحفاظ على اللغة سليمة ومصانة من الهجنة بل بعثوا كلمات وقف أو ندر

استعمالها من جديد وبثوها في أشعارهم من أشهرها قول (لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب).(١)

واستعملوا تراكيب ومفردات استعملها الجاهليون حتى وقف لهم أصحاب اللغة يسجلون وينقدون مما أحدث ثراءً لغوياً بيناً. فالنقائض حوت "ثروة لغوية هائلة". تمثلت قوافيها الغزيرة المتنوعة وألفاظها الجزلة في مقام الفخر ، والمديح الصاخبة الهادرة في باب الهجاء وفي هذا تمثل جلال اللغة كما كانت مقصداً لمؤرخي الأنساب والقبائل.

دلالة النقائض الإبداعية

سار فحول النقائض مقتفين خطى الجاهليين في التراكيب والصياغة والمفردات اللغوية والصور التعبيرية وكأنهم يضعون النموذج الجاهلي أمام أعينهم فيعوه ثم يمسكوه داخل نهج إبداعهم ،فإذا ما أبدعوا إنساب وتسلل إلى إبداعهم بعفوية –مقصودة أو غير مقصودة– وقد فاخر الفرزدق أنه يقتفي أثر الفحول الذين خلّفوا له إبداعهم وطرائقهم إرثاً ثقافياً مميزاً يقول:

وهب القصائد لي النوابغ إذا مضوا ... وأبو يزيد وذو القروح وجرول

والفحل علقمة الذي كانت له ... خلل الملوك كل لا ينحل

وأخو بني قيس وهن قتلنه ... ومهلهل الشعراء ذاك الأول

والأعشيان كلاهما ومُرقش ... وأخو قضاعة قوله يتمثل

وأخو بني أسد عبيد إذ مضى ... وأبو داود قوله يُتنحل

وابنا أبي سلمى زهير وابنه ... وابن الفريعة حين جد المقول

١- الأغاني١٩ صـ ٤٨.

وفاخر الأخطل شاعر النقائض الذي كان له مع جرير ملاحـاة طويلـة؛ يقول الأخطل:

ولم يك الفرزدق فقط المقتفي أثر القدامي بل نجـد الأخطـل أيضـاً عـلى دربهم سار يقول:

لقـــد نزلـــتُ بعبـــد الله منزلـــة فيهـا عـن الفقـر منجـاة ومنتفـد

كأنـــه مزبـــد ريـــان منتجـــع يعلـــو الجزائـــر في حافاتـــه الزبـــد

حتـى تـرى كـل مـزور أضرَّبـه كـــأنما الشـــجر البـــالي بـــه بُجـــدُ

تظـــل فيـــه بنـــات المـــاء أُنجيـــه وفي جوانبـــه الينبـــوت والخضـــد

سهل الشرائع تـروى الحـائمات بـه إذا العطـاش رأوا أوضـاحه وردوا

وقد عالج النابغة المدح في الإطار والأسلوب نفسه يقول:

ومـا الفـرات إذ هـبّ الريـاح لـه ترمـــى أواذيّـــه العـــبرين بالزبـــد

يمـده كـل واد مُـترع لجـب فيـه ركـــام مـــن البنيـــوت والخضـــد

يظـل مـن خوفـه المـلاح معتصـماً بالخيزرانـــة بعـــد الأيـــن والنجـــد

يومـاً بـأجود منـه سـيب نافلـة ولا يحـول عطـاء اليـوم دون غـد

فالمعاني والصور والألفاظ مأخوذ بعضها من بعض، وكان جريـر يفـرط في مدحه، وابتذال نفسه وإضفاء هالات المهابة والقداسة على الممـدوح وكأنـه يستحضر الأعشى من الزمن السحيق.

فاقتفاء أثر القدامى من شعراء العصر الجاهلي ظاهرة لافتـه للنظـر حتـى قال "أبو عبيدة معمر بن المثنى".

كان أبو عبيدة الشيباني يشبه جرير بالأعشى، والفرزدق بزهير والأخطل بالنابغة.

القصة الشعرية والنثرية

تقيدت القصة بقيديى الوزن والقافية مما جعل الإقبال عليها من الخاصة الممتلكين لثروة كلامية، وقدرة صياغية، واستطاعة بيانية على تكثيف الحدث ، وصياغته في كلمات قلائل ملتزمة أحادية الوزن والقافية.

لذا فهي تعتمد على لمحة فنية منضوية على عناصر تعبر عن لحظة شعورية بالغة الكثافة عالية التركيز في صورة متميزة باعثة على التأمل فحينما يقول القديم: وأحبها وتحبني ويحب ناقتها بعيري، ثم يأتي أحمد شوقي فيقول: نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد ولقاء.

إذ أفاض في كلمات قلائل بقصة مترامية الأطراف والدلالة هنا نتبين تفرد القصة الشعرية عن القصة النثرية الاجتماعية خاصة إذ تخضع للتجارب الإنسانية العامة وتنتهج نهج التتابع الموصل للإقناع بالتبرير، أما القصة الشعرية فهي فيض شعوري ذاتي للشاعر لا يلتمس فيه إجماعاً اجتماعيًا أو توافق جمعي ولا نطالب الشاعر بصدق واقعي بل نقف أمامها معجبين مشدوهين لبراعته وإتقانه إذ فيها تنبع جزيئات التجربة الشعرية في صور مكثفة تدعوا المتلقين لمشاركة الشاعر لحظته الانفعالية مصاحبته خطوة خطوة معترفين له بالمهارة الفنية الإبداعية وتفرده في جميل البوح.

القصص في الشعر الأموي

القصة لون الأدب ضارب بجذوره في القدم فهو لازمة مـن لـوازم الإنسـان تستخدم لإنفاق الوقت أو عظةً أو إرشـادًا وتعلـيمًا. وهـي تـدور في فلـك سرد أو حكي حادثة أو عدة حوادث قد يقترن بتحديد الزمان والمكان والشخصـيات وقـد سيغفلها ويركز على الحدث ذاته لهدف ومغزى وقد عرفها كثـير مـن الأدبـاء ومـن هذه التعريفات ٤٢٤٤.

وقد وجدت في العصر الجاهلي بوسمها لا بسمها يقول د.. عبد العزيـز عبـد المجيد ٤٢٤٧ ولا ننسى الصعاليك وحكيهم عن مغامراتهم وبطولاتهم سواء أكان ذلك حقيقًا أم متخيلاً بل إن الأمثال شكل من أشكال القص .

١ – ... للمرحوم الدكتور أحمد عبيد كتاب الأمثال يقص فيه كيف أن العرب أتقنوا الاختزال إذ يقال المثل فتشرئب العقول الأذهان لمعرفة أصلية فإذا وراءه قصة مكتملة الأجزاء مثل " كيف أعاودك وهذا أثر فأسك " " لا يُطاع لقصير أمراُ " ... ليس عذرا فحسب بل كثير من قصوا قصصهم .

٢- ... القصة في الشعر العربي إلى أوائل القرن الثاني الهجري دعلي الجدي ناصف صـ ٢٤٢- ٢٤٩ دار نهضة مصر للطبع والنشر مصر، ... نجد رباطًا محكمًا ووصفًا حيًا متحركًا واتجهت صياغة الأحداث إلى إبداء فكرة محددة كما فعل أبو ذؤيب " والدهر لا يبقى على حدثانة بعد قصة قصص صراع الإنسان مع الدهر الذي دائمًا يقر على الحمار الوحشي فيقتضيه الصياد، ثم الثور الوحشي الذي تفتك به

كلاب الصيد، ثم الفارس المغوار الذي يقابل نظيره فيموتا معًا بل إن أيام العرب التي صيغت شعرًا وسجلت فيها الأحداث العربية تثبت خضم الأحداث لتي عاشها العرب القدامى واستطاعوا إثباتهم في لقاء المحبوبة وما بذلوه من نفس ونفيس في سرد قصصي متوال المحبوبة أو حكى جسارته وتتحمله المشاق للقاء المحبوبة واجتياز الحراس والأهوال أو يقص هوى في النفس وإصرارها على تنفيذ رغبتها والإفضاء مع المحبوبة كما فعل عمر ابن ربيعة مع صويحباته وجميل بثينة إذ اقتفيا أثر امرئ القيس واكتست القصة في صدر الاسلام شيات جليلة حين اسند المولى لنفسه "أحسن القصص"

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ... ﴾[سورة يوسف: الآية ٣]

وفي ذلك من الكفاية ورد على القائلين بأنا قصنا القديم يفتقد ما اتفق عليه الغربيون من أسس بنائية شكلت بنية القصة من حدث يُشكل الإطار العام لبنية القصة إذ أن كل قصة لابد أن تصنف تبعاً لحدثها أو حادثتها الرئيسة فلدينا قصصاً اجتماعياً، أو دينياً، أو تاريخياً بالإضافة لتقسيمات تتبع الشيات.

فالقصص الذي يدور في بيئة متمدنة متفتحة والشخصيات –غالباً– ما تحمل فكر الكاتب ولا سيما الشخصيات المحركة للأحداث رئيسية كانت أو ثانوية وهو لا يظهر بشكل جلي وإنما في حركاتهم ومواقفهم في حديثهم بعضهم لبعض وفي الحوار أو في حديث كل منهم إلى نفسه فمن خلال أسلوبهم تبين طرائقهم في التعبير ونهجهم الفكري ومنحاهم السلوكي العاكس لذلك كله لدى القاص فالأسلوب في العمل القصصي هو المحور الأساسي الذي يعتمد عليه القاص ويتحرك معه باقي عناصر العمل بصورة عامة.

والزمان والمكان عنصران هامان في القصة تواجدا بشكل واضح في القصص الشعري الجاهلي إذ هي المظلة التي تحدد الجو العـام للقصـة في ذهـن المتلقـي وهمـا يعكسان البطانة النفسية للقاص فأي حدث وأي شخصية لابد أن يتواجدا في زمان بذاته ومكان معين يخضعا لظروف ومواءمات عصرية تعرضها البيئة والزمـان فـإذا قلنا "ارتدى قبل خروجه معطفه وتناول كشافه" أدركنا أن الزمان شتاءُ والتوقيـت ليلاً مما يسهل علينا توقع ما يتتابع من أحداث دون النص.

والحوار: من عناصر القصـة الأساسـية إذ يحمـل فكـر الشخصـيات ويبـين الأحداث ومسارها وقد يكون حوارًا وديًا بين الإنسان ونفسه، أو ثنائيًا أو اجتماعيًا وفي كل الحالات يقدم الشخصيات فكرًا وسلوكًا في تدفقات حكائية فنيـة تميـل إلى جلاء المبهم وإيضاح الخفي.

وقد سادت قيم النثر الجمالية واعتلت الشعر والشعراء فزواجوا بينهما وتبدي ذلك في الشعر القصصي.

الحكي

أن يقوم شخص بحكي حدث ما كيفما اتفق دون أن يراعي قواعد فنية ولا أحكام عقلية والحكاية " سرد واقعه أو وقائع حقيقية وخيالية لا يلتزوم فيهما الحاكي قواعد الفن الدقيق بل يرسل الكلام كما يواتيه طبعه.

التعبير الفني في القرآن الكريم ...

لذا فالحاكي يريد أن يوصل الحكاية للمتلقين لهدف ما فلا يراعي لفظًا بليغًا ولا صورة فنية بل يسترسل في الحكي ...

والحكي ورد بكثرة في الشعر القديم وكأن الشاعر القديم يتخطى الفواصل بين الشعر النثر ليوصل فكرة تمازجهما وتداخلها بلا تعدى لأحدهما على الآخر يقول بن رشيق مجلة السرد .

الشعر القصصي الأموي

ليلة عاصفة للأخطل

يمشي بنفس محارب

عنى الأدباء والنقاد بالأدب الأموي شعره ونثره، وتناولوه بالدراسة والتحليل، وسبروا أغواره وبحثوا في أصوله وجذوره، ولاحظوا أن الشعر الجاهلي وردت فيه إرهاصات للشعر القصصي، يعكس ما دار في البيئة الجاهلية بما فيها ومن فيها وفي العصر الأموي سار بعض الشعراء على المنهج نفسه، وأوردوا أشعارهم في شكل قصصي ومن هؤلاء "الأخطل" الذي قضى ثورة "ليلة عاصفة" امتلكها لأنه "يمشي بنفس محارب" لا يستسلم ثم قصها في أبيات مميزة.

وهذا الأسلوب القصصي الشعري لم يكن موجوداً بكثرة فهو وإن كان امتداد للنهج القصصي عند بعض الجاهلين إلا أن الغزليين هم من أسقطوه على أشعارهم ولا سيما "عمر ابن أبي ربيعة" كما هو معروف، لكن الأخطل أورده بكثرة في مقطوعات وقصائد شعرية وسواء أكانت تلك اللمحة القصصية حقيقية أو مُتخيلة فقد تحقق فيها صُلب الفن القصصي من أبطال –تحديد زمان ومكان – أزمة – حل بشكل مكثف، يتوافق مع نفسية الأخطل المشبعة بحب الذات والممتلئ بإحساس التفوق الشعر العربي القديم سيظل دائماً محط اهتمام المتلقين، من محبيه والأدباء والنقاد ، لما يحتويه من إبداع فني ولغوي وثراء أدائي متجدد، ومنهجية أسلوبية متنوعة، استفاد من كل ذلك الشعراء على مر العصور، فمنهم من أجاد ومنهم من قصر دونه الجهد، وكان هذا شأن الحراك الإبداعي على مر العصور حتى جاء العصر الأموي، والأخطل من الشعراء المحيرين، الذين امتلكوا موهبة فريدة،

وعقلية تنظيمية، وصياغة لغوية، وحظاً موفوراً إلى حين، فهو وإن كان مسيحي الديانة متفلت الخلق، إلا أنه كان خضوعاً لنصح قسيسه ويذعن لرأيه متطلعاً للمال شغوفاً به، إلا أنه ذو عزة وكبرياء لافتين للأنظار حتى أنه جادل الملك وأوضح أن شعره في مدحه أفضل من شعر غيره، بل وهاجم حاميه، وهو حاد اللفظ جَماع للمعنى في أشعاره، وهذه القصيدة تعد لقطة فنية وصياغة لفظية مميزة(١).

الأخطل (الحياة والسيرة)

عد المؤرخون العصر الأموي عصراً فارقاً عما قبله، ممهداً لما بعده إذ به تغير شكل الحكم من خلافة إلى ملك عضوض، وظهرت فيه من المؤثرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية الكثير والكثير، مما كان له حضوراً قوياً على الأدب شعره ونثره في مناحيه الفنية، وكان لكل إقليم من أقاليمه سمة فنية استعلت منجزهُ الأدبي شَكَلَها الدين – الاختلاط بالأمم الأخرى – النشاط – والفكر السائد في الإقليم – ومضت تغلب إلى ركاب الأمويين ... سفيان ثم مروان تحطب في حبلهم وتجنى ثمارهم، ومضت قبائل أخرى مؤيدة للمعارضين وجنى كل منهما ثمار مسعاه.

الأخطل: هو غياث بن غوث بن عمرو الفدوكسي بن عمرو بن مالك بن جشم بن بكر بن تغلب، وأمه تدعى ليلى وكنيتها أم كعب، ابنه الكبير مالك وكُنى به، ولد في الحيرة أو في منطقة الرصافة في الشام، هناك خلاف في تاريخ مولده قيل ولد سنة ٥٢٠ –٦٤٩ ومات سنة ٥٩٢ – ٧١٠ م.

١- ديوان الأخطل كاترين صادر صـ ٥ دار صادر للطباعة والنشر ط ١-١-١٩٩٩، وقد وجدت في ديوان الأخطل تحقيق عبدالرحمن المصطاوي دار المعرفة باسم عاصفة، ووجدت في تحقيق كاترين صادر دار صادر بعنوان "يمشي بنفس محارب".

فقد أمة وهو صغير وأبتُلي بإمرأة أبية التي استرعته" أعنزهـا، وتبخـل عليـه حتى بالكافي من القوت (١)" وكانت تؤثر بنيها عليه وتخصـهم، حثهـا يومًـا عـلى القيام بمكرمة خارج البيت، حتى إذا خلا له الجو أكل مـا ادخـرت لأولادهـا مـن طيب الأطعمة(٢).

وعلى الرغم من ولادته بعد عقدين من صدر الإسلام ٢٠هـ تقريبًـا ٦٤٠م. والإسلام لا زال مشـعًا في النفـوس مسـيطرًا عـلى العقـول، إلا أن الأخطـل كـان نصرانيًا فقد ظل على نصرانيته، وأن كانت نصرانيته غير متينة فهو يفعل مـا يخالفهـا أو يوافقها تبعًا لهواه ، إلا أنه كانت تتازعه أحاسيس متناقضـة، فقـد كـان يشـعر في نفسه علوًا ورفعه يناقضهما واقعة المرير – رعيه للغـنم وسـوء معاملـة زوج أبيـه – وهو الذي نُعِمَ إبتداءً بحنان أُمه، فشب مختنقًا مصدورًا " وحق للمدور أن ينفـث " فلجأ إلى الشعر، ولما لم يحقق له هدفه من الشهرة ورفع الضيم" تحـرش بكعـب بـن جعيل شاعر تغلب، ونازعه لواء الشعر في القبيلة فاستهجن ذلك كعـب، واعتـبره خطلاً من غلام أرعن لا يعي ما يقول ويفعل، فلقبه بالأخطل ولج الهجاء بينهما(٣) " وعندما أرشد كعب يزيد ابن معاوية عليه ليهاجم الأنصار كان يريد الإيقاع بـه " ظنًا منه، أنه يرمي بخصمه في التهلكة، غير عالم أنه إنما يفتح له بذلك باب الانطلاق والبروز على مصراعية(٤) "وهذا الطبع الحاد المتحسس للخصومة والملاحاة نزعـة توارثها من قبيلته تغلب وهي من هي في العصر الأموي حتى قيل لو أبطأ الإسـلام لأكلت بنو تغلب الناس(٥) " وتغلب تنسب لتغلب بن وائل بن قاسط بن هنب بن أقصى بن دُعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عـدنان وهـي نبـع لعدة فروع منها: بنـو سـقبة بالطـائف، بنـو حمـدان ملـوك الموصـل والأرقـم قـوم

١- ديوان الأخطل كاترين صادر صـ٥ دار للطباعة والنشر ط١ ١٩٩١.
٢- شعر اللهو والخمر تاريخه وأعلامه الأعشى – الأخطل- أبو نواس جورج غريب دار الثقافة صـ٨٦.
٣- المرجع السابق صـ٦.
٤- شعر اللهو والخمر صـ ٨٩.
٥- ديوان الأخطل صـ ٨

الأخطل، وكانت قد أطلقت عليهم هذه التسمية إذ شبهت عيونهم بعيون الحيات، احتلت مساكنهم الجزيرة الفراتية ما بين العراق ومنبج فكان من أوديتها ظبي والأحص، ومن مياهها البشر وقباقب وتغلب من القبائل الحربية التي لا تنحي ولا تلين، فالحياة عندهم هي عيش أَبيّ، وإلا فالموت الأبي هو مرادفها الوحيد. وأي وسط لديهم مرفوض فما يُعوجُّ ويُقوم بالقنا، وما يفسد يبتر بالسيوف، ومن بضيمهم يُضام وهم لكل ريح عاصفة" وقد أثرت أن أثبت هذا النص المنقول من ديوان الأخطل صـ ٧ لأُضوء هذا الجانب النفسي ـ في حياة الأخطل، والمسئول بشكل أو بأخر فيما بعد عن سلوكه مسلك المُهَاجِم الذي لا يعفى، فمن يجترأ عليه سلط عليه لسانه الثُوري فينسفه، لما تشعه نفسه من عصبية، دفعتها قبلاً لمهاجمة كعب ودفعتها بعداً للسير عكس الاتجاه في أمور لافتة، فقد هاجم الأنصار الحاظين بكل تبجيل وتوقير، ورثى يزيد بن معاوية وهو من هو مرماة البغض للمسلمين آنذاك، وكان فيه جرءة تصل لحد القحة، فقد دخل على سعيد بن بيان بالكوفة وعنده زوجه ذات الجمال الباهر.

"بُرة بنت هانئ" وبعدما أكرمه واحتفل به سأله باعتباره ولاَّجاً على الملوك "أين ترى هيئتنا من هيئتهم، وهل ترى عيباً تنهانا عنه" فأخذ ينظر الأخطل ويقارن بين سعيد ودمامته ، وبُرّه وجمالها ثم قال: "ما لبيتك عيب سواك"؛ فقال سعيد أنا والله يا نصراني أحمق منك حين أدخلتك بيتي(١).

ووصف الخمر وحببها للنفوس وأفاض في وصفها تحت عين الخليفة وكانت من المحرمات، ولعله وجد فيها ما يدفيء برده، ويطرد همه، ويغرق مخاوفه، ويطلق شيطانه الشعري حراً(٢). ومن غرامه بالخمر قال: إنها تمنعه من اعتناق الإسلام. ويقول نكسون: "إن فضيلة النصرانية عند الأخطل كانت في أنها كانت تسمح له

١- ديوان الأخطل صـ ١٢.
٢- الديوان صـ ١١.

بشرب الخمر بالقدر الذي يريده". وإذ سأله بعض فتيان الكوفة من بني رؤاس، أن يدخل الإسلام أجابهم:

أصلي حيث تدركني صلاتي وليس البر عند بني رؤاس[1]

وعلى الرغم من مفاخرته بنصرانيته إلا أنه كان يأتي أفعالاً تناقضها فنرى الرجل، يطلق امرأته ثم يتزوج امرأة مطلقة!! يضع الصليب الذهبي في عنقه في المناسبات متحدياً الجميع، وفي الوقت ذاته كان أحياناً يمتثل لرأى القساوسة بل يذكر قديس قبيلته ماري جرجس وإذا تعرض لتوبيخ أو ملامة أو أشتد الأمر فضُرب وحُبس خضع وذل وحينما سُئل في ذلك قال: "إنه الدين! إذا جاء الدين ذللنا".(٢) ويقسم بالمسيح والرهبان، ويذكر الصليب. وقد تزوج ثم طلق كذلك فعل ابنه. فراح الاثنان يتندمان على زواجهما الفائت:

على زوجها الماضي تنوح وإنني على زوجتي الأخرى كذلك أنوح[3]

وقد اصطدمت مصالح قبيلته مع مصالح غيرها من بطون مكة فانضموا إلى الأمويين يُعينوهم ويدعموهم، ثم بعد ذلك منوا عليهم بتلك المعاهدة فثبت أن كلب وأخواتها اليمنية كانوا موالين لبني أمية وكذلك كانت تغلب فكان طبيعي أن تقف قيس في الصفوف المعادية لبني أُمية.

وقد شب الأخطل في هذا السعار القبلي الذي اشتد أوراه بعد أن أسقطه الإسلام قبلاً بإسقاط الدماء ... ولكن طبع تغلب الأبي جعلها ترتضي دفع الجزيرة مؤثرة ذلك على الدخول في الإسلام " فلا غرو، وهذا مقام تغلب، أن ينشأ شاعرها الأكبر مزهوًا بمناقب قومه، مفاخرًا بأيامهم(٤)" وقد وقع عبء مواجهة بين

١- شعراء اللهو والخمر تاريخه وأعلامه صـ ٨٧.
٢- شعراء اللهو والخمر تاريخه وأعلامه صـ ٨٧- ديوان الأخطل ص ١٢.
٣- شعراء اللهو والخمر تاريخه وأعلامه صـ ٨٦ .
٤- المرجع السابق صـ ٨٨

الأخطل والجحاف قبل أن يتنسك الأخير ويتآله، وقد التقى بالأمويين عندما سب عبد الرحمن ابن حسان بن ثابت رملة بنت معاوية فهجاه أخوها ، لكن عبد الرحمن استعلاه مما دفع يزيد بالاستعانة بكعب ابن جعيل الذي رفض إعانته بهجاء الأنصار " مكررًا أرادي أنت إلى الكفر بعد الإيمان " فقد استهول أن يهجو قومًا أيدوا رسول الله ونصروه وخاف هذا المقتحم .. لكنه دله على غياث – الذي لقبه بالأخطل أي القيه لما لقى من اذاته، وما رأى من إيقاعه في أعراض الناس – وقال " إن لسانه لسان ثور" (١) .

وحينما عرض يزيد الأمر على الأخطل استأمنه فأمنه و منحه ذمة أمير المؤمنين وذمته فغضب منه الأنصار ....

فإذا نسبت ابن الفريعة خلته ... كالجحش بين حمارة وحمار
لعن الإله من اليهود عصابة ... بالخزع بين صليل وصرار
خلو المكارم لستم من أهلها ... وخذوا مساحيكم بني النجار
ذهبت قريش بالمكارم والعلا ... واللؤم تحت عمائم الأنصار (٢)

ومنذ هجاء الأنصار نال شرف القربى من أولى الأمر الأمويين " وبات في نظر أمية لسانها القاطع، وصحافيها السياسي المؤرخ، ولم ينسى الدفاع عن شؤون قبيلته في حروب قيس وتغلب، فسما مقامة واتسعت شهرته، وأعاد إلى الذروة عنفوان التغلبيين، وحظى بنعم البلاط، وبالمقام الرفيع فيه، ينادم يزيدًا ويشرب الخمر معه(٣) ثم غضب من الأنصار النعمان بن بشير، وكانت له حظوة مع معاوية إذ صحبه في حروبه ضد علي. فجاء يشكو لمعاوية هجاء الأخطل لقومه، فقال ما

١- ديوان الأخطل صـ ٧ .
٢- ديوان الأخطل صـ ٧ – الأدب ومذاهبة من الكلاسيكية الإغريقية إلى الواقعية الاشتراكية " محمد مفيد الشوباشي صـ ٤١- ١٩٧٠.
٣- شعر اللهو والخمر صـ ٩١.

حاجتك، فقال لسانه، فقال معاوية ذلك لـك، وعلـم الأخطـل فاسـتغاث بيزيـد، فدخل على أبيه فقال له إني جعلت له ذمتك وذمتي إذ رد عني، فقال معاوية للنعمان لا سبيل ذمة يزيد، فمدح الأخطل يزيد لذلك وحكي هذه الواقعة قائلاً:

أبا مالك، دافعت عني عظيمة وأدركت لحمى قبل أن يتبددا[1]

ورد النعمان الأخطل، فانسحب الأخطل من المعركة خوفًا على نفسه وقد قرب معاوية الأخطل منه وأغدق عليه حتى غدا الشاعر الرسمي للدولة يقول الأخطل:

أذا مت مات العز وانقطع الغني فلم يبق إلا من قليل مصرد

ورد أكف الراغبين وأمسكوا من الدين والدنيا بخلف مجددًا[2]

وقد نوه بمعاوية ونصرته على علي في صفين، وثبت ملك المسلمين في بيته إذ قال:

تمت جدودهم والله فضلهم وجد قوم سواهم خامل نكد

ويوم صفين والأبصار خاشعة أمدهم إذ دعوا من ربهم مدد

وأنتم أهل بيت لا يوازنهم بيت إذا عُدتَّ الأحساب والعدد[3]

مادحًا معاوية الذي أغدق عليه، ولكن بعد انتقال الخلافة إلى البيت المرواني تشعبت مناحي الهجوم على الأمويين فاحتاجوا لسانًا حادًا يذب عنهم ويصد الهجمات المستديمة التي تزعمها المناوؤن فاستعان عبد الملك بن مروان بالأخطل

١- شعر اللهو والمجون صـ ٩٠.
٢- ديوان الأخطل صـ ١٩١.
٣- المرجع نفسه صـ ١٩١.

الذي زاد دله.. فكان يمثل بين يديه ((وعليه جبة خرز وحرز خرز في عنقه سلسلة ذهب فيها صليب ذهب تنقض لحيته خمرًا)).

وقد مدحه بقصيدة مشهورة يقول فيها:

أذا مت مات العز وانقطع الغني   فلـم يبـق إلا مـن قليـل مصرـد

وقد جعل اشتط في المجاملة حتى اسند اختيار عبد الملك ابن مروان للحكم اختيار إلهي رغم حف الأعداء به والكذابون فقال:

ولكـن رآك لله موضـع حقهـا   وعـلى رغـم أعـداء وصـدادًة

من قصيدة بعنوان إليك أمير المؤمنين:

وقد سأله هشام بن عبد الملك الدخول في الإسلام فقال له " لا زلت مسلمًا في ديني. وكم أغراه عبد الملك ليعتنق الإسلام، فكان يتذرع بالطرافة في أجوبته، كي لا يؤذيه، فيشترط عليه، تحليل الخمر لأجله وإعفاءه من الصيام في رمضان، أو يقول له مداعبًا: ليست منزلة ملكك بالنسبة إلى الخمر" إلا كعلقة من ماء الفرات بالإصبع(١)".

وله فخر قوى بز فيه الفرزدق، إذ يقول وقد أقحم نفسه في الملاحاة التي شبت بين قطبي النقائض جرير والفرزدق حين أغراه "بشر" بالحكم بينهما فأعلن – استنادًا لأن معيار الشعر الجيد في العصر الأموي كان صلابته لا سهولته، فكان ذلك سببًا ظاهرًا على الأقل للعدواة بين جرير و الأخطل – تحيزه للفرزدق مما استوجب خصومة جرير أبدًا بالإضافة لسيادة ركيزتين أساسيتين على الساحة آنذاك ... آلا وهما التكسب والعصبية غذتا تلك العداوة المستحكمة والهجاء الضاري. ولا يُغفل جانب تشجيع قبيلة الفرزدق له على تفضيله وإغراءه بمهاجمة

١- شعر اللهو والمجون صـ ٨٧.

جرير بالإضافة إلى أن محمد ابن عمار أغراه بالحكم لجرير في موقف أخر والأخطل ... شديد التعلق بالمال قدلا يثبت على مبدأ فقد فضل الفرزدق في قصيدة قال فيها.

أني أديم لدى الصفاء مودتي وإذا تغير كنت ذا ألوان

وأفارق الخلان عن غير القلى وأميت عندي السر بالكتمان

أجرير إنك والذي تسمو له كأسيفة فخرت بحدج حصان

أتعد مأثرة، لغيرك فخرها وسناؤها في سالف الأزمان

أخسا كليب إليك إن مجاشعًا وأبا الفوارس نهشلاً، أخوان

وقد فضل جرير قبلاً حين قال:

إني قضيت قضاء غير ذي جنف لما سمعت ولما جاءني الخبر

أن الفرزدق قد شالت نعامته وعضه حية من قومه ذكر[1]

وقد دبرت الأيام ما أجرى الهجاء بينه وبين جرير فيما بعد، فقد رشا محمد بن عطارد بن حاجب بن زرارة الأخطل زقاق خمر وكساة حلة، على أن يُفضل الفرزدق **فقال جرير يهجو الأخطل:**

يا ذا الغباوة إن بشرًا قد قضى ألا تجوز حكومة النشوان

فدعو الحكومة لستم من أهلها إن الحكومة في بني شيبان

قتلوا كليبكم بلقحة جارهم يا خزر لستم بهجان[2]

١- الأدب ومذاهبة من الكلاسيكية الإغريقية إلى الواقعية الاشتراكية صـ ٤٢ محمد مفيد الشوباشي الهيئة العامة للتأليف والنشر.
٢- ديوان الأخطل صـ ٥.

للأخطل صولات وجولات في وصف الخمر وأحوالها و قد تأثر في معانيه بالأعشى في هذا الإطار يقول:

صهباء قد كلفت من طول ما حبست　　في مخدع بين جنات وأنهار

عذراء لم تجتل الخُطابُ بهجتها　　حتى اجتلاها عبادي بدينار[1]

وهو شديد التأثر بها كلف بسريانها في أوصاله.

تدب دبيبًا في العظام كأنه　　دبيب نِمال في نَقًا يتهيل[2]

كما تأثر بالنابغة فعرف كل منهما بتنخله للشعر وبدى تأثره في مدحه، فكلاهما بدوى متكسب بالشعر، منقحًا نتاجه، له في الإعتذاريات فبينما اعتذر النابغة لأبي قابوس اعتذر الأخطل للأمويين وبرًا ساحته حينما وقعت بينهما وشاية، وكان النابغة مداحًا للمُعطين، وكان الأخطل يمدح الحكام المقدرين لقيمة لفظه مثل خالد بن عبد الله بن أسيد، الحجاج، سماك الأسدي، وقد حرص الأول على تقليد الأخر، وتأثره بخمريات الأعشى غنيه عن التنويه.

مكان الأخطل الأخطل أصيل الإلهام جزل التعبير جرئ في أغلب شعره على طريقه الأقدمين وإن كانت شخصيته صبغت شعره ببعض الحيرة وقال عن ديباجته الجزلة أنه "طويل النفس محكم التعبير حسن السبك(٣)" ورغمًا عن ذلك اختلف النقاد حول نتاجه ففريق رفعه حتى قال حماد عجرد عندما سئل عنه ما تسألون عن رجل قد حبب شعره إلى النصرانية(٤) " وقال أبو عمرو لو أدرك الأخطل يومًا واحدًا في الجاهلية ما قدمت عليه أحدًا(٥) " هذا بالإضافة إلى أن الفضل ما

١- ديوان الأخطل شرح عبد الرحمن المصطاوي صـ ١٤٣.
٢- ديوان الأخطل صـ ٢٠٦.
٣- ديوان ت كاترين صادر صـ ٨.
٤- المرجع السابق صـ ٩.
٥- المرجع السابق صـ ٩.

شهدت به الأعداء فعلى الملاحاة بينها وبين جرير، إلا أن جرير لم يغمطه حقه وقال : " أدركت الأخطل وله ناب واحد، ولو ناب أخر لأكلني " وقال: "والله ما أخرج ابن النصرانية ما في صدره من الشعر حتى مات(١)".

وكان الأخطل شديد الاعتزاز بنفسه لا يحجمها أو يكبح جماحها وها هو ذي ينشد أبياتًا يهاجم فيها حُمَاته يقول مهاجمًا الأمويين.

أبنـــي أميـــة أن أخـــذت نـــوالكم فـــما أخـــذتم مـــن مـــديحي أكثـــر

أبنـــي أميـــة لي مـــدائح فيكمـــو تنســـون أن طـــال الزمـــان وتـــذكر[٢]

فقد غمز الأمويين أنهما على قدم المساواة وصُف الحـذاء بجـوار الحـذاء فهـم يجزلون العطايا، وهو يحبر المِدَح.

ولا يكتفي بالكلام في المطلق بل إنه – ثقـة وكبريـاءً – يـرى في نفسـه تفوقًـا واقتدارًا عن معاصريه وكان يجادل حتى الخليفة في ذلك **فعندما أنشـده عبـد الملـك قول كثير فيه :**

فـــما تركوهـــا عنـــوة عـــن مـــودة ولكـــن بحـــد المشرـــفي اشـــتعالها

معجبًا به فقال له الأخطل: ما قلت يا أمير المؤمنين أحسن مما قال، قـال ومـا قلـت، قال قلت.

أهلوا من الشهر الحرام فأصبحوا موالِي مُلك لا طريـف ولا غصـب

جعلته لك حقًا وجعلك تأخذه عصبًا .. قالت صدقت(٣)

١- المرجع السابق صـ ١٠-١١.
٢- الأدب ومذاهبه صـ ٤٢ .
٣- الأخطل شاعر بني أمية د السيد مصطفى غازي ط٢ صـ ٢١٣ دار المعارف مصر .

وخاطب يومًا الفرزدق، يحصرا سبب تفوق جرير وتميزه، فقال الأخطل للفرزدق "والله إنك وإياي لأشعر منه ولكنه أوتي من سير الشعر ما نؤته. قلت أنا بيتًا ما أعلم أن أحدًا قال أهجي منه، قلت:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأمهم بولي على النار!

فلم يروه إلا حكماء أهل الشعر ، وقال هو:

والتغلبي إذا تنحنح حك استه وتمثل الأمثال

فلم تبقى سقاة ولا أمثالها إلا رووه (١)

وكان الأخطل ينسب لنفسه التميز والتفوق في الأغراض الثلاثة الهجاء – المديح- النسيب ... يقول " فضلت الشعراء في المديح والهجاء والنسيب ... يقول " فضلت الشعراء في المديح والهجاء والنسيب بما يلح بي فيه. **فأما النسيب فقولي:**

ألا يا سلمى يا هند هند بني بدر وإذن كما حيانًا عِدى أخر الدهر

من الخفرات البيض، أما وشاحها فيجري، وأما القلب منها فلا يجري

تموت وتحيا بالضجيع، وتلتوي بمطرد المتنين منبتر الخصر

وقولي في المديح :

نفسي فداء أمير المؤمنين أبدي النواجد يومًا عارم ذكر

الخائض الغمرة، الميمون طائرة خليفة الله، يستسقى به المصر

وقولي في الهجاء:

وكنت إذا لقيت عبيد تيم وتيمًا، قلت: أيهم العبيد؟

١- المرجع السابق صـ ١١٣.

لئـــيم العـــالمين يســـود تـــيًّا وســـيدهم، وإن كرهـــوا مســـود[1]

لكن هناك من ترصد هناته وسقطاته بل إن أبا الفرج قال" فأما قدماء أهل العلم والرواة فلم يسووا بينهما لأن يلحق شأوهما في الشعر ولا له مثل ما لهما من فنون ولا يتصرف كتصرفهما في سائره، وزعموا أن ربيعة أفرطت فيه حتى ألحقته بهما(٢) " ففي رأيه أنه تقاصر عن جرير والفرزدق، وإذا كان التفصيل بين الشعراء أمر طبيعي غير منكور، فأقطاب العصر الأموي الثلاث جرير الفرذرق الأخطل لم يتفق العامة على تفضيل أحدهما يقول يونس ابن حبيب: الأخطل وجرير والفرزدق طبقة واحدة، ولم يقع إجماع على أيهم أفضل(٣)، والأخطال أفاض في معظم الفنون الشعرية... الفخر افتخر بقومه وبمنجزاته الشعرية، المدح ... أجاد في المدح بحكم موقعه من البيت الحاكم، النسيب ... انتهج نهج السابقين والمعاصرين في نسيبه فصدر به القصائد، والمقام لا يسمح بالحكم على نسيبه **وهو يقول إنه فضل الشعراء بقوله:**

ألا يـا اسـلمي يـا هنـد، هنـد بنـي بكـر وإن كـان حيًّـا قاعـدًا أخـر الـدهر

مـن الخفـرات البـيض، أمـا وشـاحها فيجري، وأمـا القلـب منهـا فـلا يجـري

الوصف .. غرض شعري تداخل في الأغراض الأخرى عند الشعراء كافة يقول د. جورج غريب " الأخطل من أصحاب الملحمات المحكمات النظم وقد عدوا له غير طويلة، أشهرها.

تغير الرسـم مـن سـلمى بأجفـار وأفقرت مـن سـليمي دمنـة الـدار

١- المرجع السابق ١١٤.
٢- الأغاني جـ١٩ صـ ٤٨.
٣- شعر اللهو والخمرصـ ١١٣.

وهو وإن كان هجَاءً " وحوي اللُهي بمديحة المشهور" على حد قول مروان بن أبي حفصة" إلا أنه أشهر بني أمية في وصف الراح ... وأشهر ما له في وصف صيد الثور بالكلاب، تشبهًا بالنابغة، ما جاء في رائيته من أبيات [1]

فبات في جنب أرطاة تكفئة   ريح شامية هبت بأمطار

وهو بيت من القصيدة التي نحن بصدها.

الهجاء ... من زعماءه ورواده بدأ حياته به، وهو الذي قربه من أولى الأمر "الأمويين" وهجاؤه به إقذاع لكنه جيد وكان يتقيه الجمع، ومن هجائه المقذع.

وكنت إذا لقيت عبيد تيمٍ   وتيمًا قلت: أيهم العبيدُ؟

لئيم العالمين يسود تيمًا   وسيدهم وإن كرهوا مسودوا

ولأخر لحظة قبل مماته أوصي شرًا بجري، وهجي هجاءً مقذعًا ...

أوصى الفرزدق عند الممات   بأم جرير وأعيارها

ألفاظه قوية جزلة ولكن لم تبرأ من الإسفاف أحيانًا، وعلى الرغم من عنايته بالصنيع الفني، إلا أن لأشعاره قعدت فلم تك سيارة كشعر جرير رغمًا عن طولها كمطولات الجاهلية، وعلى طول نفسه الإبداعي لم يحوي شعره إشراقات تعبيرية إسلامية غزيرة رغم انتشارها في ذلك العصر، وإقامته في البلاط الأموي، وتنصيبه شاعر الدولة الرسمي، وعلى غلبة النزعة الجاهلية، إلا أن النزعة الحضرية وجدت وإن كان بشكل محدود.

١- شهر اللهو والخمر صـ ٩٦ مطلعها.

يقول د. جورج غريب عن الأخطل: " أنه صاحب الابتكارات الروائع، الطويل الباع في مجالات المدح والهجاء، الكثير التفنن في وصف الخمر، المقدم على كل متطاول إلى الشعر السياسي في عهده، وإنه لمن إقرار بالفضل أن نجعله باعث الخمرة بعد موتها في جيرة الرشيد، فلولاه لعدمنا الصلة الخمرية بين الجاهلية وأبي نواس".

عوامل تطور الشعر في البيئة الأموية

الحياة في عصر صدر الإسلام اختلفت عنها في العصر الجاهلي، فالدعوى الإسلامية ، رسخت التوحيد ودعت إلى الاستقامة ونبذ المساوئ والتعلق بالمحاسن، ووجد المسلمون دعامتا الدين الكتاب والسنة يدعوان إلى التزهد والتمسك بالفضائل وأبان أن الملتزمين هم أهل التقوى والمغفرة (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكضون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر) فجعل المسلمين يتجهون إلى الأمل في عفو الله والانشغال باستجلاب مرضاته فقد ذهب رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: "دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس قال: أزهد فيما في الدنيا يحبك الله وازهد فيما أيدي الناس يحبك الناس"؛ فاعتنق كثير من الصحابة هذا المنهج راغبين فيما عنده تعالى (فعند الله مغانم كثيرة) وانصرف الكثيرون يطلبون رضا الله حتى أن عمر بن الخطاب كان يقول (استغزروا الدموع بالتذكر) وكان هو وولده عبد الله بن عمر من كبار الزاهدين .

كل هؤلاء وغيرهم كانوا يتوجهون تلقاء وجه الله يرجون رحمته "ورحمتي وسعت كل شيء"، "كتب ربكم على نفسه الرحمة"، "ويخافون عذاب ناره المستقر"، "إن عذابها كان غرامًا إنها ساءت مستقرًا ومقامًا".

وفي العصر الأموي انتشر الزهد والتنسك خاصة في العراق لتأثرها بالرهبنة المسيحية.

وكانت لهم أقوال مثل قول مورق العجلي: "ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدل على ربه"، وبكر بن عبدالله المزني الذي كان يقول: "الدنيا ما مضى منها فحلم وما بقى منه فأماني."

وحينما تمنى قوم في مجلس يزيد بن الرقاش الوعظ البكاء وقالو له تمني قال: (ليتنا لم نخلق وليتنا إذ متنا لم نبعث وليتنا إذا بعثنا لم نحاسب وليتنا إذ حوسبنا لم نعذب وليتنا إذا عذبنا لم نخلد)

وزاهد العصر الحسن البصري الذي كان يعظ الناس سيالة دموعه حتى تبل لحيته، مؤكدًا في الوعظ وكأنه يرى عذاب ربه فيقول:

"ليس الإيمان بالتخلي ولا التمني ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال، مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة".

ولا شك أن سيادة هذا الجو أثر في الشعر بشكل كبير.

١- الحياة الدينية:

لا شك أن الحياة الدينية أثرت في الشعر الأموي بل أن الصفات الدينية إيجابًا وسلبًا تواجدت في الشعر الأموي فيمدحون لوجود الخصال الدينية في الممدوح ويقدحون لخلو المهجو منه يقول كثير مادحًا عمر بن عبد العزيز:

وصدقت بالفعل المقال مع الذي ... أتيت فأمسى راضيًا كل مسلم

وقد لبست لبس الهلوك ثيابها ... تراءى لك الدنيا بكف ومعصم

وتومض أحيانًا بعين مريضة ... وتبسم عن مثل الجمان المنظم

فأعرضت عنه مشمئزًا كأنما ... سقتك مدوفًا من سمام وعلقم؟

تركت الذي يفنى وإن كان مونقًا ... وآثرت ما يبقى برأي مصمم

وضررت بالفاني وشمرت للذي ... أمامك في يوم من الشر مظلم

ويقول بن قيس الرقيات في مصعب بن الزبير:

إنــما مصــعب شــهاب مــن الله　　　تجلــت عـــن وجهـــه الظـــماء

ملكــه ملــك قــوة لــيس فيــه　　　جـــبروت ولا بـــه كبريـــاء

يتقـــى الله في الأمـــور كلهـــا　　　لمــح مــن كــان همــه الاتقــاء

فهو يجعل مصعبًا قبسًا من نور الله، يقول إنه مسلم أشد مـا يكـون الإسـلام ففيه تقوى وصلاح، وحكمه فيه تواضع وانقياد لله.

ويهجو الطرماح تميمًا بأنهم جبناء يخشون الأزد ويخافون مواجهتهم فلو حـان موعد وردهم وكان الحوض لرسول الله لأحجموا عـن الإقبـال خوفًـا مـن الأزد، ليس هذا فحسب بل لو تنزل عليهم وحيا بقتال الأزد وإن لم تقاتلهـا لتنـزل عليهـا العذاب لنقادت للعذاب ولم تستطع مواجهته الأزد.

لو حان ورد تمـيم ثـم قيـل لهـا　　　حــوض الرسـول عليـه الأزد لم تــرد

أو انـــزل الله وحيًــا أن يعــذبها　　　إن لم تعـــد لقتـــال الأزد لم تعـــد

فما أجبنهم من قوم وما أوهنهم من أصحاب عزائم، وكما أثرت الحياة الـدنيا في المدح والقدح أثرت في الغزل فترفع الشعراء في غزلهم وشاعت ألفاظ إسلامية في نظمهم.

فلتغير نفسية القوم تغيرت معانيهم التي تعتنقها قلوبهم فتقذفها على ألسنتهم ففكرة الجنة والنار والميقات ووجوب الإنفاق قبل الموت يتناولها الطرماح مسـتظلًا بظلال القرآن متأثرًا به.

كــل حــي مســتكمل عــدة العمـــ　　　ـــر ومــود إذا انقضىــ عــدده

عجبًــا مــا عجبــت للجــامع المــا　　　ل يبـــاهي بـــه ويرتفـــده

ويضـــيع الـــذي يصـــيره اللـــ ـــه إليــه فلـــيس يعتقـــده

يـــوم لا ينفـــع المخـــول ذا الثـــر وة خلانـــــــه ولا ولـــــــده

يوم يؤتى بـه وخصـماه وسـط الـ جـن والإنسـان رجلـه ويـده

خاشع الصـوت لـيس ينفعـه ثـــ ـــــم أمانيــــه ولا لــــدده

قل لبـاكي الأمـوات لا يبـك للنـا س ولا يســتنع[1] بـــه فنـــده

إنـــما النـــاس مثـــل نابتـــة الـــزر ع متـــى بـــأن[2] يـــأت محتصـــده

وهذه الأبيات أشبه ما تكون بموعظة من مـواعظ الحسـن البصـري، فهـي تستمد من القرآن، وما يتردد فيه من أن الناس لهم أجل محتوم (لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) وإنهم (لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم)، (يوم لا ينفـع مـال ولا بنون)، (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملـون) يـوم يـأتي الظالمون فيلاقوا أفعالهم مسجلة في كتابهم عند ربهم ، فهذه الصور متواجدة بكثـرة في القرآن والشـعراء يسـتهلمونها في أشـعارهم، والوعـاظ والخطبـاء يـذكرونها في خطابهم ، ومواعظهم ، والطرمَّاح يتبعهم فقد وردت هذه المعاني في الآيات القرآنية فالإكتناز ليس خيرًا (بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة). وإنه لينهي الأبيات بفكرة الموت التي تتردد في الذكر الحكيم كثيرًا مـن مثـل قولـه تعـالى (كـل نفس ذائقة الموت)، (وإنك ميت وإنهم ميتون). وفي مكان من شعر الشـعراء نجـد فكرة الموت وأن أحدًا لا يخلد، فالحياة الباقية هي الحياة الآخرة، أما هذه الحياة الدنيا فلا ينبعى لأحد أن يتمسك بها لأنها فانية.

١- يستنع: يتمادى، والفند: الحمق.
٢- يأن: يبلغ

فتأثير الحياة الدينية كان قويًا في الشعر والنثر وقد افتتح العجاج أرجوزته بقوله:

الحمد لله الذي استقلت بإذنه السماء واطمأنت

٢- الحياة العقلية:

الإسلام دين عقل أخرج الأمة العربية من طور البدو إلى طور الحضارة فلسعته وشمول أسسه استوعب الحضارات التي سبقته واذابها بداخله، ووسمها بمبسمه ففي انهيار السيول المعرفية من الحضارات السابقة إلى النهر الإسلامي حدث المزج فلا انفصال للعرى، بل صارت كلها معارف وعلوم إنسانية مصبوغة بصبغة إسلامية لا انفصال لبعضها عن بعض.. وإن صارت ذات مرجعية إسلامية قرآنية سنية قياسية مع التوسع في استخدام العقل وكد الذهن، فالعقل والرأي الصائب احتُرما منذ بزغ الإسلام فقد سأل أحدهم فقيه العراق الحسن البصري عن بعض فتاويه أبرأيه أم سمعها فقال: (لا والله ما كل ما نفتي به سمعناه).

واتسعت المدارس الفقهية وغطت المدن الإسلامية وظهر أعلامها فكان في مكة عكرمة ،وعطاء ، وبن أبي مليكان، وفي المدنية سالم ونافع وعروة بن الزبير، وفي اليمن وهب ابن منبه وطاووس، وفي مصر الصابحي ،وأبو تميم، ويزيد بن عبدالله، وفي الكوفة الحنفي ، والشعبي ، وشريح بن الحارث، وفي البصرة الحسن ، وبن سيرين، وغيرهم ممن أخذوا على عاتقهم إفهام الناس وفتياهم في أمور دينهم ودنياهم.

وظهرت مدرستان أحدهما تغلب العقل، والأخرى تغلب النص ومقصد المدرستان خيرًا فالقياس كان في العراق، وفي بيئة الحجاز غلب الحديث والنص ووقف وراء هذا الخلاف خير كثير للمسلمين للتوسع والرحمة كما قال صلى الله عليه وسلم: (اختلاف أمتي رحمة)، وعن يحي بن سعيد: "أهل العلم توسعه، وما برح

المفتون يختلفون فيحلل هذا ، ويحرم هذا، فلا يعيب هذا على هذا ولا هذا على هذا" وهذا الاختلاف والتنوع شحذ الأفكار، ونمى العقول، وجعل الناس يقبلون على الدين وهم ذوي اتجاهات شتى لرحمته وسعته.

روى عن النخعي إنه كان لا يقول عن شيء إنه حرام مطلقًا أو حلال مطلقًا وكان يقول إن هذا ينكرهه الصحبة وذك يستحسنونه، وجلس الناس للفتيا متلقين وباثنين في مختلف المجالس، وشاركهم الشعراء فقد كان جرير والفرزدق ملازمان لمجالس الفتيا جرير لدى بن سيرين، والفرزدق في حلق الحسن البصري،

وذاع النشاط العقلي وكثر كظهور الفرق المختلفة كالمرجئة والخوارج، فالمرجئة أرجأت الحكم على المسلم لله فلو نطق بالشهادتين ولم يؤدي الفرائض فهو مسلم ولا دخل لنا، كذلك دعا لترك الحكم على مصير الناس إلى ربهم .. فعلي ومعاوية وعثمان مؤمنون والحكم عليهم من خالقهم، ورأوا أن لا تقتصر الخلافة على قريش بل ترد إلى الأمة تختار من تشاء من بيت علوي ، أو أموي ، واعتنقت كثرتها الجبر فالإنسان مجبر على ما يفعل عطلت حريته أمام القدر وثابت بن قطنه نظم أبياتًا في شعر المرجئة يقول:

يرجى الأمور إذا كانت مشبهة ... ونصدق القول جار أو عندا

المسلمون على الإسلام كلهم ... والمشركون أشتوا دينهم قددا[1]

ولا أرى أن ذنبًا بالغ أحدًا ... م الناس شركًا إذا ما وحدوا الصمدا

وما قضى الله من أمر فليس له ... رد وما يقض من شيء يكن رشد

كل الخوارج مخط في مقالته ... ولو تعبد فيها قال واجتهدا

١- أشتوا: فرقوا. قددًا: فرقًا مختلفة الأهواء.

أمـــا عـــلي وعـــثمان فـــإنهما عبــدان لم يشـــركا بـــالله مـــذ عبــدا

فقد نظم فيها أهم أسس المرجئه عدم تكفير المسلمين عكس الخوارج، أرجاء الحكم على علي وعثمان ومعاوية مسألة الجبر والاختيار. فالمعروف أنهم كانوا فريقين أحدهم يقول بالجبر الإنسان يجبر على ما يفعل بما كتب عليه، وأخر يقول بالاختيـار الإنسان يأتي بحريته أفعاله فهو سيحاسب عليها وهنا مزجت السياسة بالعقيدة.

فتوارى فريق ليقول أن حكم الأمويين قدرًا مقدورًا ويجب الخضوع إليه مهما ظلموا أو افتروا، وآخرون رأوا أن الإنسان مسئول عن مسلكه واختيـاره خضـوعًا أو رفضًا ، وكان من أنصار القدرية الحسن البصري، ويرجع دائمًا للنصوص المؤيدة ويقف وراءها السياسة أيضًا فيروى أن عطاء بن يسار ومعبدًا الجهنـي كانـا يأتيـان فيقولان أن هؤلاء الملوك "بني أمية" على قدر الله فيقول كـذب أعـداء الله"، وكـان يعتنق فكرة معنـى قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾فهـي تؤكـد مسـئولية الإنسان عن أفعاله وتشعبت الفرق.. مرجئه، شيعة، خوارج، قدريـة، جبريـه وزاد البحث وتناقش الناس سلمًا وحربًا فيما حولهم من الأمور وتشعبت الناس لتشـعب الأهواء والمسالك ، وعقلية الشارع الأموي تأثرت بهذا المناخ الذي يمور بحركـات متعددة حتى أن الكميت استدل لبيت على بديوان الهاشميات كاملاً يثبت فيـه لهـم أحقيتهم في الحكم وتظهر طرافة وعمق في التفكير ... وقـد كـانوا يضـعون الشـعر الجاهلي نصب أعينهم ... ربما أعجبتهم الفكرة وكانت ناقصة فأتموها ... أو مبهمـة فأوضحوها ... أو مشتته فأقاموا سنادها.

فكثير منهم كـان يعـرف القـراءة، فعمـر بـن أبي ربيعـة كـان كاتبًـا وجريـر والفرزدق وذي الرمه الذي قال لعيسى بن عمر: "أكتب شعري فالكتاب أحب إلي من الحفظ ، لأن الأعرابي ينسى الكلمة وقد سهرت طلبها ليلته، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ثـم ينشـدها النـاس والكتـاب لا ينسـى ولا يبـدل كلامًـا بكـلام"،

فالشاعر الأموي يكتب شعره وشعر غيره ثم يعاود النظر فيه درسًا وتحويرًا نقلًا وتحسينًا، فالعقل الأموي نتيجة للظروف صار له سمات محددة وشيات مميزة قائمة على الجدل والفكر الذي سبقه تولد المعاني والاستقصاء، وظهرت ظاهرة التخصص فتخصص عمر بن أبي ربيعة في الغزل، وذو الرمة في وصف الصحراء.

فالشاعر الجاهلي ينظم من الشعر ما يلفت نظر الشاعر الأموي فيكمل ما بدأه فالنابغة شبه ثور الوحش في التماعه بالسيف المجرد من الغمد يقول:

فجأء من بعده الطرماح ورأي أن يبرز الصورة إبرازًا جديدًا، فشبه الثور وهو يبدو تارة ويختفي أخرى بسيف في يد شخص بمكان عال، وهو يسله تارة ويغمده تارة، فقال:

يبدو وتضمره البلاد كأنه　　　سيف على شرف يسل ويغمد

ومن ذلك أن زهيرًا تعرض للموت والحياة، فقال إن المنايا تخبط على غير هدى فمن تصبه يمت، ومن تخطئه يعمر ويمتد به الأجل، إذ يقول:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب　　　تمته ومن تخطي يعمر فيهرم

فأتى من بعده أبو النجم العجلى، ورأى أن يعبر عن هذه الفكرة تعبيرًا جديدًا أو قل رأى أن يبسطها بسطًا، وأن يكشفها كشفًا، فقال:

إن الفتى يصبح للأسقام　　　كالغرض المنصوب للسهام

أخطاه رام وأصاب رام

ولعل العقلية الجديدة تلك وجدت نتيجة للتواصل بين ذوي التخصصات المختلفة، فالشعراء والمحدثون والفقهاء والمتناظرون ، كانت تجمعهم جلسة واحدة ويطالعوا أفكار وآراء بعضهم البعض وانتشر كثير من الشعراء هدفوا إلى التعليم

فظهر شعراء نظموا شعرًا لتعليم اللغة للصبيان أوابدها وغريبها وأذاعوا اللغة وعملوا على نشرها في مناخ يحدث توازانًا بين الغاية الوجدانية والغاية والتعليمية ، فقد عمل على نشر اللغة شعراء ، أما الرجاز بعدهم هدفوا فقط إلى التعليم وحفظ اللغة بتسجيل الشاذ والنادر والشارد فصارت أشعارهم متونًا لغوية للحفظ والتسميع، فالشعر نتيجة التحام المنهج الفكري والعقلي مع الحس الوجداني صار ذو صبغة فنية متميزة تدل على رجاحة العقل العربي وتفاعله مع المؤثرات المختلفة.

٣ـ الحياة الاجتماعية:

تشكلت الحياة الاجتماعية بالشكل السياسي فنتيجة لحكم الأمويين الهادف لإلهاء الناس عن النظر في الحكم اختلفت الحياة في الشام والحجاز عنها في العراق فقد أغرق الأميون الأموال الطائلة على الحجازيين مما جعلهم يقبلون على المطارف والملاهي ولاسيما الغناء الذي شاع وساد في الحجاز، فيروى أن مالكًا صاحب المذهب المعروف حاول في أول أمره أن يكون مغنيًا ، واشتهر عطاء وبن جريح من فقهاء مكة بإقبالهما على سماع الغناء كما ورد في الأغاني.

وأقبل الخلفاء الأمويون على اقتناء المغنيات حتى إن يزيد بن عبد الملك اشترى مغنيتين بأربع وعشرين ألف... حبابة بأربعة آلاف وسلامه القس بعشرين ألف وذلك ليزين بهما دار الخلافة.

والشعر واكب تلك الرقة فكان يؤلف للغناء لذا اكتمل من الناحية الفنية وكان يطير من الأفواه ليستقر في الأذان عاكسًا حالة شعورية قلبية تفيض رقة وإحساسًا والشعراء التفوا حول المغنيات في دور الغناء يبثونهم إحساسهم ويظهروا محاسنهم والمغنيات مستمعات بذلك وها هو الأحوص يقول في الذلفاء:

إنما الذلفاء همي ... فليدعني من يلوم

أحسن الناس جميعا ... حين تمشى وتقوم

حبـــب الــــذلفاء عنــــدي منطـــــــــــق منهـــــا رخـــيم

أصـــــل الحبـــــل لـــــترضي وهــــــــي للحبـــــــل صــــــروم

حبهــــــا في القلـــــب داء مســـــــــــــــتكن لا يـــــــريم

ارتبطت دنيته بالذلفاء فجعلها هي الدنيا إذا أقبلت عليـه أقبلـت الـدنيا وإذا أدبرت أدبرت الدنيا، وهو هنا اختلف عن الشاعر الجاهلي، فالشاعر الأموي ترفت حياته ورقت مشاعره وترفت.

أما الجاهلي فلم يلك عنده هذا الانكاب على المرأة لخشونة حياته وجفافها.

٤ـ الشعر والغناء:

تأثر الشعر بالغناء الذي ساد في العصر الأموي فالشاعر لم يعـد حـرًا في نظـم شعره بل هناك مغنيون ليسوا عربًـا ولـه ذوق خـاص فـرض عـلى الشـاعر فسـهل أسلوبه وتخصص موضوعه –غزل– وقرب معناه مـن المتلقـين وصـار الشـعر آراء ولمحات تقال في المرأة ليعبر عن أحداث ووقائع وجدانية حاضرة، والمغنيات فرضن على الشعراء نمطًا قريبًا للحس والنطق والأذن.

فاللغة التي كتب بها قريبة إلى الحياة اليومية تجـري عـلى الألسـن بعيـدة عـن الأغراب واللفظ النابي فقـد خضـعت لـذوق متحضرـ متجـدد فـالآلات الوتريـة والطبول الموسيقية تحت أيديهم مباشرة مما سمح لهم بالاستحداث والتجديد.

لذا قد اختلف ديوان عمر بن أبي ربيعة عن المقطوعات الشعرية التي نظمهـا للغناء ابتداءً لأنه يحتاج إلى مد وجهر أحيانًا، أو تقصير وهمـس أحيانًـا أخـرى كـما يقتضي اللحن ويرغب المغنيون، فالمقطوعة صارت لا تزيد عـن عشرـ أبيـات كلهـا تخص الحب ، والمغنيون يتدخلون بالحذف والتبديل والتقديم والتأخير كـما يـتراءى لهم حريصين على استخدام الأوزان الخفيفة مثل الـوافر، الهـزج المتقـارب، الرمـل،

السريع، الخفيف، ويدخلون عليه أيضًا كثير من الزحافات، فإذا أعجبتهم مقطوعة ذات أوزان طويلة عمدوا إلى تجزئتها حتى يتيسر غناءها.

٥ـ الحياة الاقتصادية:

المستوى الاقتصادي ينعكس على الفرد وبالتالي ينعكس على فكره ومنهجه في الحياة، فالحياة المترفه التي توفرت في الحجاز والشام أوجدت شعرًا يعد صدى لتلك الحياة يمثل لهوها بهجتها وسعادتها، وفي الصحراء لم تلك الحياة بكل ذلك اليسر ـ فانعكس شظف العيش والحرمان والفقر على أشعارهم فالطاقة الاقتصادية تحكم في الإنسان حسه وفكره ونمط حياته.

بل للحياة الاقتصادية كثرة وقلة قد تفرز نماذج محددة مصبوغة بصبغتها فالترف والمال أوجدا شاعر الخمريات الوليد بن يزيد والبؤس والفقر أوجد الكثير من الشعراء منهم من أنصرم من الدنيا متنسكًا وزاهدًا، ومنهم من كرهها ونقم عليها.

والعامل الاقتصادي كان يحرك الإبداع في داخل الشعراء فأموال بني أمية وعطاياهم كان يسيل لها لعاب الشعراء ويشدون الرحال إليها.

يقول جرير مادحًا عبد الملك بن مروان على لسان زوجه:

تعزت أم حزرة ثم قالت ... رأيت الواردين ذوي لقاح[١]

تعلل وهي ساغبة بنيها ... بأنفاس من الشبم القراح[٢]

ثقي بالله ليس له شريك ... ومن عند الخليفة بالنجاح

أغثني يا فداك أبي وأمي ... بسيب منك إنك ذو ارتياح

١- اللقاح: جمع لقحة، وهي الناقة الحلوب.
٢- تعلل: تشغل وتلهى، الشيم: البارد، القراح: الصافي.

سأشكر إن رددت على ريشى وأنبت القوادم في جناحى

وكثر الشعراء المادحون لبني أمية جرير شاعر الحجاج وعبدالملك.

ولم يك الموضوع يقصر على الولاة بل أيضًا القواد ، فالأهمية الكلمة التي تقيد المجد، وتذيع الجود، وتخلد الاسم كانوا يكثرون العطاء. واشتهرت أسر بذلك فالبرامكة في العصر العباسي والمهالبة في عصر الأموي نظم في كرمهما الكثير يقول بكير بن الأخنس:

نزلت على آل المهلب شاتيا فقيرًا بعيد الدار في سنة محل

فما زال بي إلطافهم وافتقادهم وإكرامهم حتى حسبتهم أهلي

وقال أيضًا:

وقد كنت شيخًا ذا تجارب جمة فأصبحت فيهم كالصبي المدلل

٦- الحياة السياسية : حاك معاوية الحياة السياسية بمغرز الترغيب والترهيب (فاتخذوا المال واغداقه على الأنصار والخصوموسيلة لتثبيت عرشهم، لا يتقيدون في ذلك بقوانين الشريعة ، ونظام الصدقات أغدقوا على خصومهم تخفيفًا لنقمتهم وعلى أنصارهم استبقاء لمعونتهم) [١]وظل هذا شأن معاوية إبّان حكمه الذى غلب عليه مصانعة (معارضيه بالدهاء والعطاء والإغضاء والحزم حتى استوثق له الأمر طيلة حياته)– على حد قول أحمد حسن الزيات– [٢] وبعد وفاة معاوية ضعفت قبضت الولاة على زمام الأمور وحكمها ونتج عن ذلك ظاهرتان إجتماعيتان أوجدتها الحياة السياسية الجديدة ؛

١تاريخ النقائض في الشعر العربي د أحمد الشايب صـ١٧٩ مكتبة النهضة المصرية ط٢
٢تاريخ الأدب صـ ١٠٦ دار نهضة مصر

أولاً : اشتعال العصبية القبلية : - التي كانت في البداية للأمويين ثم صارت عليهم – واشتعالها كان نتيجة لإيثار معاوية الشام وإغداق العطايا لهم فآذرته القبائل اليمانية ، وانحازت لخالد بعد وفاة أبيه يزيد بن معاوية ، وحصرت الخلافة فيه ، لكن (كبراء بنى أمية آثروا مروان ابن الحكم على أن تكون الخلافة من بعده لخالد إلا أنه غدر وورث الحكم بنيه)[1] امتد التعصب من الخلفاء إلى الولاة فتعصبوا للأمويين ومن أيدهم وناصبوا معارضيهم العداء، فاشتعلت العصبية في البوادي والحواضر وزاد ظلم الولاة وشرههم للتقرب من الحكام بالفتك بمعارضيهم وها هو ذا معن بن زائدة والي اليمن يعمل سيفه في اليمنية تعصبًا لقومه من ربيعة ، وانقسمت الكوفة إلي قسمين شرقى وغربي ، ثارت بينهما الخلافات واشتعلت العصبيات بعد أن أطفأها الإسلام أشعلها الحكم الأموي فأخذت في التفاخر بالأحساب والأنساب ثم التهاجي ثم كونت أحزابًا قضت مضاجع الأمويين وقلقلت استقرارهم ، يقول د أحمد الشايب عن العصبية القبلية وخطرها إنه قد (استغلها الأمويون لعلها تسند سياستهم قد عادت عليهم بالوبال وجعلت عصرهم معرضا للاحن و الثارات وجعلتهم ملعبه بين اليمن ونزار خاصة حتى تقدم الموالي واستعانوا ببعض العرب على بعض وذهبوا بملك الأمويين) .(٢)

وقد زاد السخط على بني أمية وكثر مناوؤهم إذ رأوهم خالفوا ضوابط الإسلام وعادوا إلى الانحلال الجاهلي ، ورغم استعانتهم بولاة وقواد أكفاء مكنوا قوتهم إلا أن ذلك كان إلى حين إذ سرعان ما تسلل سوء الاختيار إلي ولاتهم فعينوا فسدة ظلموا الرعية وعاثوا في الأرض فسادًا فناوأهم جمهور القراء وأهل التقوى وأشاعوا السخط بين الناس واستحقنوهم عليهم ، لكن هذا الجمهور لم يستطيعوا أن ينتظموا في حزب محدد القسمات ، لكنهم مؤثرون، ومما ساعد على حدة الاحتقان التحويل والتغيير فى السياسة الأموية يقول د شوقي ضيف (حولوا الخلافة عن المدينة حاضرتها في الحجاز إلى دمشق ولم يعودوا يستندون في حكمهم

١أدب السياسة في العصر الأموي د أحمد الحوفي صـ ٣٧٧ – بتصرف نهضة مصر ط ٦
٢تاريخالشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني صـ ٣١٢ مكتبة النهضة المصرية طـ٦

على قريش ، بل أصبحوا يستندون على قبائل الشـام اليمنيـة) [1] وقـد حـول نظـام الولاية من شورى إلى توريث مما كان له تداعياته على المجتمع العربي المسـلم الـذي كان قريب العهد بالشورى ومعتادًا للبيعة فغير الأمويـون ذلـك إلي (حكـم زمنـي متأثر بأسباب دنيوية ، مطبوع بالعظمـة وحـب الـذات ، فلـم تلبـث سياسـتهم أن أغضبت طوائف كثيرة من العرب والموالي على السواء) على حد قول د هدارة[2] وقد مارت الحياة السياسة بالاحتقان وشحذ العباسيون الناس خفية ضد الأمويين

ثانيا : تكوين الأحزاب: انقسمت البيئة الأموية أحزابًا وشيعًا ظاهرها ديني ، وباطنها سياسي كل حزب فرح بما لديه، وغرقوا في صراعات متوالية

١تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي صـ ١٩٢ دار المعارف طـ٧
٢اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري د محمد مصطفى هدارة صـ ٢٨ دار المعارف

المدارس الشعرية([1])[2]

الغـزل بقسـميه التقليـدى و العـذرى .... والنقـائض الشـعرية ... الشـعر السياسي ... المديح ...

حيث أخذت هذه الأغراض تتجلى متزينة زيًـا جديـدًا أضـفاه عليهـا الحيـاة السياسية وتوابعها الاجتماعية والاقتصادية والدينية.

الغزل التقليدي أو الحسي وهوامتداد للتجربة الجاهليـة فقـد افتـتح الشـاعر قصيدته بهذا النوع من الغزل ثم يدلف إلي الغرض المقصود ..من مدح أو هجاء أو رثاء وقد يوقف القصيدة كلها على الغزل وقد اشتهر في ذلـك ذو الرمـة ، والراعـي النميري ، وابن الدمينة يقول عدي بن الرقاع:-

عـــرف الـــديار توهمـــا فاعتادهـــا من بعـد مـا شـمل الـبلى أبلادهـا

إلا رواسي كلهـــن قـــد اصـــطلى حمـــراء أشـــعل أهلهـــا إيقادهـــا

ثم يقول كالظبية البكر الفريـدة ترتعـي من أرضـها قفراتهـا وعهادهـا (٣)

الغزل العذري:

ينسب الغزل العذري إلى قبيلة بني عذره وهو غزل كـان قـائم عـلى التغنـي بشدة الوجد والحب والحرمان من المحبوبة والإخلاص لها والتوحد معهـا ، وعـلى

٢-المقصود بالمدرسة : ظهور حركة شعرية لها مقوماتها وأصولها وخصائصها الفنية التى يتجمع حولها طائفة من الشعراء ، يتفقون في النزعة الشعرية ، ويصدرون في نتاجهم عن روح واحدة ، ويسيرون على نمط متقارب ، قد تتفاوت تجاربهم الشعرية في جزئياتها وتفاصيلها ، ولكنهم يتحدون في الأسس العامة ويجمعهم نسق واحد

٣- ديوان عدي بن الرقاع صـ ٨٢

الرغم من أن هذه الظاهرة وجدت عند كثيرين: قيس بن الملوح –العامري– وقيس بن ذريح – الكناني – وكثير عزه –الخزاعي–

إلا أنه وسم باسم هذه القبيلة وذلك لشيوعه فيها[1] وسئل إعرابي من بني عذره عن سبب رقة قلوبهم وشفافيتها، فقيل له: ما بال قلوبكم كأنها طير تتماث كما يتماث الملح في الماء، أما تتجلدون فقال إننا ننظر إلى محاجر أعين لا تنظرون إليها"[2].

وربما يرجع ذلك لجمال نساءهم ، ورقة قلوب رجالهم ، حتى قيل لإعرابي ممن أنت فقال من قوم إذا أحبو ماتوا فقالت جارية سمعته عذري ورب الكعبة.[3]

وقال د. يوسف خليف أن الأدب العذري ظاهرة مثلته قبيلة بني عذره خير تمثيل لغلبته على أهلها ووجود كثير من العشاق ينسبون لها وقد جاء أول تعبير بلفظ عذري على لسان جميل بن معمر العذري صاحب بثينة إذ يروى أنه استضاف رجلًا اسمه جعفر يحب ابنه عم له ... ووضع له خبزة فجعل الرجل يأكل بنهم وهو يحدث جميل عن بنت عم له يحبها حتى أتى على الخبزة .... فقال جميل:

وقد رأيني جعفر أن جعفرًا الح على قرص ويبكي على جمل

لو كنت عذرى العلاقة لم تكن بطيئًا ونساك الهوى كثرة الأكل

فقال في موضع آخر:

ولو لا ابنة العذرى ما بت موهنًا لبرق عنا من نحوها يتهلل

فقال في موضع آخر:

إن هي قالت لا سبيل فقل لها عناء على العذرى منك طويل[4]

١-الحب العذري صـ ٢٠ بتصرف.
٢-وفيات الأعيان حـ ١ صـ٣٦٦.
٣-نفسه جـ ١.
٤- ديوان جميل جمع وتحقيق جـ ١٨٢ صـ.

نشأة الغزل العذرى:

اختلف في نشأته هل هو جاهلي أم إسلامي؟ قيل إن الغزل العـذرى يرجـع بأصوله إلى العصر الجاهلي وهو يتمشى مع طبيعة الجاهلي المعتـدل الـذي يميـل إلى الفطرة والخلق القويم يحوز خصال كرام كالشجاعة والإباء والعفة والوفاء بالعهـد واستدلوا على ذلك بعدة ظواهر:

أ. تماثلت صفات وخصائص العذريين الجاهلين مـع أقـرانهم الأمـويين كالعفـة والطهر وصدق العاطفة وتغليب الجانب الروحي على الجانب الجسدي.

ب. تشابه قصة حياة الشعراء العذريين في الجاهلية والعصر الأمـوي فجمـيعهم ذوي الحس المرهف والحب الطاغي قضى علهم الحرمان والعشق.

ج. البيئة البدوية هي الحيز الذي ضم التجربة الأموية والجاهلية بما اتسمت به من الاتساع والسهول والجبال والوديان وهي أمور تساعد عـلى التأمـل وإطـلاق العنان للمشاعر والأحاسيس.

د. ورد ذكر بعض العذريين الجاهلين في أشـعار العـذريين الأمـويين مـن أمثـال المرقش، عبدالله بن عجلان، يقول جميل فيه ردًا على من لامه على حبها.

وعـــــازلون لمـــــوني في مودتـــــه	**يــاليتهم وجــدوا مثــل الــذي أجــد**
لمــا أطلــوا عتــابي فيــك قلــت لهــم	**لا تفرطوا بعض هذا اللوم واقتصدوا**
قد مــات قــبلي أخــو نهــد وصــاحبه	**مرقش واشتفى مـن عـروة الكمـدوا**
وكلهـــم كـــان مـــن عشـــق منيتـــه	**وقد وجدت بها فوق الذي وجـدوا[1]**

١- قيس ولبنى ودراسة تحقيق د/ حسين نصار صـ ٧٧.

وما كان هؤلاء الشعراء ليشيروا إلى العذريين الجاهلين لو لم تكن لهم حقيقة ثابتة وذائعة وأخبار مروية دائرة على ألسنة الرواة[1].

٥. يرى فريق آخر أن الحب العذري نشأ في البيئة الأموية ، نتيجة لسمو الإسلام بالروح والوجدان والمشاعر .. إضافة إلى أنه ارتبط بأشياء ظهرت بعد الإسلام من تغير وتطور في شكل الخلافة.

يقول د/ محمد القشلان: "الحق أن للغزل العذري جذورًا جاهلية سابقة على الإسلام لم يخلق هذا اللون من عدم وإنما ساعد على ازدهاره وشيوعه بفضل ما دعا إليه من مبادئ سامية وقيم تربوية وخلقية رفيعة تحض على العفة والفضيلة ومغالبة الأهواء تعهد بها نفوسنا وأزكى بها وجداننا ، فهيأ بذلك الجو الملائم لنموهذه العاطفة العفيفة وازدهارها بصورة لم تكن معهودة من قبل حتى أصبحت ظاهرة شائعة في العصر الأموي[2].

فالشعر العذري قد امتد بجذوره إلى العصر الجاهلي وهم الشعراء المتيمون ثم سار ظاهرة وتجربة يشار لها في العصر الأموي واشتهر كل شاعر بصاحبته التي بها شبب ولها يمدح.

فهناك كثير عزه، جميل بثينة، مجنون ليلى ... كل منهم له قصة تدل على مدى تأثير الإسلام في النفوس وكيف رقق المشاعر وهذب الأحاسيس وجعل الشعراء الذين يفاخرون بحبهم وفسوقهم وارتيادهم كل شهوة وارتكابهم كل فاحشة يتعففون ويسمون على مشاعرهم ونزواتهم فإذا كان الشعراء الجاهليون تغنوا بالحواس ومدركاتهم ؛ فإن العذريين تمسكوا بالروح وشفافيتها قال أمرؤ القيس :

سموت إليها بعدما نام أهلها　　سمو حباب الماء حالًا على حال

١- التجربة العذرية صـ٢٨ بتصرف.
٢- المرجع السابق صـ ٢٨.

فقالــت ســباك الله إنكفاضــحي ألست ترى السمار والناس أحوال

فقلــت يمــين الله أبــرح قاعــدًا ولو قطعوا رأسي لديك وأوصــالي

فلــما تجاذبنــا أطــراف الحــديث هطلت بغصن ذي شماريخ طــوال

أو كما قال المنخل الشيكري[1]:

ولقــــد دخلـــت عـــلى الفتـــاة الخـــدر في اليـــوم المطـــير

الكاعـــــب الحســـــناء نــــر فل في الـدمقس وفي الحريـر

فــــــــدفعتها فتـــــــدافعت مشـــي القطــاه إلى الغــدير

ولثمتهـــــــا فتنفســـــــت كتـــنفس الظبـــي البهـــير

فـــدنت وقالـــت يـــا منخـــل مــا بجســمك مــن حــرور

مـا شـفت جسـمي غـير حبـك فاهـــدئي عنـــي وســـيري

فكلاهما يشرح اتصاله بالمرأة اتصالًا مباشرًا حاكيًا موقفًا عاطفيًا مؤثرًا ... أما في العصر الأموي فهناك العفة والحرمان الذي جعل الشـاعر يلـق محبوبتـه ولفـرط هيامه بها ينسى ما يريد قوله فيقول[2]:

وإني لأخشــى أن أمــوت فجــأة وفي النفس حاجات إليك كما هيا

وإني لينســـيني لقـــاءك كلـــما لقيتــك يومًــا أن ابثــك مــا بيــا

١- دراسات في الأدب الجاهلي د/ عبدالله حسين صـ ١٩٠.
٢-

وقــالوا بــه داء عبــاء أصــابه وقد علمت نفســي مكان دوائيًـا

فهو على هيامه بها سها عن إخبارها بذلك بمجرد مرآها ،بل إن أقصى أمانيـه أن يصرح بأنه يحبها منذ صغرها فيا ليت الكبر لم يدركهما يقول:

تعلقـت لـيلى وهـي ذات ذؤابـة ولم يبد للأتراب من ثديها حجم

صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم

وفي رقة بالغة واستتار عفيف تجيبه ليلى بأنها به متيمـة ولـه عاشـقة لكـن لا سبيل إلى المصارحة.

كلانـــا مظهـــر للنـــاس بغضـــا وكـــل عنـــد صـــاحبه مكـــين

تبلغنـــــا العيـــــون مقالتينـــــا وفي القلبـــين ثـــم هـــوى دفـــين

وقيل إن هذين البيتين سبب ذهاب عقله، يقول الأصبهاني: ولما سمع هذين البيتين شهق شهقة عظيمة وأغمى عليه فمكث كـذلك سـاعة ونضـحوا المـاء عـلى وجهه حتى أفاق ... وتمكن حب كل واحد منهما في قلب صاحبه وبلغ منه كل مبلغ وكان لا يلبس ثوبًا إلا خرقه ولا يمشي إلا عاريًا ويلعـب بـالتراب ويجمـع العظـام حوله فإذا ذكرت ليلى أنشأ يقول ويحدث عنها عاقلًا لا يخطـئ حرفًـا فهـذا موقـف مضاد تمامًا لحالة العشق المقترنة بالغى التي كانت موجودة عند الشـعراء في العصرـ الجاهلي.

١- قيس بن زريح:

ومن العشاق الذين عفوّا في شعرهم قيس بن زريح الـذي علـق لبنـى ونشـأ مجاب الطلب ملبي الدعوات فتزوجها وشغل بها عمن سواه مما أشعل غيره أمـه ولم يولد فدعت أبيه إلى أن يزوجه من تنجب له لأنه صاحب مال وعـير فأرغمـه أبـوه

على طلاقها ... ففعل امتثالًا لرأي أبيه لكنه فقد رشده فأشار الناس عل أبيه بتزويجه ففعل وعندما علمت لبني بزواجه تزوجت هي الأخرى وعندما علـم حـزن حزنًـا شديد وقيل إنه ذهب إلى زوج لبنى (ليقبض ثمن ناقته التي كـان قـد ابتاعهـا لـه في أمسه –استقبلته لبنى فبهت من رؤيتها وولى هاربًا وخـرج زوجهـا في أثـره بـالثمن فقال له: لا تركب لي مطيتين أبدًا ... قال أنت قيس بـن ذريـح، قـال: نعم،فعـرض عليه أن يترك لها الخيار فإن اختارته طلقها وكان يظن أن له في قلبهـا موضـعًا– فلـما خيرها اختارت قيسًا فطلقها ولكنها ماتت في العدة[١].

وهناك رواية أن لبنى ماتت قبله ثم وقف يبكي على قبرهـا ولم يـزل علـيلاًلا يفيق ثلاثة أيام حتى مات ودفن إلى جوراها[٢].

وهي تشبه قصه عبدالله بن جدعان وصـاحبته هنـد في العصرـ الجـاهلي فقـد حب .... فعف ... فمات امتثالًا للواجب وانصياعًا وخضوعًا لرغبة الآباء.

٢- قيس بن الملوح:

قيل أنه حب ليلى لأنها كانت من أجمل النساء وأظرفهن .. وقيل أنه أحبها منذ الصغر فشبا معًا وتعلقًا ببعضهما.

تعلقــت لــيلى وهــي ذات ذؤابــة ولم يبـد للأتـراب مـن ثـديها حجـم

صغيرين نرعى الـبهم يـا ليـت أننـا إلى اليـوم لم نكـب ولم تكـبر الـبهم

أما ابن الكلبي فقال:أنه أتي مرة وعليه حلتان من حلـل الملـوك فوجـد نسـاء كثيرات وهي مـن بيـنهن فنـزل عـن ناقتـه وعقرهـا لهـن ، وجلسـن حولـه يغنـين ويتسامرن فلما رأو أعرابيًا يدعي منازل قادمًا انصرفن عنه إليه فاستاء وقال:

١- قيس ولبنى د/ حسن نصار صـ ٣٣-٣٤.
٢- حديث الأربعاء طه حسين حـ ١ حـ ٢٠٧.

أعقـر مـن جـرا كريمـة نـاقتي ووصـلى مفـروش لوصـل منـازل

إذا جـاء قعـتن الحـلى ولم أكـن إذا جئت أرض صوت تلـك الخلاخـل

وتكرر اللقاء فأعرضت ليلى ثم استجابت فلما ذهب يطلب نارًا فأحضرت له عتبة مشتعلة ، وظلا يتحدثان ثم خرق برده لينقل النار وهكذا قطعة أثـرى أخـرى حتى جاء على برده كاملَا ، ورفض أبوها تزويجها له لتشهيره بها ... فهام في الفيـافي ... وقيل سمي مجنونًا لقوله:

قضـاها لغـيري ثـم ابـتلاني بحبهـا فهـلاً بشيء غـير لـيلى ابتلانيـا

فكان الجنون عقاب السماء له لسخطه وتبرمه ..... وقيل لإنه قال:

مـا بـال قلبـك يـا مجنـون قـد خلعـا في حب من لا ترى من نيلـه طمعًـا

الحـب والـود نيطـا بـالفؤاد لهـا فأصـبحا في فـؤادي ثـابتين معًـا

٣- **جميل بثينه :** بدأ قصته مع بثينة بسباب فقد كـان وسـيمًا جميـل الخلـق بهـي الطلعة من قبيلة ذات عز وغنى ، وخرج يومًا في أبل له وتركها ترعى ففرقتها بثينة، فسبها فسبته فقال لها:

وأول مـا قـاد المـودة بيننـا بـوادي بغـيض يـا بثـين سـباب

وقلنـا لهـا قـولًا فجـاءت بمثلـه لكـل كـلام يـا بثـين جـواب

ثم ظلا يتقابلان إل أن فُرِقَ بينهما وتزوجت ابن عمها بن الأسود فهام متنقلًا من اليمن إلى الشام حتى مات بمصر في خلافة عبدالملك بن مروان وكان عفيفًـا في حبه على كثرة لقاءه بها يفاخر بعفته وإياها فيقول:

وأني لأرض مـــن بثنيـــه بالـــذي لو أبصـــره الـواش لقـرت بلابلـه

بـــلا وبـــألا أســـتطيع وبـــالمنى وبالأمـل المرجـو قـد خـاب آملـه

وبالنظرة العجلى وبـالحول تـنقض أو آخـــره لا نلتقـــي وأوائلـــه

٤- كثير عزة :

فهو يختلف عن سابقيه فقيل إنه لم يتدله في حب عزه كالعذرى حتى قال طـه حسين: "فليس من الحق إذًا أن نقرنه إلى جميل ولا إلى ابن ذريح ولا أن نقدمـه عـلى أحد من هؤلاء العذريين، بل ليس من الحق أن تعده غَزِلًا وإنما هـو شـاعر أراد أن يكون غزلًا ، فعالج الغزل معالجة فنية خالصة ولعلـه إن لم يوفـق في تكلـف الحـب وفق في تكلف الغزل[1] فقد كان رقيق الشعر جيد النظـر لـه لكنـه كـان مشـاركًا في الحياة العامة يشايع الآمويين ولكن اشتهر بضعف العقل وقيل إنه عرف عزه حيـنما ذهبت تبتاع منه كبشًا لأهلها فرفض أخذ المال منها فلما أرسلته رفض أخذه إلا منها فلم تقابله فيقول:

كـأني أنـادي صـخرة حـين أعرضـت من الصم لو تمشي بها العصم زلت

غضـــوبًا فـــما تلقـــاك إلا بخيلـــة فمن مل منها ذلك الوصـل ملـت

ثم توفيت فذهب إلى مقر زوجها متتبعاً إياها ، لكنه وصل بعـد أن انصرـف الناس من جنازتها ، فحزن حزنًا شديد وكان قد تطير حينما رأى غرابًا ينتـف ريشـه فيقول:

رأيـــت غرابًـــا ســـاقطًا فـــوق بانـــه ينتـــف أعـــلى ريشـــه ويطـــايره

١- حديث الأربعاء جـ ١ صـ٢٩١.

فقلـــت ولـــو أني أشـــاء زجرتـــه   بنفس للنهدى هـل أنـت زاجـره

فـــما أعيـــف للتهـــدى لا دردره   وازجـره للطـير لاعـز نـاصره

ونتيجة لشيوع العاطفة العذرية وقوتها وعنفها فقد كانت عـاملًا مـؤثرًا غـير شكل نظم القصيدة العربية وظهر هذا التغيير والاختلاف في أشكال عدة.

أ. **المقدمات الشعرية** .. بعد أن ألف الجاهليون المقدمة الطللية يفتحون بها قصائدهم وتستغرق جزءًا كبيرًا من اهتمامهم نجد الأمويين يدلفون إلى تجربتهم مباشرة بلا مقدمات وذلك لاستغراق التجربة الشعرية ذواتهم وسيطرتها على عقولهم.

يقول د. محمد القشلان[1]:

هو اختلاف فني يقف عند حدود التباين المنهجي في نظم المقدمات الشـعرية فحسب ولا يتجاوز ذلك إلى تبـاين عـاطفي بـين تجـارب الفـريقين عـلى اخـتلاف عصريهما.

يفتتح جميل أبياته قائلًا:

ألا أيهـــا النـــوَّام ويحكـــم هبـــوا   اسألكم هل يقتـل الرجـل الحـب

فقـالوا: نعـم حتـى يسـل عظامـه   ويتركـه حـيران لـيس لـه لـب

فهو يسأل نوَّام قومه داعيهم للاستيقاظ والتنبه: "عن الهيثم بن عدى" قـال: قال لي صالح بن كسان هل تعرف بيتًا نصفه أعرابي في شمله وآخره مخنـث يتفكـك من مخنثي العقيق؟ فقلت لا أدري: قال: قد أجلتك فيه حولًا؟ فقلـت لـو أجلتنـي

١- التجربة العذرية وأثرها في الشعر الجاهلي رسالة دكتواره صـ ٣٨٦.

حولين ما عملت قال قول جميل ألا أيها النوام ويحكم هبوا ... هذا أعرابي في شمله ثم قال نسألكم هل يقتل الرجل الحب؟ فكان والله من مخنثى العقيق[1].

أما المرقش فقد قال:

ألا يا اسلمى لا صرم لي اليوم فاطمًا ولا أبدأ مادام وصلك دائمًا

ومنك ابنة البكرى من فرع ضاله وهن بنا خوص يخلف نعائمًا[2]

فهو يحكي حالة ظعنها وكيف رمته بلحظها فوقعت في قلبه....

ب. **الملامح العذرية:** هناك سمات وخصائص عذرية اتسم بها الشعر العذري جاهلي كان أو إسلامي من نحو عفة المحب ، وهي سمة طبيعية في نفس العذري وتكشف علاقته مع محبوبته ، وتعكس قدرًا من إجلاله وتقديره لخلقها وخصالها واحترامه لذلك.

يقول المرقش الأصغر:

وإني لاستحى فطيمة طاويًا خميصًا واستحى فطيمة طامعًا

وإني لا ستحييك والخرق بيننا مخافة أن تلقى أخا لي صارمًا

وإني وإن كنت كلت قلوصى لراجم بها وبنفسي يا فطيم المراجعا[3]

فهو ذكر المسند إليه (وإني) على سبيل التأكيد ليثبت لها إنه لودها حافظًا ولحبها صائنًا فلا يبلغها الوشاة عنه شيئًا وقد أجاد بتعبير طاويًا .. طاعمًا كناية عن كل الأحوال لأن المرء لا يكون إلا طاوي أو طاعم.

١- الأغاني جـ ٨ صـ ١١٨.
٢- الضال من شجر السدر ما لم يشرب الماء، الأبل الخوص الغائرة العيون –المفضليات جـ٢ صـ ٨٩٦.
٣- ما اتسع من الأرض. الرجم: أسرع السير.

ويقول قيس بن ذريح:

تتـــوق إليـــك الـــنفس ثـــم أرادهـــا حيـــاء ومـــثلي بالحيـــاء حقيـــق

آذود ســـوام الـــنفس عنـــك ومـــا لـــه عـــلى أحـــد إلا عليـــك طريـــق

فإني وإن حاولـت صرمـي وهجـرتي عليك من أحداث الردى لشـفيق

فهو يوضح قوة إرادته في مغالبته لغريزته التي تنـزع إليهـا، وهـو لهـا مكبـل وعليها حريص فيكبح جماح نفسه ورغبات ذاته.

ج. **ثبوت العلاقة وديمومتها**، فالعلاقة بين الحب العـذري دائمـة ثابتـة لا تـزداد بوصل ولا تقل ببين، فالشاعر وإن أبى فالحـب في قلبـه دفـين يقـول المـرقش الأصغر.

صحا قلبه عنها على أن ذكـرة إذا خطرت دارت به الأرض قائمًا

ويقول قيس بن ذريح:

أريد سـلوًا عـن لبنـى وذكرهـا فيـأبى فـؤادي المسـتهام المتـيم

إذ قلت أسلوها تعرض ذكرهـا وعاودني من ذالك مـا الله أعلـم

فالمرقش يتمنى البرء من حبها ، وأنه لو تـذكر مـرة واحـدة –ذكـرة لتزلـزل كيانه، ودارت به الأرض فالحب ثابت باقي في حناياه قائمًا.

أما قيس بن ذريح فهو يعاني صراعًا نفسـيًا رهيبًـا فعقلـه يرشـده لنسـيانها ، وقلبه يقويه بتذكرها، وهذا صراع عنيف علـم بـه الله عـلى سـبيل التهويـل ولكـن الغلبة في المنتهي إلى القلب وما أملاه.

د. **الإخلاص لمحبوبة واحدة...** الحب العذري قائم على الوحدة وهي الدين بالحب لمحبوبة واحدة حتى ولو تعرض الشاعر لمغريات عدة.

يقول جميل:

فلـــرب عارضـــة علينـــا وصـــلها　　　بالجـــد تخلطـــه بقـــول الهـــازل

فأجبتهـــا بالوصـــل بعـــد تســـمر　　　حبي بثينه عـن وصـالك شـاغلي

لـــو كـــان في صـــدري كقـــدر قلامـــة　　　فضل وصـلتك أو اتتـك رسـائلي

فهو يعتزر لتلك المرأة إنه في شاغل عنها لحبه لبثينه.

أما المرقش فيقول:

ألا يا أسلمى ثم أعلمـي أن حـاجتي　　　إليـك فـردي مـن نوالـك فـاطمًا

أفـــاطم لـــو أن النســـاء ببلـــدة　　　وأنـــت بـــأخرى لابتعتـــك هـــائمًا

فهو يفضل محبوبته عن سائر النساء بل أنها تفضلهن جميعًا ، و لو أن النساء ببلدة ومحبوبته بأخرى لابتعتك هائمًا، وهو في تتبعه لها يكون مسلوب العقل والإرادة.

وبذلك التجربة العذرية امتدت جذورها إلى العصر الجاهلي فكان هناك من يقتفي أثر الفطرة القويمة في العصر الجاهلي ثم تمكنت تلك الخاصية وتأكدت في العصر الأموي في بيئة نجد بصفة خاصة وإن أشعارهم لتذوب رقة.

يقول جميل بثينة:

وأنت التـي إن شـئت قـدرت عبشـتي		إن شـئت بعـد الله أنعمـت باليـا
وأنت التي مـا مـن صـديق ولا عـدى		يرى نضو ما ابقيتي إلا بكـى ليـا
لقــد خفــت أن ألقــى المنيــة بغتــة		وفي النفس حاجات إليك كما هي

ويقول كثير عزه:

ومـا كنـت أدري قبـل عـزة مالبكـا		ولا موجعات الليل حتـى تولـت
وكـان لقطـع الحبـل بينـي وبينهـا		كنـادرة نـذرًا فأوفـت وحلتـي

يقول المجنون:

أراني إذا صـليت يممـت نحوهـا		بوجهي وإن كان المصلى ورائيـا
تمـر الليـالي والشـهور وتـنقض		وحبـك مـا يـزداد إلا تماديـا
خلـيلي لا والله لا أملـك الـذي		قضى في لـيلي ولا مـا قضي ـ ليـا
قضـاها لغـيري وابـتلاني بحبهـا		فهـلا بشي ـء غـير لـيلى ابتلانيـا

مدرسة الشعر السياسي: صبغ العصر بالصبغة السياسية حتى نستطيع القول إن العصر كله كان عصرًا سياسيًا ووسم الأدب بتلك الصبغة فما يعرض لهم من موقف إلا ونظموه شعرًا فها هو ذا الراعي النميري يحتج –شعرًا– لدى عبد الملك بن مروان من رعاته الذين يتعسفون مع قومه في جباية الأموال دون مراعاة للجدب الحاصل ، أو لمكانة قومه وعلو كعبهم يقول: أبلغ أمير المؤمنين رسالة تشكو إليك مضلة وعويلاً.

أخليفـــة الـــرحمن إنـــا معشـــر حنفـاء نسـجد بكـرة وأصـيلاً
عـــرب نـــرى لله في أموالنـــا حـــق الزكـــاة منـــزلاً تنـــزيلاً
إن السـعاة عصـوك يـوم أمـرتهم وأتو دواهي لو علمـت وغـولاً
أخـذوا العريـف فقطعـوا حيزومـه بالأصــبحية قـــائمًا مغلـــولا
حتـــى إذا لم يتركـــوا لعظامـــه لحـــمًا ولا لفـــؤاده معقـــولاً
جاءوا بصـكهم وأحـدب أسـأرت منـه السـياط يراعـه إجفـيلاً
أخــذوا حمولتــه وأصــبح قاعــدًا لا يستطيع عـن الـديار حـويلاً
يــدعو أمـــير المـــؤمنين ودونـــه خرق تجر بـه الريـاح ذيـولا (١)

أثر الحياة السياسية على الإبداع الأدبي ...لا شك أثرت المنافسات السياسـية في الإبداع وظهر ذلك جليًا في سمات عدة منها :-

١- غزارة الإنتاج: فالشعراء وجدوا التشجيع الكافي من الحكام الـذين اجزلـوا العطاء، وأكثروا المنح والجوائز، فنهجت ألسنتهم بالشـعر مـادحين الحكـام وقد يكون ولاء الشاعر لأكثر من طائفة فإن كثير ((ناصر الأمويين والشيعة في آن واحد كما يدين لمحمد بن الحنفية بالأمانة ويقول بالرُجعة كـما روج في كثير من شعره لعقيدة الكيسـانيه))(٢) فالشـاعر كـان مـدين بـالولاء لـذوي السلطان والمعتلين سدنة العرش.

يقول الأخطل في معاوية:

أبو حاتم سهل بن محم قال أنشدني العتبى للأخطل في معاوية:-

١ديوان الراعي النميري شرح دكتور واضح الصمد صـ٢٤ دار الجيل ط١
٢- رسالة دكتوراه صـ ٣٧٨.

تسمو العيون إلى إمام عادل معطى المهابة نافع ضرار

وترى عليه إذا العيون لمحته سيما الحليم وهيبة الجبار[1]

٢- استعمال الصراع بين الأحزاب فقد كانت هناك أحزاب كثيرة حزب الزبيريين .. الشيعة .. الأمويين ... إلخ وغيرها من الأحزاب الذين مُلئت بهم الساحة فانتمى الشعراء إليهم كل حسب هواه يدعوا إلى حزبه ويذب عنه ويعدد مناقبه وسماته.

من أشهر شعراء الخوارج:عمران بن حطان، الطرماح بن حكيم، قطري بن الفجاءة، إسماعيل بن يسار، ومعظم أشعارهم يغلب عليها القوة قوة الدعوة إلى التمسك بالحق وأمل العطاء في الآخرة، ويدعو إلى الزهد في الدنيا ويتغنون بأحقيتهم في الخلافة ... ومن شعراء الشيعة: كثير عزه، الكميت، الحميري ... ويغلب على شعرهم الاستعطاف لما أصابهم من الضرر والشكوى والتأسي والبكاء وضرورة أن يكون الخليفة قرشيًا.

والحزب الأموي كان الحزب الحاكم الذي التفت حول رايته كثير من الشعراء يدافعون عنه وينرون محاسنه ومزاياه وقد استقطب الشعراء ترغيبًا وترهيبًا إّ يشدون الرحال إلى الشام يطرحون قصائدهم المنقحة ثم يجمعون العطايا وعظيم الصلات ، وهذا استجابة للخليفة الجامع للشعراء المحتفي بالكلمة فقد كان يقول (أجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر آدابكم) لذا اهتم الشعراء بشعرهم و تعهدوه بالتنقيح والتهذيب والتحسين ويعنون بإبراز مواهبهم ويتنافسون لنيل قصب السبق كل من صاحبه مثل: الفرذدق وجرير والأخطل وعدي بن الرقاع وغيرهم.فقد جذبهم البلاط الأموي ونقع غلتهم " سواء من كان منهم طامع في الثراء

١- العقد الفريد حـ١ صـ ٣٤ دار الكتب العلمية.

والجاه أو من هو لاجيء تائب من هوى سياسي سابق ، ثم جاء معلنًا التوبة **يقول الأحوص في الوليد** بن عبد الملك:

تخـــيّره رب العبـــاد لخلقـــه　　　وكـــان الله بالنـــاس أعلـــما

ويقول جرير مادحًا إياه:-

لـــولا الخليفـــة والقـــرين يقـــرأه　　　مـا قـام للنـاس أحكـام ولا جُمَـع

أنـــت الأمـــين أمـــين الله لا سرف　　　فـــيما وليـــت ولا هيابـــةٌ ورع

أنـــت المبـــارك يهـــدي الله شـــيعته　　　إذا تفرقـــت الأهـــواء والشـــيع

فكـل أمـر عـلى يمـن أمـرت بـه　　　فينـا مطـاع ومهـما قلـت يُسـتمع

يـــا آل مـــروان إن الله فضـــلكم　　　فضـلاً عظـيمًا عـلى مـن دينـه البـدع

٣- المجالس الشعرية: كان الولاة على بصر بالشعر جيده من رديئه وحسنه من قبيحه مما أفسح المجال أمام الشعراء لكي ينتظموا ويجيدوا .... فتوافد الشعراء من مختلف الأمصار الإسلامية والبوادي العربية وظهر ذلك بشكل أوضح في موسم الحج حينما كانت تفد الوفود ... فكانوا يجلسون ينظرون في الشعر وينتخبوا جيده من رديئه هم أنفسهم ... فكان الشعراء بعضهم لبعض ناقدًا مما جعلهم يحرصون على الإجادة.

النقائض الشعرية

تعريف النقائض: فن ونهج شعري ظهربكثافة في العصرـ الأموي ، وهو عبارة عن أن يقول شاعر قصيدة يمدح بها نفسه وذويه وأسرته وقبيلته ..... فيأتي شاعر من قبيلة أخرى وعلى الوزن ذاته والقافية نفسها والروى وحركة الروى غالبًا ينقض ما قاله الشاعر ويأخذ من السباب سبيلًا في قول كل ما يريد ... ومن الفخر رداء يرتديه في بثه أفظع العبارات للخصم وتجريده من كل فضيلة ووسمه بكل عيب ونقيصة.

والنقائض: جمع نقضة بمعنى منقوضة إذا كانت الأولى وناقضة إذا كانت الثانية.

سبب ظهور النقائض ... تصافرت كثير من الأسباب التي أدت إلى ظهور النقائض وتسييرها في العصر الأموي:

أ. الحكم الأموى ومناهجه من إحياء العصبية القبلية والتشجيع عليها وإثارة أوضاع لاهية تلهي الناس عن النظر في أمور الخلافة كما أنها كانت متمشية مع سياسة الدولة من إشغال الناس بقضايا فرعية يشعلها كبار الشعراء ليشغلوا بها عن النظر في أمور الحكم.

ب. طبيعة العقل العربي الذي أخذ في التفتح والاقتدار على المجادلة باللسان والمناورة بالبيان.

ج. التنافس على الزعامة في الفن الشعري فقد شبت النقائض في كنف زعماء الشعر جرير والفرزدق والأخطل، فحاول كل منهم إثبات جدارته وفصاحة لسانه ،وحسن بيانه، حتى ولو كان هجاء.

د. الخلافات القوية بين أصحاب المصالح الاقتصادية، فالخلاف دب بين تغلب وشاعرها الأخطل، وقيس وشاعرها جرير على الرغم أنه ليس قيسيًا لمن كان وقف إلي جوارهم منتصرًا لهم.

آراء النقاد في النقائض :

اختلفت آراء النقاد في النقائض ما بين مؤيد ومعارض:

أولا المعارضين: رفضوه لأنهم رأو أن بها كثير من السباب الفاحش والهجاء المقذع، وانتهاك للحرمات وانتقاض من الكرامة الإنسانية ، والرفعة العربية ، كما أنها تشجع على العصبية التي تخالف روح الدين السمحة بمعانيها المنفرة.

ثانيًا المؤيدين: أنها سجل حافل لأيام العرب وأحداثهم ومعاركهم ومنافراتهم ، ومفاخرتهم ، إضافة لأهميتها اللغوية حتى قيل لولا نقائض الفرزدق لذهب ثلث العربية ونصف أخبار الناس ، ولو جمع باحث مفردات الفرزدق التي استعملها في شعره لكادت أن تكون معجمًا.

خصائص النقائض :

١. توحد البحر الشعري للناقضة والمنقوضة مع الروى وحركة الروى غالبًا.
٢. فخامة الأسلوب، وقوة التراكيب، وخشونة الألفاظ كما أنها تحتوي على غريب الألفاظ.
٣. لا تقتصر النقائض على فن الهجاء بل قد يضم إلى جوارها فنونًا أخرى.
٤. تدل على معرفة الشاعر بأيام العرب وأنسابهم لأنه يشير لها في نظمه.
٥. تحتوي إلى جانب السباب المؤلم والهجوم الموجع فخرًا قويًا بالأهل والقبيلة.

شعراء النقائض: الفرزدق هو أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة ابن ناجية بن عقال التميمي الدارمي ... ودارم قبيلة من قبائل تميم متشعبة عدة شعب منها، بنو تميم، بنو نهشل، بنو مجاشع، وجده الأول صعصعا سمي محي الموؤدات لأنه أنكر من كان لها فعالًا. وكان يقوم بشراء البنات المولودات لكي لا يُوأدْن .... وضمت قبيلته كثير من السادة الأشراف مما جعله يتيه فخرًا بهم ويدين ولاءً لهم. وقيل إنه ولد في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ....

كان الفرزدق مستدير الوجه وبه نمش أحمر فشبهه الناس بالرغيف الفارسي المعروف (الفرزدق) وهو جمع فرزدقه وهو رغيف كبير مستدير قد مليء سمسمًا وحمر بالنار فصار الشاعر له اسم همام بن غالب وكنيته أبو فراس ولقب الفرزدق، وقد توفى عام ١١٤هـ وهو لا يثبت على رأي واحد فقد يمدح الشخص ويهجوه، وديوانه مليء بالفخر بنفسه وعشيرته بني مجاشع فتميم أصل دارم ومن دارم وجد بني مجاشع قومه ... فهو يفخر بآبائه وأجداده. وله قصيدة رائعة تعد من عيون الشعر العربي وهي هجاء ابليس.

أطعتك يا إبليس سبعين حجة فلما انتهى شيبي وتم تمامي

فررت إلى ربي وأيقنت أني ملاقى لأيام المنون حمامى

جرير هو أبو حرزه جرير بن عطية الخطفي اليربوعي التميمي، ولد في بادية اليمامة حوالي سنة ثلاثون هجرية يكنى بأبي حرزه، وحرزه اسم ابنه الأكبر وهي تدل على الفقر ورقة الحال ، لأن الحرزه شجرة ثمرها حلو أو حامض، أما سبب تسميته جريرًا يروي أن أمه حلمت أنها ولدت حبلًا يلتف على أوساط الناس فيقطعها، فقال المفسرون ستلدين رجلًا يتغلب على خصومه فسمته جرير ... والجرير: الحبل **وقد** ولد في بادية اليمامة حوالي سنة ثلاثين للهجرة ولم يكن جرير من شرف الآباء والأجداد ونباهة العشرة مثل ما كان لآباء الفرزدق وعشيرته وقد شب في البادية بعيدًا عن فسق المدينة وملاهيها لذا لم يكن على فسق الفرزدق وجرأته على المحارم.

وكان سليل بيت اشتهر بالشعر وإجادته... فقد كان الخطفي جد جرير يبصره بالشعر ويفهمه فتفتحت موهبته في وقت مبكر وتكسب بشعره لدى الخلفاء الولاة، وكان له أخوان شاعران عمرو وأبو الورد، وظل الشعر يتوارث في أبناءه حتى أنه كان يملك ثمانية أولاد وبنتان فكان يجلس إليهم ويعلمهم ويقول: أطيلوا

الهجاء وأقصروا المادحة فاشتهر ابنه "بلال" وحفيده عمار بالشر وعنهما أخذ الرواة أشعاره،وأكثر أخباره ثم كان اشتباكه المرير مع الفرزدق وكان من نتاج هذا الخلاف .... النقائض الشعرية.

كما تهاجى مع كثير من الشعراء ، ويروى أبو الفرج الأصفهاني أنه كان يهاجي ثمانون شاعرًا غلبهم جميعًا وكان يقول: أنهم يبدأونني ثم لا أعفو، وكانت طعناته في خصومه بلسانه موجعة مريرة بل قاتلة مثل قوله:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعًا ... أبشر بطول سلامه يا مربع

قوله:

يعطى النساء مهورهن كرامة ... ونساء بارق ما لهن مهور

وقوله:

قوم إذا حضر الملوك وفودهم ... نتفت شواربهم على الأبواب

ويمتاز جرير برقة شعره ودقة تعبيره عن الأحاسيس والمشاعر بشكل جيد يفوق الفرزدق في حديثه عن الأحاسيس الإنسانية.

اتخذه الحجاج الثقفي بوقًا للدعاية ثم وصله بعبدالملك بن مروان الذي ظل ممدوحًا حتى مات مشاركًا في كل صراعات الدولة الأموية، وكان فياض المشاعر جياش العاطفة حتى قيل إن الفرزدق ينحت من صخر ... وجرير يغرف من بحر وله قصيدته في رثاء زوجه الجوساء:

لولا الحياء لهاجني استعبار ... ولزرت قبرك والحبيب يزار

ولقد نظرت وما تمتع نظرة ... في اللحد حيث تمكن المحفار

وقيل أنها عين من عيون الشعر العربي حتى إن النوار امـرأة الفـرزدق ماتـت فرثوها بها وهو رفيق المشاعر نافذ البصيرة في المدح .... القدح ... الغزل.

يقول الفرزدق:-

١- **إن الـذي سـمك السـماء بنـى لنـا ... بيتًـا دعائمـه أعـز وأطـول**

٢- **بيتًـا بنـاه لنـا الملـك ومـا بنـى ... حكـم السـماء فإنـه لا ينقـل**

٣- **بيتًـا زرارة محتـب بفنائـه ... ومجاشـع وأبـو الفـوارس نهشـل**

٤- **يلجـون بيـت مجاشـع وإذا أحتبـوا ... بـرزوا كـأنهم الجبـال المثـل**

٥- **لا يحتبـى بفنـاء بيتـك مـثلهم ... أبـدًا إذا عـد العضـال الأفضـل**

فنقض كلامه جرير قائلاً

ويرد جرير على الفرزدق فيقول:

١- **لمـن الـديار كأنهـا لم تحلـل ... بـين الكنـاس وبـين طلـح الأعـزل**

٢- **ولقـد أرى بـك والجديـد الي بِـلى ... موت الهـوى وشـفاء عـين المجـتلى**

٣- **نظرت إليـك بمثـل عينـى معـزل ... قلعـت حياتهـا بـأعلى يليـل**

٤- **وإذا التمسـت نواليهـا بخلـت بـه ... وذا عرضـت بودهـا لم تبخـل**

٥- **أعـددت للشـعراء سـمًا ناقعًـا ... فسـقيت آخـرهم بكـأس الأول**

مدرسة الغزل القصصي

الغزل القصصي هو بث الشاعر لواعج نفسه ونفثات صدره في شكل قصصي، سواء أكان المحكي حقيقي أو متخيل ، وزعيمها عمر بن أبي ربيعة ، وهي تعتمد على وصف علاقة المرأة بالرجل ،ودلها، وتمنعها ، ولفت الأنظار إليها ، وإلى ما تمتلكه من جمال حسي بيّن ... ومن شعراء هذه المدرسة : العرجي، الأحوص، عمر بن أبي ربيعة، ويعد إمامهم في هذا الفن الشعري قال صاحب العقد: "قدم عمر بن أبي ربيعة المدنية فأقبل إليه "الأحوص بن محمد" ونصيب "فجعلوا يتحدثون ثم سألهما عن كثير عزة، فقالوا: هو هاهنا قريب، قال: فلو أرسلنا إليه؟ قال: لا هو أشد باوًا[1] من ذلك... قال: فاذهبا بنا إليه، فقاموا نحوه فألفوه جالسًا في خيمة فوالله ما قام للقرشي ولا وسع له فجعلوا يتحدثون ساعة فالتفت إلى عمر بن أبي ربيعة فقال له: إنك شاعر لولا انك تشبب بالمرأة ثم تدعها وتشب بنفسك أخبرني عن قولك:

ثم اسبطرت تشتد في إثري تسأل أهل الطواف عن "عمر"

والله لو وصفت بهذا هرة أهلك لكان كثيرًا آلا قلت كما قال هذا، يعني الأحوص:

اَدورَ ولولا أن أر أم جعفر بأبياتكم ما دورت حيث أدور

وما كنت زوارًا ولكن ذا الهوى وإن لم يزر لابد أن سيزور

قال: فانكسرت نخوت "عمر بن أبي ربيعة" ودخلت الأحوص زهوة، ثم التفت إلى "الأحوص" فقال أخبرني عن قولك:

١- اشتد فخرًا واعتدادًا بنفسه أن يذهب إ أحد.

فـــإن تصـــلى أصـــلك وإن تبينـــي بهجـــرك بعـــد وصـــلك لا أبـــالي

أما والله لو كنت حر لبا ليت ولو كسر أنفك ألا قلت كما قال: هذا الأسود وأشار إلى "نصيب".

بزينـــب ألم قبـل أن يرحـل الركـب وقـل إن تملينـا فـما ملـك القلـب

قال: فانكسر "الأحوص" ودخلت نصيب زهوة ، ثم التفت إلى "نصيب" فقال له : أخبرني عن قولك:

أهيم بدعد مـا حييـت فـإن أمـت فواكيـدا مـن ذا يهـيم بهـا بعـدى

أهمك ويحك من يفعل بها بعدك؟ فقال القوم: الله أكبر استوت الفرق قوموا بنا من عند هذا[1].

فقد كان لعمر بن ربيعة مواهب خاصة ومقدرة شعرية متميزة بل إن له أبياتًا قصصية ولو أجهد نفسه قليلًا لوصل إلى الشعر التمثيلي يقول:

أربـــت إلى هنـــد وتـــربين مـــرة لهـــا إذ تواقفنـــا بفـــرع المقطـــع

لتفـــريج يـــوم أو لنعـــرش ليلـــة علينا بجمع الشمل قبـل التصـدع

فقلـــن لهـــا لـــولا ارتقـــاب صـــحابة لنـــا خلفنـــا عجنـــا ولم نتـــورع

فقالـــت فتـــاة كنـــت أحســـب أنهـــا مغفلـــــة في مئــــزر لم تـــــدرع

لهـــن ومـــا شـــاورنها لـــيس مـــا أرى بحســـن جـــزاء للحبيـــب المـــودع

فقلـــن لهـــا لا شـــب قرنـــك فـــافتحي لنا باب ما يخفى من الأمـر نسـمع

١- العقد الفريد جـ ٥ صـ ٣٧٢.

فقد أخذت الأبيات شكلًا قصصيًا لتحكي موقفًا ما ......

وهناك خصائص لمدرسة الغزل القصصي:

١. تقع الأحداث أمام الشاعر بعين الحقيقة أو عين المخيلة فيصوغها شعرًا واضحًا صريحًا لا التواء فيه.

٢. غلبة النزعة المادية والنصية على الجمال الجسدي الواضح.

٣. التغلغل داخل النفسية الإنسانية –من كثرة مران– وإظهار طوية المرأة وما يجول بخاطرها ... وأساليبها في المنع والمنح.

٤. كثرة المعشوقات وعدم الاقتصار على واحدة ، فالقص يهيم بالجمال ببغيه حيث علم وجوده.

٥. يعد الشعر القصصي لحد كبير شعرًا ملتزمًا عفة وحياء وبعد عن الفسق إلا مقطوعات ...

الأغراض الشعرية

أصاب التجديد الذي أثر في الحياة الأموية الأدب حيث اختلف الشعر في العصر الأموي عنه في العصر الجاهلي وصدر الإسلام... نتيجة لاختلاف الحياة وتغير النمط المعيشي ووجود مظاهر حديثة في مختلف مناحي الحياة فتغير الأدب وعبر عن هذه المظاهر وتلك الأشكال.

فالعصر الجاهلي كان بدويًا أهله من مدر وحضر ـ يشاركون المطايا حياتهم وقوفًا وسيرًا انطلاقًا وإحجامًا، حياتهم بسيطة رحبة بساطة ورحابة الصحراء التي تضمه.لذا كان المدح بالصفات الحسية الملموسة والمرئية كالكرم والشجاعة والفروسية والمروءة والعراقة...

وفي صدر الإسلام اتجهت القلوب والعقول لفهم الدين إقراره في القلوب وتشبعه بالعقول.. انشغلوا بجمال القرآن والحديث النبوي وسحر البيان ثم نشر الإسلام ، والانشغال بالفتوح العظيم لا يحبرون قصيدة ولا يلتفتون إلى منفعة بل ما جاء عفو الخاطر كان وإلا ففي القرآن السلوى بحسن البيان.فكان المدح بالاستشهاد والذب عن الإسلام والالتزام الخلقي والتحلي بخلق الإسلام .

أما في العصر الأموي فصارت هناك دولة تتجه نحو تقسيمه مجزئه... قواد... ولاه ... حكام .. لم يعد هناك خلافة ولا إمامة، وتوهج شعلة الزهد ضعَّف نيرها ، وكاد يتلاشى ، صار الإقبال على الدنيا بمباهجها واجتناء ثمراتها أبرز المعالم إضافة إلى التنافس الشديد وزرع البغضاء والشحناء بين أصحاب الاتجاهات المختلفة.

جرير والفرزدق والأخطل ... أقطاب الظاهرة الأدبية الأموية الأبرز "النقائض الشعرية".

اختلف المدح لديهم عن غيرهم من الشعراء ربما يرجع ذلك لنفسيتهم المختلفة وسريرتهم المتباينة ، وهو ماوضح بشكل جلي في أشعارهم.. ألفاظهم ..

ومعانيهم، وصورهم، وايحاءاتهم.. اتجاههم الفني ورؤيتهم الذاتية .. وتعبيرهم الشعري.

فجرير: رقيق النفس.. حيي التعبير .. مرهف الحس .. عف اللسان يقف وراءه إيمان عميق، ضعة أصل يفاخر بها فيظهرها ولا ينكرها.

والفرزدق: حاد الطبع –سليط اللسان واسع الثقافة متمرد الطبع يقف وراءه إيمان رقيق وارستقراطية الأصل وشرف الإنساب والإحساب.

الأخطل: لسان قومه وسفيرهم إلى الولاة والحكام خبيث الطوية، لا يردعه رادع، ولا ينهاه خلق يقف وراءه ديانته المسيحية، ولسان سوء، وثقافة دينية واسعة إضافة لطمعه في النوال من الحكام.

ولا شك أن المدح والهجاء قد ، تغير على يد هذه الأعمدة الثلاثة في العصر الأموي بشكل واضح بين فقد ضخت فيه طاقات إبداعية جديدة**كذلك** ارتبط بالشعر السياسي فتفرع عنه وكان تتمة له اتخذت مسارًا أخر يختلف عنه في العصر الجاهلي وصدر الإسلام .... فكان هناك المدوحون للعطايا حيث نزح الشعراء وراء الأموال المبذولة واشتهرت أسر بذلك كأسره المهلبي بن أبي صفرة الأزدي في خراسان والعراق يقول الشاعر:

نزلت على آل المهلب شاتيًا فقيرًا بعيد الدار في سنة محل

فما زال بي إلطافهم وافتقادهم وإكرامهم حتى حسبتهم أهلى

يقول آخر مادحًا قتيبه بن مسلم:

وما كان مذكنًا ولا كان قبلنا ولا كائن من بعد مثل بن مسلم

أعم لأهل الشرك قتلًا بسيفه وأكثر فينًا مغنمًا بعد مغنم

أما الخلفاء ... فكانوا يُمدحون بالزعامة والرياسة والجدارة بالمنصب وتـدبير أمر المسلمين والتخلص من الأعداء.

يقول بن عبد ربه: قال شرحبيل بن معن بن زائدة حج الرشيد وزميلـه أبـو يوسف القاضي وكنت كثيرًا ما أسايره إذ عرض له أعرابي ...

فقال الرشيد قل كما قال مروان بن أبو حفصه في أبي هذا وأشار إلي:

بنـــو مطـــر يـــوم اللقـــاء كـــأنهم ... أســـود لهـــا في غيـــل خفـــان أشـــبل

هـــم يمنعـــون الجـــار حتـــى كـــأنما ... لجـــارهم بـــن الســـماكين منـــزل

بها ليل في الإسلام سـادوا ولم يكـن ... كـــــأولهم في الجاهليـــــة أول

هم قوم إن قالوا أصابوا، وإن دُعُـوا ... أجابوا، وإن أعطوا طابوا وأجزلوا

النثر في العصر الأموي

أولاً : الخطابة

العرب أهل فصاحة وبيان يعطون للكلمة أهمية عظمى وللبيت الشعري قدسية وللخطابة اهتمامًا كبير لفهمهم مدى تأثير الكلمة في النفوس وسيطرتها على العقول.

لذا اعتلى الشعراء والخطباء مكانة سامقة في السلم والحرب وحلهم وترحالهم، وحينما جاء الإسلام نص على أهمية الكلمة وضرورة التبصر بها قبل قولها... يقول تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴿٢٧﴾﴾[سورة إبراهيم: الآية ٢٤-٢٧]

وقال رسولنا الكريم: "إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحرًا" اعترافًا بأهمية الكلمة بل إن وفد تميم أسلم بناءً على قول الخطيب ونظم الشاعر، فقد جاء وفد تميم إلى النبي صلى الله عليه وسلم بخطيب وشاعر فتصدى لهم من المسلمين خطيب وشاعر فلم يسعهم إلا أن أسلموا قائلين: إن هذا الرجل لمؤتى له وإن خطيبه أبلغ من خطيبنا وإن شاعره أبلغ من شاعرنا.

فجعلوا الإقناع العقلي بالخطابة والاستحواذ على المشاعر بالشعر بمثابة إرهاصة على غلبة الدين ونصرته. وفي العصر الأموي كثرت الصراعات ، واحتاج كل فريق إلي إيضاح وجهة نظره ، وبيان حجته ورأيه ، وكانت الخطابة أوسع من الشعر لاستيعاب ذلك ، إذ خلت من قيديه الوزن والقلفية ، فشاعت واستعملها

الأحزاب كافة ، فزدهرت وانتشرت ومن أسباب شيوع الخطابة : قال بن هشام: قدمت وفود

وكانت هناك أسباب أدت إلى ازدهارها

١. كثرة الصراعات السياسية وتعدد الأحزاب والفرق استدعى وجود خطباء لكل فريق ولكل حزب يستنصر له ويدعو لنصرته وتسييده وتغليبه على غيره.

٢. امتلاك لغة الخطابة، فصاحة بيانية، وثروة لغوية، ومقدرة إفهامية جعلتهم يملكون زمام ألسنتهم فيسيطرون على عقول وأذهان سامعيهم.

٣. اهتمام الولاة بالخطباء وارتفاع شأنهم وتقليدهم المناصب الرفيعة في الدولة لأنهم اللسان المنافح عن حكمهم، ومصالحهم فجعل الكثيرين يقدمون على إتقانها ،ومن أشهر الخطباء زياد بن أبيه الحجاج بن يوسف الثقفي.

٤. وجود المحافل العربية للخطابة على غرار أسواق الشعر فقد كان بعضها يعقد في دمشق ، أو في تجمعات الحج ، أو مواطن الثورات.، فقد كان الخطباء يفدون إلى الملوك في مقر الخلافة قد يؤيدهم وقد يعارضوهم.

٥. الشجاعة والحرية التي كان يمتلكها العربي ولا يتنازل عنها فيقول رأيه بصراحة ويعبر عن إرادته بشجاعة وقد استخدمت في الدعاية السياسية للأحزاب وفي الجدل الديني عن الفرق الخوارج، الشيعة، والمعتزلة[1]،فقد أقبل عليها الخواص والعوام ،فالحكام يلجئون إليها ترهيبًا وترغيبًا ، والعامة يستخدمونها في سائر شئونهم من التهنئة والتعزية أو الحكم أو توضيح حكمًا دينيًا.

فالخطابة إذًا فن من فنون النثر ولون زاه متميز من ألوانه العديدة وهي فن مخاطبة الجماهير على وجه يعتمد أساسًا على الإقناع والاستمالة والتأثير

١- زعيم المعتزلة: واصل بن عطاء كان الثغ في الراء، ولقدرته الخطابية كان يخطب ساعات طوال دون أن يأتي بكلمة متضمنة حرف الراء.

(الإمتاع) وهي أداة الدعوة إلى الرأي والانتصار له والدفاع عن الحق والتعبير عن الآمال والآلام والأفكار والتوجيه إلى الخير والتبصير بعواقب الأمور وهي وسيلة الدعاة من الأنبياء والهداة المرشدين والزعماء والمصلحين وهي اللسان المعبر عن شتى الاتجاهات والمذاهب للأحزاب والطوائف والفرق وهي بذلك كله تعد ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية وقد عرفت المجتمعات القديمة الخطابة وبرعوا فيها وتمكنوا منها، نرى ذلك عند قدماء المصريين، واليونان، والرمان، وقد رأينا الجاحظ يشيد بقدرتهم الخطابية في كتابه البيان والتبيينويرفع مكانتهم في الخطابة ويجعلهم فوق جميع الأمم والشعوب بما كان لهم من آثار شاهدة في العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام ، والعصر الأموي.

٦. تعدد الأحزاب وانتشار الطوائف والفرق واشتداد النزاع بينها، فثارت المشاحنات، وكثر الجدل ،وتعددت الآراء، وفزعت كل طائفة وفرقة إلى حججها وأدلتها ، وبراهينها تقارع الخصوم ترد التهم، وتحاول كسب الثقة ورد الاعتبار كان هناك الحزب الأموي الحاكم ، وكان الشيعة وكان الخوارج، وكان الزبيريون ، وكان المعتزلة، وكان المرجئة ، ولكل منها نشاط واسع، وحركة داؤوب ، وحوار، وجدل، وخطابة قوية غزيرة، متواصلة، يقوم عليها وينهض بها خطباء مصاقع ، ولُسُن مهاودة ، يمتلكون أَزِمَّة الكلام ويسلس لهم قيادة البيان ، وكانت السياسة هي التي تحرك كل هؤلاء لكنها كانت تأخذ سمتًا دينيًا تتستر به ،وتحتمي فيه، إذ كان للدين هيمنته على النفوس ، وتأثيره الفعال في الجميع ، وقد لعب القُصَّاص والوُعّاظ دورًا كبيرًا في الدعاية السياسية من خلال احتكاكهم بالجماهير، وتأثيرهم فيها وبخاصة أولئك المنضمين تحت سيطرة حزبية.

٧. قوة العقيدة والجرأة في الحق والحرص على الجهر بالرأي إذ تمتع الجميع بقوة الجرءة، وكان للتحرر والإنطلاق آثارًا بعيدة المدى في ازدهار الخطابة وارتفاع

صوت الحق ومقاومة أهل الباطل بحد اللسان، سيف البيان، مع خوض غمار الحرب والقتال ، ولا سيما لفرقةالخوارج التى كان لها في هذا المجال مواقف مشهودة ، وخطب مشهورة ، تسرى فيها النزعة الدينية الممتزجة بالثورة السياسية فتكون بذلك آية في الروعة والجلال.

٨. كما تعاونت روافد ثلاثة في تحقيق هذا الازدهار للخطابة في العصر الأموي فقد أمدتهم الجاهلية بسلامة الملكات وبلاغة القول واستكمال أداة البيان كما أمدهم الإسلام بفيض زاخر ومدد لا ينقطع من هدى القرآن الكريم والسنة المطهرة وهما في القمة من البلاغة وسحر البيان ، وأتاح لهم الفتح والاختلاط بالأمم والشعوب ثقافة واسعة ، وفكرًا ناضجًا ، وقدرة على أساليب الجدل والحجاج وتلوين المعاني وتنويعها وتفريغها.

٩. عناية الخلفاء والأمراء والولاة بالخطابة وقيامهم بها وتقديرهم لأهميتها وخطرها ، وفطنتهم لما تضفيه على الحاكم من سمات الزعامة، وكمال القيادة ، إذا كان خطيبًا مفوها ومتكلمًا بليغًا. ولذلك كانوا يربون أبناءهم على بلاغة القول وفصاحة الكلام ، ويعهدون بهم إلى من يدربهم على الخطابة ، ويعودهم مواقفها ،ويهيئ لهم وسائلها وأسبابها وقد انتقل هذا الاهتمام بالخطابة إلى جماهير الناس وإلى جموع الشباب الواعي المتفتح ، بل كان شباب الكتاب إذا أقدم وفد على دمشق حضر وعمل على الاستماع لبلاغة خطبائهم لشيوع حب الخطابة فيهم وقد ساعد على ذلك كثرة الوفود وتدفقها على قصور الخلفاء والولاة، أما بدافع ذاتي منها أو رغبة من الخليفة نفسه حين تعن له فكرة سياسية وذلك كما فعل معاوية حين أراد أن يأخذ البيعة لابنه يزيد.فجمع الوجهاء ، وما ظن فيهم الحل والعقد ، وأمرهم أن يمهدوا لهذا الأمر الأمة .

خصائص الخطابة في عصر بني أمية

كانت هناك كثير من العوامل ساعدت على ازدهار الخطابة في عصر بني أمية، منها كثرة الخطباء ووفرة الخطب وحسن التلقي من جانب الجماهير وعمق التجاوب والانفعال بما فيها من إقناع وإمتاع وآثارة وما يستتبع ذلك من إقبال عليها وتجويد لها مع اتساع أغراضها وتنوع مناحيها ، وتعدد اتجاهات بما استجد من تيارات سياسية ومذاهب دينية ، وخلافات طائفية ،وعصبيات قبلية ، وتنوعت الخطابة على الساحة فكان منها الخطابة السياسية ، والخطابة الجدلية، والخطابة الوعظية والقصصية، وخطابة المفاخرات والمحاورات، والخطابة المحفلية في المناسبات المختلفة إلى جانب الأغراض الدينية المعروفة المتمثلة في خطبة الجمعة والعيدين ، ومواسم الحج ، والوصايا والتحريض على القتال ، والتهنئة بالنصر.

وقد اتسمت خطابة العصر الأموي بسماتها الفنية المتميزة وملاحها الخاصة المتأصلة بما كان يسري فيها من تيار سياسي متدفق ونزعة دينية متمكنة بدرجات متفاوتة، فهي أحيان أخرى تكون خطابة دينية في مظهرها لكنها تصدر عن أعماق سياسية وتمتد إلى جذور دنيوية تدور حول الخلافة والحكم والخروج على السلطان وما إلى ذلك وقد تشتد آثار التيارات السياسية فيغلب على الخطابة حينئذ التحرر من السمات الدينية المتميزة، ويكثر فيها الاستشهاد بالشعر ويقل الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف.

وقد يغالي بعضهم فيترك الحمد والثناء في مطلع خطبته كما فعل زياد بن أبيه في خطبته البتراء، ومثل هذا النوع من الخطب يتسم بالعنف والحدة والتهديد والوعيد والغلظة والقعقعة بالألفاظ الضخمة والأساليب القوية الجزلة والجرس الرنان ولربما يبالغ في أسلوب العنف والتهديد إلى أن يصير إسرافًا في السب

والشتم، ومع ذلك فإنهم حين يسبون ويشتمون يرتكز بشتى الأساليب والوسائل على خيوط دينية يتشبثون بها ويتخذون منها منطلقًا لأهدافهم السياسية.

بيد أن النزعة الدينية تجلب بوضوح وجلاء في خطب فئات متدينة تناصب الحكام العداء، وترى أن خلفاء بني أمية معتدون وأنهم طلاب مُلْك ودُنيا وأنهم لا يصلحون لحكم المسلمين ، ولعلنا نلحظ الجذور السياسية الممتدة في أعماق سحيقة متوازنة خلف سمت ديني مثير يبدو وكأنه لا شأن له بالسياسة وشئون الحكم ومناوأة الحاكمين وعلى آية حال فهذا النمط من الخطب يلتزم بمراعاة السمت الديني وهي مع ذلك تدور في إطار محدد من البدء فيها بالثناء والحمد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وكثرة الاستشهاد بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية، والتذكير بالله ، والتبصر بالعواقب ، والتحذير من الدنيا ،وغرورها ، والتحرر من زيفها وباطلها وضرب الأمثال بمن مضى من الأمم ،وباد من الطغاة.

ومع هذه النزعة الدينية والاتجاهات السياسية كانت هناك نزعة جدلية أثارتها قضايا دينية ووسائل عقدية حركتها منذ البداية تيارات سياسية مما أدى إلى ظهور خطابة جدلية تمثلت في المناظرات والمحاورات المذهبية وهي صور جديدة ضمت إلى صور الخطابة السياسية والدينية والحفلية وامتازت عنها بما فيها من اصطراع الآراء وحشد الأدلة النقلية ، والعقلية، واستخدام البراهين المنطقية ، والالتزام بأصول البحث والمناظرة وطرق الحجج والمجادلة والاعتماد على الأساليب البيانية المثيرة ، والبلاغة الكتابية المتميزة ، وقد تراوح أسلوب خطابة هذا العصر بين الإيجاز والاطناب وفق مقتضى الحال وحسب ما يمليه المقام فلكل مقام مقال ، ولكل وقت كلام، وما يقال في مجال معين لا يصح في مجال آخر مخالف ، وما يوجه إلى فئة مخصوصة لا يوجه مثله إلى غيرها ، فهذه أنماط متباينة ونماذج متعددة وبيئات مختلفة فلا بد أذن من تعدد الأساليب ، واختلاف صور التعبير، وتنوع مناحي

الكلام ، وخطب الحجاج بن يوسف في الكوفة حين قدم على العراق واليًا من قبل عبد الملك عام ٥٧٥ هـ فقال:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع الغمامة تعرفوني[1]

"ولله يا أهل العراق أني لأرى رؤوسًا قد أينعت وحان قطافها[2]، واني لصاحبها وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى"، وأنشد بعض الشعر ثم قال:

"أني ولله يا أهل العراق ما يقعقع[3]لي بالشنان[4] ولا يغمز جانبي كتغماز التين ولقد فررت[5] عن ذكاء وفتشت عن تجربة وأن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدني أمرها عودًا، وأصلبها مكسرًا ، فرماكم بي لأنكم طالما أوضعتم في الفتنة واضطجعتم في مراقد الضلال والله لأجزمنكم جزم السلمكة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل ، فإنكم كأهل قرية كانت آمنة مطئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ، بما كانوا يصنعون وأني ولله ما أقول ألا وفيت ولا أهم ألا أمضيت ولا أخلق ألا فريت وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم ، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة.. وأني أقسم بالله لا أجد رجلًا تخلف عطائه ثلاثة أيام ألا ضربت عنقه.

١- ابن جلا: رجل مشهور بالفتك والبيت لسحيم.
٢- أني لأرى رؤوساء.... الخ شبه رؤوس العصاة بالثمار الناضج التي حل أوان قطفها.
٣- القعقعة: صوت الجلود اليابسة.

٤- الشنان جمع شن وهو الجل اليابس.
٥- فررت: فر الدابة كشف عن أسنانها ليعرف عمرها.- الكناية: هي جعبة السهام -عجم ألعود: عضة ليختبر صلابته – ولا أخلق: ولا أقدر – فريت: قطعت.

ومن عظات الحسن البصري التي أرسلها إلى قواده:

"أن قومًا عـذوا في المطـارف[1] العتـاق والعمائـم الرقـاق يطلبـون الآمـارات ويضيعون الأمانات يتعرضون للبلاء وهم منه في عافية حتى إذا أخافوا من فـوقهم من أهل العفة وظلموا من تحتهم من أهل الذمة أهزلـوا ديـنهم واسـمنوا بـراذينهم ووسعوا دورهم وضيقوا قبورهم ألم تراهم قد جددوا الثياب وأخلقوا الدين يتكـئ أحدهم على شحاله فيأكل من غير ماله يدعو بحلو بعد حـامض وبحـار بعـد بـارد وبرطب بعد يابس حتى إذا أخذته الكظة تجشأ من البشم ثم قـال : يـا جاريـة هـاتي الحاطوم ما يهضم الطعام يا أخيمق، لا والله لن تهضم إلاّ دِينْكَ... أين جارك؟ أيـن أين مسكنك؟ أين ما أوصاك الله عز وجل به.

فالخطابة الأموية إذا امتازت بسمات وخصـائص تعـد لحـد كبـير امتـداد للعصر السابق له:

١. الإيجاز في القول والتركيز على المضمون قصر الجمل والاهتمام بالصياغة ويلجئون إلى الجمل ذات الإيقاع المنغم والجرس المنتظم دون تكلف أو إرهاق.
٢. يحشد الخطيب براعته فيستعين بكل ما يملك من فصاحة في التعبير ومقدرة خطابية وقد يستعين بالشعر تأبيدًا وتزينًا.
٣. الاعتداد بالخطبة والاهتمام بتنظيمها من جعل لها مقدمة ممهدة للعرض؛ فالخطبة ثم الغرض المسوقة له ثم الخاتمة بها إلمام واضح لما ورد فيها ومن أشهر الخطب البتراء لأن لم يسمى فيها باسم الله بل دلف إلى الغرض المقصود مباشرة قائلًا: (أما بعد فإن الجهالة الجهلاء والغلالة العمياء والفجر الموقد لأهله النار عليهم سعيرها ما يأتي سفهاؤكم).

١- المطـارف: جمع مطرف وهو ثوب من خز –بـراذينهم: دوابهم الكظـة –الشبع البشم: كـالامتلاء –الحـاطوم: المهضم.

٤. التهديد والوعيد: فكل فريق يهدد ويتوعد الفريق الأخر؛ فالحكام يتوعدون الخارجين على حكمهم المارقين من أمرهم والخوارج يملئون الدنيا اعتراضًا والشيعة يخطبون في كل مكان بأحقيتهم في الخلافة.

٥. ظهر جليًا التأثر بالقرآن الكريم بما حوته من معانيه وألفاظه بل قد تكون الخطبة كلها من أي الذكر الحكيم كخطبة مصعب بن الزبير عندما قدم البصرة واليًا من قبل عبدالله بن الزبير٦٧هـ حيث حمد الله وأثنى عليه، ثم قال:
بسم الله الرحمن الرحيم: "طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون أن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعًا يستضعف طائفة منهم يذبح أبنائهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين"- وأشار بيديه نحو الشام-"ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوراثين"-أشار بيديه نحو الحجاز- "ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون"-وأشار بيديه نحو العراق.

فالخطبة كلها آيات بينات كفته كثرة الكلام ولغط الحديث

من الشعراء الأمويين

أولاً: الأخطل:

علمنا أن الأخطل تغلبي وتغلب "فبيلة كبيرة" كانت تنزل الجزيرة وتمتد عشائرها وبطونها جنوبًا حتى الحيرة، وغربًا حتى حدود الشام، وشمالاً وشرقًا حتى أذربيجان وقد تسربت إليها المسيحية في العصر الجاهلي.

وظلت على مسيحيتها في العصر الأموي إلا طائفة قليلة دخلت في الإسلام ونراها في الفترة الأولى من الفتوح الإسلامية تقف في صفوف الفرس والروم فيتصدى لها خالد بن الوليد وينكل بها ويمزقها شر ممزق فتضطر إلى الاعتراف بسلطان الخلافة الإسلامية، ويذهب وفد منها إلى عمر بن الخطاب فيعاملهم معاملة حسنة، ويقبل ألا يدفعوا جزية الأجانب من غير العرب إنما يدفعون صدقة المسلمين من العرب على أن لا ينصروا أعداء الإسلام.

ونتقدم فنجد تغلب في صفين وقد شهرت سيوفها مع معاوية وقبائل الشام اليمنية في وجه علي وأصحابه. وظلت بعد ذلك موالية لبني أمية، فنحن نجدها في صفوف يزيد بن معاوية في موقعة الحرة التي اصطلي نارها الخارجون عليه من أهل المدينة، كما نجدها في صفوف مروان بن الحكم في موقعة مرج راهط التي أندحرت فيها القبائل القيسية – على حد د/ شوقي ضيف.

وكانت زوجة أبيه هي التي أطلقت عليه دوبلاً والدوبل هو الحمار الصغير، أما الأخطل فمعناه السفيه لقبه به كعب بن جعيل أحد شعراء عشيرته لما رأى فيه من شر إذ كان كثير الوقوع في أعراض الناس وحينما تعرض عبد الرحمن بن حسان بن ثابت لنساء بني أمية للإزراء بهن غضب يزيد بن معاوية لتجرئه على رملة أخته ودعا كعب بن جعيل ليهجو الأنصار وكان مسلمًا فقال له: أرادي أنت إلى الإشراك

بعد الإيمان لا أهجو قومًا نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكني أدلك على غلام منا نصراني كأن لسانه لسان ثور، يعني الأخطل فدعاه يزيد ولباه الأخطل فنظم في هجاء الأنصار وشاعرهم عبدالرحمن بن حسان قصيدة دوت في العالم الإسلامي يقول فيها:

ذهبت قريش بالمكارم والعلا   واللؤم تحت عمائم الأنصار

فذروا المعالي لستم من أهلها   وخذوا مساحيكم بني النجار

ومن حينئذ أصبح الأخطل شاعر بني أمية يعيش في بلاطهم وفي ظلالهم وقد اتخذه يزيد نديمًا له فكان يرافقه ويلازمه حتى في الحج إلى البيت الحرام وفي ديوانه قصائد مختلفة في مديحه ومديح أخيه عبد الله وابنه خالد، واستمع إليه يقول في يزيد:

أما يزيد فإني لست ناسيه   حتى يغيبني في الرمس ملحود

جزاك ربك عن مستفرد وحد   نفاه عن أهله جرم وتشريد

ويسترسل في سرد أسماء الأنبياء مما يدل على ثقافته الدينية، ولقد تحققت مصلحته مع البيت الأموي فأكثر له العطاء والمنح وأغدقوا عليه المن فاعتنق فكرة أنهم الصفوة وإن حكمهم قدرًا مقدرًا فقد اصطفاهم الله من باقي خلقه.

تمت جدودهم والله فضلهم   وجد قوم سواهم خامل نكد

ويوم صفين والأبصار خاشعة   أمدهم – إذدعوا من ربهم مدد

وانتم أهل بيت لا يوازنهم   بيت إذا عدت الأحساب والعدد

وهذا العزف المتواصل على قيثاره أحقية الأمويين بالخلافة رفع شأنه وأعلى قدره، ليس لإجادته الشعرية ، وتجويد مدحه فقط بل ثمة سبب سياسي وراء ذلك

فبعد وفاة معاوية ويزيد ونشوب الخلاف بين مروان بن الحكم ثم ابنه عبدالملك مع بن الزبير انضمت تغلب إلى البيت المرواني تؤيده وتدافع عنه يقول:

وقـــد جعـــل الله الخلافـــة فـــيكم بأبيض لا عـارى الخـوان ولا جـدب

ولكـــن رآه الله موضـــع حقهـــا عـلى رغـم أعـداء وصـدادة كـذب

لذا تبوأ الأخطل مكانة سامية عنـد عبـدالملك جعلتـه سـفيرًا لتغلـب لـدى الخليفة، والخليفة يرد برضاه عن الأخطل لتغلب فضلها لوقوفهـا إلى جـواره ومـن قبله إلى جوار أبيه وأفسح له مجلسه، فكان يجيء وعليه جبه خز، وحرز خز، في عنقه سلسلة ذهب فيها صليب ذهب تنتقض لحيته خمرًا حتى ليدخل على عبـدالملك بـن مروان بغير إذن- كما ورد في الأغاني - وهناك حادثتان رواهما أبو الفرج الأصفهاني تدلان في وضوح على مكانته في البلاط الأموي وأنه كـان حقًـا سـفيرًا لقومـه فيـه. والحادثتان جميعًا تتصلان بالحروب التي اندلعت نيرانه بعد موقعة مرج راهـط بـين القيسيين بقيادة الجحاف بن حكيم ، وزفر بن الحارث وبين تغلب قوم الأخطل أمـا الأولى فتتصل بالجحاف إذ نزل مع بعض وجوه قيس على عبدالملك بعد قضائه على ابن الزبير، وكان القتل استحر في تغلب والقبائل القيسية وأراد عبدالملك أن يصلح بين الفئتين، وإذا بالأخطل فينشد:

ألا ســائل الجحــاف هــل هــو ثــائر بقــتلى أصــبيت مــن ســليم وعــامر

وفي قصيدة طويلة وكأنه يريد أن يستغل عبدالملك ليثور ضد قيس ويثأر منها لحروبها ضد تغلب حليفته؛ فوثب الجحاف مغضبًا، وحشد جموع قيس، وأغـار بهـا على تغلب وهي آمنة، فأوقع بها وقعة البشر المعروفة التي قتل فيهـا نسـاءها، وبقـر بطون حواملها وفيها يقول الأخطل:

لقــد أوقــع الجحــاف بالبــشر وقعــة إلى الله منهــا المشــتكي والمعــول

وهذه هي الحادثة الأولى التي تتصل بسفارة الأخطل لقومه لدى عبـدالملك، أما الحادثة الثانية فحادثة زفر بن الحارث زعيم قيس في الجزيرة فإن عبدالملك جذبه إليه، وأجلسه معه على سريره تكريمًا له، فغضبت تغلـب، وثـارت ثـائرة سـفيرها، فدخل على عبدالملك مغيظًا محنقًا وقال له: أتجلس هذا معك على السرير وهو القائل بالأمس:

وقــد ينبــت المرعــى عــلى دمــن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

فقبض عبدالملك رجله، ودفع بها في صدر زفر فانقلب عـن السريـر ووقـف يناشد عبدالملك العهد الذي أعطاه.

وبذلك أصبح سفيرًا لقومه بحق يسـترضى الخليفـة لرضـاهم ويبعـد عـنهم سخطه وأذاه.

ومدحه الأخطل شملت نقاط ثلاثة مدحه عبدالملك –هجاء قيس والتنديـد بهم وبيان أنصار عبدالملك عليهم- فخره بقومه لنصرتهم ووقوفهم إلى جوار البيت المرواني ... وورد خصائص القصيدة الجاهليـة في شـعره بينـة واضـحة ولاسـيما في قصيدته الأشهر "خف القطين" فقد بدأها بوصف رحلة صاحبته في الصحراء على نحو ما صنع زهير في معلقته، ويحاول التميز منه والتجديـد، فيسـتطرد إلى وصـف الخمر واستمع إليه يقول:

خف القطين فراحوا منك أو بكـروا وأزعجــتهم نــوى في صرفهــا غــير

كــأني شــارب يــوم اســتبد بهــم مـن قرقـف ضـمنتها حمـص أوجـدر

جادت بها مـن ذوات القـار مترعـة كلفاء ينحـت عـن خرطومهـا المـدر

والأخطل في وصف الخمر كان يهدف إلى : مغايرة معاصرَيْه جرير والفرزدق، التجديد ،والطرافة عن سابقيه فهو وإن تأثر بزهير إلا أن حاسته الفنية تباينت عنه فظهرت سمته الذاتية في التجديد.

وكأس مثل عين الديك صرف تنسى الشاربين لها العقولا

إذا شرب الفتى منها ثلاثًا بغير الماء حاول أن يطولا

وقد برع في وصف الخمر لذا استغرقت الكثير من ديوانه مخالفًا في ذلك لعدوية جرير والفرزدق.. وتمرده في بنائه الفني لقصيدته فهما مسلمان لا يزينا خمرًا ولا يجترأ فيحببا في ما نهي عنه

راحوا وهم يحسبون الأرض في فلك إن صُرعوا وقت الراحات والركب

وفي مدحه الخليفة عبدالملك نجد الإرث الفني يسيطر عليه فيستعير صور النابغة في مدحه للنعمان..

فالنابغة يقول:

وما الفرات إذا هب الرياح له تمرى أوذيه العبرين بالزبد

يمده كل واد مترع لجب فيه ركام من الينيوت والخضد

يظل من خوفه الملاح معتصمًا بالخيزرانة بعد الأين والنجد

يومًا بأجود منه سيب نافلة ولا يحول عطاء اليوم دون غد

وحينما استلهمها في شعره أدخل عليها الجدة والطرافة، فهو لم يقف عند ما وقف عليه النابغة من تشبيه الممدوح بالفرات في الجود بل زاد في الاستقصاء والتتبع فقد فصل صورة فيضان الفرات، وتعقب انحداره من جبال الروم وضوَّء الصورة

بمشاركة الأمواج والسيول في الإنحـدار لتجسـيم قـوة وعظمـة عطـاء الممـدوح، ومقارنة الأخطل تتعدى الوقوف عند الجود الذي التزمه النابغة فوصل إلى جسامته وروعته وفخامته يقول الأخطل:

إلى إمـــام تغادينـــا فواضـــله ... أظفـــره الله فليهنـــيء لـــه الظفـــر

الحـائض الغمـر والميمـون طـائره ... خليفـــة الله يستســـقى بـــه المطـــر

ومـا الفـرات إذا جاشـت غواربـه ... في حافتيـــه وفي أوســـاطه العـــشر

وزعزعنه رياح الصيف واضـطربت ... فـــوق الجـــآجيء مـــن آذيـــه غـــدر

مسـحنفر مـن جبـال الـروم يسـتره ... منهـــا أكـــافيف فيهـــا دونـــه زور

يومًـا بـأجود منـه حـين تسـأله ... ولا بـــأجهر منـــه حـــين يجتهـــر

مفـترش كـافتراش الليـث كلكلـه ... لوقعـــة كـــائن فيهـــا لـــه جـــزر

مقـــدمًا مـــائتي ألـــف لمنزلـــة ... مـــا إن رأى مـــثلهم جـــن ولا بشـــر

يغشـى القنـاطر يبنيهـا ويهـدمها ... مســـوم فوقـــه الرايـــات والقـــتر

حتـى يكـون لهـم بـالطف ملحمـة ... وبالثويـــة لم ينـــبض بهـــا وتـــر

وتســتبين لأقــوام ضــلالتهم ... ويســـتقيم الـــذي في خـــده صـــعر

ثـم اسـتقل بأثقـال العـراق وقـد ... كانـــت لـــه نقمـــة فـــيهم ومـــدخر

في نبعـة مـن قـريش يعصـبون بهـا ... مـــا إن يـــوازي بـــأعلى نبتهـــا الشـــجر

تعلـو الهضـاب وحّلـوا في أرومتهـا أهل الرباء وأهـل الفخـر إن فخـروا

حشد على الحـق عيـافو الخنـا أنـف إذا ألمــت بهــم مكروهــة صــبروا

وإن تـدجت عـلى الآفـاق مظلمـة كــان لهــم مخــرج منهـا ومعتصــر

أعطـاهم الله جـدًا ينصــرون بــه لاجــد إلا صــغير بعــد محتقــر

شمس العـداوة حتـى يسـتقاد لهـم وأعظـم النـاس أحلامًـا إذا قـد روا

وفي مدحه لعبدالملك يتبدى ثلاثة خطوط: مدحه عبـدالملك نفسـه في خلقـه وشخصيته وقدرته على التغيير في بنائه القناطر واستطاعته التجديد بهـدمها، وقوتـه في البطش بخصومه، قوة شخصيته وحسن خلقه.

مدح عبدالملك القائد الشجاع الكريم المقدام الناهض بأعباء العراق وأثقالهـا فاختلفت القصيدة عن اتجاه القصائد قبلها.

مدح قبيلةعبدالملك ، فقد أضاف علـيهم مـا يتمنـاه المـرء في أرومتـه وبيتـه، ففكرة تفردهم بجميل الخصال، وحميد الفعال هيئـتهم –كـما يـرى– ومهـدت لهـم ليسودا الناس ويملكوهم فهم أنفاء حلماء محبي الحق حسنى التصـرف صـابرون في مواقف الصبر باطشون حين يراد البطش.

ولا شك أن هذا التعبير من المدحه الأموية وإن كان جزئيًـا إلا أنـه عـبر عـن الدولة والتغيير الذي لحقها ، فالخلافـة صـارت حقًـا للبيـت المـرواني وانطلـق في ترسيخ هذا المعنى والخلافة صارت دولة لها مسـتحدثاتها، وهـو في مدحـه لم يهـدم المتوارث الفني بل جدد في إطاره وأظهر إبداعه وتفرده وهي محاولة لتجديد وتنويع في المديح واستغلال لكل ما يمكن حتى يأتي الشاعر بثناء طريف يسـتهوى الخليفـة والناس من حوله ومن غير شك نجح الأخطل في قصيدته هـذه حتـى لـيروى أنـه

حين أنشدها عبدالملك قال له:"ويحك يا أخطل أتريد أن أكتب إلى الآفاق أنك أشعر العرب فقال الأخطل: أكتفى بقول أمير المؤمنين، فأمر عبد الملك له بجفنة كانت بين يديه فملئت دراهم، وألقى عليه خلعًا وخرج به مولي لعبدالملك على الناس يقول: هذا شاعر أمير المؤمنين هذا أشعر العرب."

ويعد عصر عبدالملك خير عصور الأخطل وأبهجها في نفسه، فقد خصه بعطفه، واتخده سميرًا وصديقًا، فقرت عين الأخطل وقرت نفسه.

ثانيًا: الفرزدق:

شارك الفرزدق جريرًا في الأصل فهما ينتميان لشجرة تميم وكانت تشغل هذه الشجرة الجزء الأكبر من شرقي الجزيرة إذ كانت أغصانها وفروعها تمتد من البحرين واليمامة وفيافي الدهناء جنوبًا إلى شواطئ الفرات شمالًا، وتتوغل على طول هذا الخط في نجد وجعلها ذلك تجاور قبائل كثيرة، فقد كانت تجاور في الجنوب عبد القيس وبني حنيفة وكانت تجاور في الشمال أسدًا وبكرًا وتغلب بينها كانت تجاور في الغرب قبائل كلها قيسية وأهمها غطفان وباهله.

وقد دخلت في الإسلام بعد فتح مكة ثم أرتد أكثرها متبعين متنبئه تدعى "سجاح" واستطاع خالد بن الوليد ردهم إلى الإسلام فحسن إسلامهم. وشاركوا خالدًا في الفتوحات وفي حروب الفرس والروم. يقول الفرزدق:

فتحنا بإذن الله كل مدينة ... من الهند أو باب من الروم مغلق

ثم اختلف فرعان من الشجرة فيما ولد الفرزدق في الفرع الذي فرع دارم من بني مجاشع وجده محي الموءودات.. نج جريرًا ينتمي لأب يرضع الشاه لكي لا يُسمع صوت الحلب فيطلب منه لبنًا!! فالفرزدق متلفع بأردية الشرف من جهة الأبوين يفتخر كثيرًا بأصله وأعمامه وأخواله ولا يكف عن روي حادثان وقعا لجده يدلان على كرمه وشرفه وسؤدده.. أما الحادث الأول فملخصه أن ثلاثة نفر من

قبيلة كلب تراهنوا على أن يختاروا من تميم وبكر أشخاصًا ليسألوهم، فأيهم أعطى ولم يسألهم عن نسبهم من هم كان أفضلهم واختار كل منهم شخصًا ووقع اختيارهم على عمير بن السليك الشيباني، طلبه بن قيس بن عاصم المنقرى، وغالب بن صعصع المجاشعي وذهبوا أولًا إلى عمير فسألوه مائة ناقة فسألهم من أنتم فانصرفوا عنه إلى طلبه بن قيس ، فصنع صنيعه فولوا وجوهم نحو غالب فأعطاهم ما سألوا ولم يسألهم من هم فساروا ليلة ثم ردوا ما أخذوه وأخذ صاحب غالب الرهن وفي ذلك يقول الفرزدق:

وإذا ناد بت كلب على الناس أيهم أحــق بتــاج الماجــد المتكــرم

على نفر هم من نـزار ذوى العـلا وأهل الجراثيم التـي لــم تهـدم

فلم يجل عن أحسابهم غير غالب جرى بعناني كل أبيض خضـرم

وأما الحادث الثاني فملخصه ان بني يربوع وبني دارم أصابتهم سنة، فانتجعوا بلاد كلب، ولما حلوا هناك بادر غالب فعقر للناس ناقة وأطعمهم إياها فصنع سحيم بن وثيل اليربوعي فنحر ناقة للناس فقيل لغالب: إنه ينافسك، فقال: كلا صنعه ولكنه امرؤ كريم وسأنظر ذلك: ونحر اثنين من نوقه فصنع سحيم صنعه فنحر عشرًا فنحر سحيم عشرًا، حينئذ نحر إبله كلها، ويقال كانت مائة ويقال كانت أربعمائة وكان ذلك في مكان يسمى صوءر، كرره الفرزدق في شعره وافتخر به كثيرًا.

اتسم الفرزدق بخصال حسان كأصله وإن كان فيه بعض خصال الجاهلية[1]، وكان فخَّارًا بالآباء والأجداد والاحساب والأنساب، وهذا الإحساس بالتميز هو الواقف وراء كثرة هجاءه ووفرة فخره.

١- يروى أنه كان يجير الناس ويجير خاصة على قبر أبيه كالجاهلية، وتتبع خصالهم في الذبح فحينما توفى صديقه بشر بن مروان والي العراق عقر فرسه على قبره كالجاهليين.

فقد كان يمتاح من بئر لا ينضب وساكبًا ثقافته ،وبلاغة إبداعه، وفصاحته في شعره، مهاجمًا لكافة القبائل المتجرئه على تميم، وجند نفسه بوقًا داعيًا لمجد قومه متغنيًا بفضائلهم ممتدحًا خصالهم، مهاجمًا مناوئيهم، وهذا الإحساس المفرط بقبيلته ليس في شعره بل في منهج حياته فحينما باع أبله وقبض ثمنها في زمن زياد بن أبيه هاجمه الناس أن آباه كان يذبح ويوزع بينما هو باع وأدخر مما جعله ينثر الثمن على الناس وينخلع من ثيابه ويوزع جميع ما معه لكي يلتحق بسؤدد أبيه وقومه فطارده زياد لفعله هذا ، وأيضًا حينما رآه يهجو بني تميم هجاءً قبيحًا، فطلبه، وعلم الفرزدق، ففر منه إلى سعيد بن العاص وإلى معاوية على المدينة وفي ذلك يقول:

ألا من مبلغ عني زيادًا مغلغلة يخب بها البريد

بأني قد فررت إلى سعيد ولا يسطاع ما يحمي سعيد

فررت إليه من ليث هزبر تعادي عن فريسته الأسود

واستمر الفرزدق في الحجاز منذ تعقبه زياد سنة خمسين للهجرة حتى توفى سنة أربع وخمسين.

وهذا الاعتزاز والإباء والتكبر... قوض المدح عنده فلم نجده مقبلاً على المدح بحماس لغير قومه بل أنه كان يتبنى مذهب النفاق السياسي .. فهو يبغض اليمنية والقيسية.. لكن حينما يتولى أحد منهما الولاية كان يضطر إلى مدحه كما فعل مع يزيد بن مهلب اليمني وخالد القصري، والحجاج، وعمر بن هبيره الفزارى من قيس ... فإذا عزل الولاة هجاهم بضراوة .. هذه الثقافة لم تك مفروضة على الشاعر الجاهلي المتحرك بإحساسه فهو غير خاضع لسلطان أو والٍ.

ومنهجه الفني في مدحه: اختلف ولا شك عن القدامى فهو يمدحهم باستحواذهم على الخصال الإسلامية، وقضائهم بالعدل ونشر الأمانة يقول واصفًا الحجاج:

ولم أر كالحجاج عونًا على التقى ... ولا طالبًا يومًا طريدة تابل

بسيف به الله تضرب من عصى ... على قصر الأعناق فوق الكواهل

شفيت من الداء العراق فلم تدع ... به ريبة بعد اصطفاق الزلازل

وكنا بأرض يا بن يوسف لم يكن ... يبالي بها ما يرتشي كل عامل

وما تبتغى الحاجيات عندك بالرشا ... ولا تقتضى إلا بها في الرسائل

وما الناس إلا في سبيلين منهما ... سبيل لحق أو سبيل لباطل

فهو هنا سجل مواقف فعلها الحجاج فقد قضي على الرشوة وأقر بالعدل، أعلى الحق، وأزهق الباطل، ثم مدحه بالقضاء على ثورة اندلعت في العراق.

فالفرزدق جدد أكثر وأوضح في المعاني منطلقًا من الخصال الإسلامية التي ترفع ملتزمها وتضع المتنصل منها وهذا معنى جديد فإن الأخطل جدد بوجود الخمر والصور والخيال... والفرزدق حدد بالنص على خلق، يعلو من حواها ويدنو الخالي منها.

كما وضع عينه على الأحداث فالحياة الجاهلية كانت ثوراتها لأسباب معروفة خلافًا على –الكلأ– إظهار الشجاعة – دفع المهانة ... أما الإسلام فالأخلاق استمدت من الدين فظهرت الرغبة في ذيوعه واستتباب الأمن – وتجميع الكلمة للمسلمين والفتوحات المنتشرة – وثائرون من داخل الدولة وخارجها.

كل ذلك تبدي وظهر في مدح الممدوح – الحجاج- بإحكامه السيطرة وقدرته على النصر على هذه المنغصات لكن الروح المسيطرة على مدائحه لم تك توازي روحه الوثابة في فخره وكان أبي النفس متمرد الطبيعة فعلي حبه للنوار هجا شفيعه إليها وعرَّض به.وحدث أن زوجه النوار لجأت إلى ابن الزبير في مكة تريد أن يسرحها منه فتبعتها نفسه هناك حيث حاول أن يقف بينها وبين غايتها واتخذ حمزة زلفى إلى أبيه عبد الله بينما اتخذت النوار خولة بنت منظور زوجة زلفى إليه،واستجاب عبدالله لزوجه فانقلب الفرزدق يفخر عليه ويعرض به من مثل قوله:

أما بنوه فلم تقبل شفاعتهم وشفعت بنت منظور بن ربَّانا

ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزرًا مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

وقوله:

أعبد الله مهلاً عن أذاني فإني لا الضعيف ولا السؤوم

ولكني صفاة لم تؤبس تزل الطير عنها والعصوم

وظل على موقفه من هجاء ابن الزبير والقيسين، ومن انتصر لهم كجرير الذي اشتعلت بينهما القصائد فقد كان ينتصر لعبدالله بن الزبير، ووقف الفرزدق على مسافة متباعدة من الولاة والحكام فلم يقبل على مدحهم وإصباغ الصفات الحسان عليهم فهو وإن كان مدح بشر بن مروان ثم الحجاج القيسي.. إلا أن المدح لم يك صافيًا وربما يرجع ذلك لوفائه لعبدالعزيز بن مروان وتمرده على عبدالملك حين أراد أن يخلعه عن ولاية العهد ويولي ابنه الوليد مكانه فتمرد عليه.

ولما حاول الوليد أن يخلع سليمان أخاه عن ولاية العهد ويجعلها لابنه عبدالعزيز ودعا إلى ذلك الحجاج وأنصاره في العراق ظل الفرزدق بعيدًا بسبب هذه النفسية المتمردة فيه، بل لعله دعا إلى سليمان بعد وفاة الحجاج فقد توفي قبل الوليد.

وولي الأمر سليمان فقربه منه وحينئذ تحول الفرزدق شاعرًا أمويًا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة إذ نراه يحطب في حبل الأمويين ويصبح داعية من دعاته وقد سجل في شعره هذا التحول الذي صار إليه في عهد سليمان إذ يقول له من شعر:

تركت بني حرب وكانوا أئمة ... ومروان لا آتيه والمتخيرا

أباك وقد كان الوليد أرادني ... ليفعل خيرًا أو ليؤمن أو جرا

فما كنت عن نفسي لأرحل طائعًا ... إلى الشام حتى كنت أنت المؤمرا

فهو يعلن إلى سليمان أنه لم يفد على خليفة أموي قبله، وأنه أصبح شاعره الذي يلهج بذكره والثناء عليه، بل الذي يدعو له ويتغنى باسمه ومآثاره وقد ذهب يشيد به وبآبائه على نحو ما نجد في قوله:

ومن عبد شمس أنت سادس ستة ... خلائف كانوا منهم العم والأب

هداة ومهديين عثمان منهم ... ومروان وابن الأبطحين المطيب

وعرفت قدمه طريق الولاة الأمويين مادحًا لهم بالخصال الإسلامية وأنهم قدوة حسنة وحكمهم صالح ويعرض بالثائرين عليهم وكان لأول خليفة يقدم عليه منزلة خاصة لديه فقد خلع عليه إحدى كلمات الشيعة وهي لفظة "مهدى" يقول مادحًا سليمان:

أنت الذي نعت الكتاب لنا ... في ناطق التوارة والزبر

كــم كـــان مـــن قـــس يخبرنـــا بخلافـــة المهـــدى أو حـــبر

جعـــل الإلـــه لنـــا خلافتـــه بـــرء القـــروح وعصـــمة الجـــبر

كـــم حـــل عنـــا عـــدل ســـنته مـــن مغـــرم ثقـــل ومـــن إصر

ثالثًا جرير:

ابن عم الفرزدق كل منهما كان مصوبًا سهامه تجاه صاحبه وكـان جريـر مـن كليب أحد غصون يربوع وهو غصن كانت أوراقه جافة وأليافه يابسـة إلى حـد مـا فلم تكن له نضرة غصن دارم ومجاشع قوم الفرزدق ولا اخضرار ، أوراقه فمجاشع كانت في الذروة العليا من تميم، أما كليب فكانت في السفح والطبقـة الـدنيا ويعـبر المؤرخون لجرير عن ذلك فيقولون إن قومه كانوا يرعون الغنم والحمير فهم ليسـوا أهل إبل وخيل وكان جرير يعترف بذلك بل كان يفخر به فقد كان يرى نفسه زهرة جميلة نبتت في تربة ليس من شأنها أن تنبت الزهر.

ولكن وإن أخطأ الشرف جريرًا فإن ملكة الشعر لم تخطئه، بل أفاضـت عليـه بركاتها، لكن لم يوجهها للفخر بآبائه كما فعل الفرزدق بـل راش سـهامه ضـد تمـيم عامة والفرزدق خاصة مهاجمًا لهم منافحًا عن قـيس والـزبير، مما جعـل الفـرزدق يعيب عليه ذلك ويرجعه لكثرة الأموال المصبوبة في حجره جراء مدحه لهم وهجاءه لقومه فهو لم يك لديـه العصـبية القبليـة أو العربيـة ، **وربـما ضـعت أصـله جعلتـه لا يستنكف أن يمدح العجم قائلاً:**

ويجمعنـــا والغـــر أولاد ســـارة أب لا نبـــالى بعـــده مـــن تعـــذرًا

وكان مديح العجم آنذاك كبيرة مـن الكبـائر، ومـع ضـعف حاسـته القبليـة وتهافت نعرته العربية توهجت مشاعره الدينية، وزهت أحساسيه الإيمانيـة ولكنهـا

نفسية جرير التي لم تكن تستشعر العصبية العربية ولا العصبية القبلية على نحو ما يستشعرها الناس والشعراء في عصره ومن هنا لم يجد بأسًا أن يعيش حياته يتغنى باسم قيس وآثرها في الجاهلية والإسلام.

وليس هذا كل ما يلاحظ على اختلاف نفسية الشاعرين فنحن نلاحظ أيضًا أن صلة الفرزدق بآبائه واعتداده بأرستقراطيته وأمجاده كل ذلك جعله لا يتأثر بالإسلام تأثرًا عميقًا على نحو ما تأثر به جرير فبينما يعرف هو بفسقه يعرف جرير بعفافه ويروى الرواة أنه رأى جريرًا محرمًا فقال: والله لأفسدن عليه حجه ثم جاءه مستقبلاً له وقال:

وإنك لاق بالمشاعر من منى فخارًا فخبرني بمن أنت فاخر

فقال جرير: لبيك اللهم لبيك ولم يجبه ، وفي ذلك دلالة واضحة على اختلاف النفسيتين وأن الإسلام كان يتعمق نفسية جرير بأكثر مما يتعمق نفسية الفرزدق.

فالنفسية هينة لينة تميل للاستكانة نفارة من التمرد ألا وهو الصبغة الأساسية التي تسيطر على نفسية الفرزدق حتى إنه قال تعليقًا على بعض شعره: "ما أحوجه مع عفته إلى صلابة شعري، وما أحوجني إلى رقة شعره لما ترون –كما ورد في الشعر والشعراء."

وقد أقبل جرير على مدح الولاة عامة، ومدح القيسيين خاصة ولاسيما زعيمهم "الحجاج" حتى صار شاعره غير مدافع ولا منازع، يقول مبينًا أن الحزم والقوة التي أتسم بها حكم الحجاج كانت سياسة رشيدة صالحة لتلك الفترة.

من سد مطلع النفاق عليكم أمن من يصول كصولة الحجاج

إن ابن يوسف فاعلموا وتيقنوا ماضي البصيرة واضح المنهاج

ماضي على الغمرات يمضي همه والليل مختلف الطرائق داجي

منع الرشا وأراكم سبل الهدى   واللص نكلّه عن الإدلاج

ولقد كسرت سنان كل منافق   ولقد منعت حقائب الحجاج

فهو يصفه بالشجاعة ونفاذ البصيرة ووضوح المنهج واختراق عزيمته للشدائد وانطلاقه في الأمور ويعطف على سياسته فيبين رشدها وما أفاءت على الناس فقد منع الرشوة وأمن الطرق من اللصوص وأصبح الحجاج لا يخافون على حقائبهم نهبًا ولا سلبًا، وبذلك قضى الحجاج على كل فساد في العراق سواء كان ماديًا أو معنويًا فإن يده امتدت أيضًا إلى الفساد النفسي وإلى هذه الآفة التي تسمى النفاق فعالجها في أصحابها وقضي على أفاعيها وسمومها وعلى هذه الشاكلة يصور جرير في مدائحه للحجاج سياسة قويمة تقوم على اتباع سبل الهدى واستمع إليه يقول:

وثنتان في الحجاج لا ترك ظلم   سويا ولا عد المراشاة نائل

قدمت على أهل العراق ومنهم   مخالف دين المسلمين وخاذل

فكنت لمن لايبرى الدين قلبه   شفاء وخف المدهن المتثاقل

وسرعان ما تطير سمعته ويعجب به عبدالملك ويغبط الحجاج على شاعره فيرسله الحجاج له **وأنشده قصية منها:**

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

وأعجب به عبدالملك وأعطاه مائة ناقة وثمانية من الرعاء وذكر ذلك جرير في شعره ومن حينئذ أصبح شاعر بني أمية: عبدالملك وأبنائه يتشيع لهم ويدعو دعوتهم وينفخ مع أنصارهم في بوقهم بكل ما أُوتى من حول فني وقوة.

وهنا تتباين الشخصيتان .... فشخصية جرير مستكينة ما تكاد تُمس بالمعروف حتى تسمح بكنوزها ولألئها، وفي ضراعه يستمر في مدح عبدالملك وأولاده... وصار داعيًا لهم في العراق وتأثر بأقوال الشيعة فمدح عبدالملك بأنه عمود الدين ولولاه ما انعقدت أحكام المسلمين وأنه يستمد كل شيء من دينه وهو يشير إلى الجبرية... فكل شيء بقضاء وقدر وخلافه الأمويين قدرًا مقدورًا.

وصار على هذا النهج في المدح لخلفاء بني أمية يقول مقتفيًا أثر الشيعة ومنهجهم.

لولا الخليفة والقرآن يقرؤه ... ما قام للناس أحكام ولا جمع

أنت الأمين أمين الله لا سرف ... فيما وليت ولا هيابة ورع

أنت المبارك يهدى الله شيعته ... إذا تفرقت الأهواء والشيع

فكل أمر على يمن أمرت به ... فينا مطاع ومهما قلت يستمع

يا آل مروان إن الله فضلكم ... فضلًا عظيمًا على من دينه البدع

يقول في عبدالملك من قصيرة أخرى:

الله طوقك الخلافة والهدى ... ولله ليس لما قضي تبديل

وفي هذا البيت إشارة إلى فكرة المهدى من جهة وإشارة إلى مذهب الجبرية من جهة ثانية فكل شيء بقضاء وقدر ولا سبيل إلى التبديل والتغيير في أي شيء وكان بنو أمية كما أسلفنا يذيعون هذا المبدأ حتى ينصرف الناس عن التفكير في خلافتهم ومحاولة تبديلها أو صرفها عنهم فالله جل وعز شاء أن يكونوا هم خلفاء رسوله ولا راد لمشيته، ونجد هذه الفكرة منتشرة في شعر جرير ومديحه لهم وكأنه يريد أن يقررها تقريرًا واستمع إليه هذه الفكرة في:

إن الوليـــد هـــو الإمـــام المصـــطفى بالنصـــر هـــز لـــواؤه والمغـــنم

ذو العـــرش قـــد رأن تكـــون خليفـــه ملكت فاعل على المنـابر وأسـلم

فهو يقول في الوليد ما قاله في أبيه من أن خلافته قـدر مقـدور، قـدره العـلى العظيم صاحب العرش والأمر، الذي تصدر عنه أعمالنا في الكون صـدور الضـوء عن الشمس فلا يمكن ردها لأنها تصدر بقضاء نافذ محتوم.

وهو عكس الفرزدق الذي لم يتصل بالولاة إلا منذ سليمان ثم تحول من بعده عن مدح الخلفاء تمردًا وأنفه.

وظل جرير يمدح كل خليفة بصفات الشيعة ويسبغ علـيهم الهالـة القدسـية التي يسبغها الشيعة ويصفهم بالصفات الجليلة كالعدل والهدى والأمانة والإمامـة، والسير على منهج الكتاب والسـنة ومنـاوئتهم أهـل البـدع والضـلال المبتـدعين في الدين، يصدون عن سبيل الله، وهم أهل الحق والتقى والـورع، فهـو يقدسـهم لأن الله فضلهم وخصهم الكرامة واصطفاهم على سائر خلقه، وثبتهم بكتابه وقضاءه.

فجرير جدد في المدحة الأموية وأفرغ خبئ ذاته، مـن اللفـظ الجيـد والتعبـير الراق، والصور المستملحة حتى صارت مدائحه الأموية كالنجوم القطبية الثابتـة في تاريخ قصيدة المدح العربية فاقتفي أثره وسار على نهجه الآتين بعد مثل بشار بن برد وأبي نواس، البحترى وأبو تمام – على حد قول د شوقي ضيف يقـول مادحًـا أخـر خليفة اتصل به وهو هشام بن عبدالملك:

إلى المهـــدى نفـــزع إن فزعنـــا ونستســـقى بغرتـــه الغمامـــا

وحبـــل الله تعصـــمكم قـــواه فـــلا نخشـــى لعروتـــه انفصـــاما

رضـــينا بالخليفـــة حـــين كنـــا لـــه تبعًـــا وكـــان لنـــا إمامًـــا

تبـــاشرت الـــبلاد لكـــم بحكـــم   أقـــام لنـــا الفـــرائض واســـتقاما

فهشام هو المهدى الذي يفزع إليه النـاس وقـد أقامـه الله علـيهم ووكـل لـه شئونهم وهي وكالة قديمة بين الله عز وجل وآبائه ، فحبل الله تعصـمهم قـواه فـلا يخشى انتقاضه ولا انتكاسه وهـذا الإمـام الجديـد هشـام يطبـق في حكمـه حـدود الشريعة الإسلامية وينشر العدل في ربوع بلاده.

غزل عمر بن أبي ربيعة

ينحدر عمر بن أبي ربيعة من بيت سؤدد وشرف، كريم الأعمام والأخوال، قيل ولد يوم وفاة عمر بن الخطاب..

فقيل أي خير رفع وأي شر وضع.

وهو صاحب مدرسة الشعر القصصي- حيث السرد والحكي سيطر على أشعاره حاكيًا مجونه وتهوره وقيل عند الوفاة أشفق ابنه عليه ورأئ ذلك في وجهه، فطمئنه أن رداءه لم يرفع لحرام.

وهو قرشي... كريم الحسب نزل في أعمامه القرآن وينسب إلى الجد غالبًا فيقال بن أبي ربيعة وهو من أسرة ثرية واسعة الثراء من أسرها هي أسرة بني مخزوم وكان أحدهم وهو هشام بن المغيرة يلقب في الجاهلية برب قريش، وأخوه الوليد كان سيدًا من سادات مكة وفيه نزل قوله تعالى: وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) وكان لهذين الأخوين أخ ثالث هو أبو ربيعة جد عمر وكان شجاعًا من شجعان قريش ويقولون إنه لم يكن يقاتل إلا برمحين.

وهؤلاء الإخوة الثلاثة وأبناؤهم قص الرواة عنهم وعن تراثهم أخبارًا كثيرة وفي الوليد نزلت الآية الكريمة﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾﴾[سورة المدَّثر: ١١-الآية ١٥]وفي الطبري أنه لما أسلم عكرمة بن أبي جهل بن هشام بن المغيرة قال رسول الله ﷺ: (لا تسألني شيئًا أعطيته أحدًا من الناس إلا أعطيته لك، فقال عكرمة: ما كنت لأسألك مالًا، وإني لمن أكثر قريش مالًا) ففرعا الوليد وهشام كانا ثريين وكذلك كان فرع ابن أبي ربيعة فابنه عبدالله كان تاجرًا موسرًا من تجار مكة في الجاهلية وكان متجرة في اليمن وكانت قريش تسميه العدل لأنه كان يكسو الكعبة في الجاهلية سنة

وتكسوها هي سنة ويقال إن الرسول اقترض منه بضعة عشر ـ ألفًا يستعين بها في موقعة حنين.

وأبو عمر كان سيدًا من سادات مكة تزوج سبيئتين أنجب من أحداها ولده الحارث ومن الآخر عمر.

وقد شب بمكة ثم شبب بها وأوضح مى تعلق بها وهيامه:

وأنا امرؤ بقرار مكة مسكني   ولها هواى فقد سبت قلب

وكان أبوه والٍ على الجند باليمن فترك الكثير من تربيته إلى أمه التي تيمت به، وأغدقت عليه حبها وحنانها حتى شب مدللاً مرفهًا، حاويًا لخصال النساء فما كان يبلغ الثانية عشر حتى مات أبوه فتسلمته أمه "كلية " فأفرغت حبها عليه ، وتفرغت لحبه مما كان له أثر عظيم في نرجسيته وإعجابه بنفسه، جماله وثراءه فشب جميلاً فتيًا ثريًا معطرًا يلفت النظر ويستحوذ على العقول.

البيئة المحيطة:

لم يستطيع أن يكون عمر بن أبي ربيعة مدرسة أدبية لها رائد وأعضاء شأن المدارس الأدبية المختلفة، فقد تفرد عمر بهذه المدرسة لخاصة أنفرد بها فظروف المجتمع تغيرت عما قبله في العصر الجاهلي وصدر الإسلام وظهرت مؤثرات مختلفة حادة وعنيفة هزت المجتمع الأموي فقد كثرت الفتوحات، وفاضت الأموال، وزاد إحساس العربي بذاته، فقد قاد الجيوش وحقق الانتصارات وجلب الأموال وشعر أنه وريث كسرى وقيصر غير مدافع مما فتح شهيته على اللهو والانغماس في الترف. وشاعت الرفاهية، وقل الرجال: إما ذهابًا إلى الحرب فيموتون ولا يرجعون، أو ذهابًا إلى الأرض الجديدة فيعجبهم المقام ولا يرجعون، فخرجت النساء وكن أكثر جراءة وتعرضًا للرجال يستوي في ذلك أواسط النساء وأشرافهم.

فالنساء الفضليات أعجبن بالمغنيين والشعراء على السواء الذين شكلوا مع بعضهم البعض جوقه مما يسر له الاتصال مباشرة بالمرأة المتحضرة لعهده، وقد رشحته تربية أمه ومعاشرته لها ولمن يزرنها من النساء أن يحسن وصفهن، وأن يعرف حقًا كيف يصور نفسيتهن في مكة لعصره فقد خبرهن من قرب عن طريق أمه من جهة ، وعن طريق اختلاطه بهن مع الغريض وغيره من جهة أخرى ، فتحول في غزله إلى وصف أحاديثهن وما ينطوى فيها من غيرة، وخاصة حين يتعرض شاعر لسيدة يصف جمالها فيزرع بذلك الحقد في قلوب أخواتها وينفسن عليها ما توصف به من حسن وفتنة ، **يقول**:

ليت هندا انجزتنا ما تعد — وشفت أنفسنا مما تجد

واستبدت مرة واحدة — إنما العاجز من لا يستبد

ولقد قالت لجارات لها — ذات يوم وتعرت تبترد

أكما ينعتني تبصرنني — عمرکن الله أم لا يقتصد

فتضاحكن وقد قلن لها — حسن في كل عين من تود

حسدًا حملنه من أجله — وقديمًا كان في الناس الحسد

فعمر يتحدث هنا بلسان النساء ونفسيتهن وما يغمرهن من غيرة شديدة حين يتغنى شخص بجمال إحداهن وما لها من فتنة وإغراء.

وغزل عمر طريف من هذه الناحية، فهو يقص علينا كثيرًا من أحاديث النساء وترهاتهن وما يجول في أذهانهن وكل ذلك يمده فيه تربية أمه له وما تعوده من الجلوس مع المرأة في عصره وأكبر الظن أنى لا أغلو إذا زعمت أن عمر به جانب من انعكاس العاطفة وشذوذها فنحن لا نجد عنده الشاعر الغزل المألوف

الذي يعني بوصف حبه، وإنما نجد شاعرًا يعني بوصف المرأة نفسها ووصف أحاسيسها وكأن غايته من ديوانه أن يصف المرأة وصفًا نفسيًا.

ومعنى ذلك أن عمر في ديوانه وغزله معطل إلى حد كبير إذ حول الغزل من الرجل إلى المرأة فالصورة العامة في غزله أنه معشوق لا عاشق ، وعمر في ذلك يعبر عن تطور جديد في الحياة العربية فقبله لم نكن نعرف شاعرًا يصبح شخصه –على حد قول– د/ شوقي ضيف.– هو موضوع شعره .

وكثرت السبايا والإماء الأجنبيات اللاتي يجذبن الرجال ويلفتن أنظارهم فاضطرت المرأة الكريمة الإفصاح عن وجهها ووضعها لكي تلفت نظرهم وتنال اهتمامهم، وتبدلت مكة بدلاً من المدينة الخاضعة للفطرة والحياة البدوية صارت مدنية متحضرة ، يعرف أهلها الترف والنعيم في مختلف مناحي الحياة ، في الملبس والمطعم وألوان الزينة، وكثر المال والمغنيات والجواري واشتهر الغريض وابن سَريح مغنيان يوقفا العقول ويؤلفا القلوب.

شعر بن أبي ربيعة في هذا الجو المفعم بالترف والرغد نشأ عمر يخالط النساء الشريفات ... فلم ير أنه أعجب بامرأة دونية بل ارتبط بسليلات الحسب من مثل الثريا زوج سهيل بن عبدالعزيز بن مروان التي أعجبت بشعره ، وخاصة حينما يُغني فنظم فيها الكثير من غزله ثم ارتبط بزينب الجمحية مدنية حجت مع أخيها فعلق بها وقيل بل تزوجها ... ثم اختلفت الآراء في هند، نَعم، ذات الخال، هل هن شخصيات حقيقية أم رموز يخفي بها الشخصيات الحقيقية.وأيًا ما كان فالمرأة التي تغزل بها في أسلوب جديد لأنها امرأة جديدة متحضرة اتيح لها من مناهج وسلبها. جعلتها تغرق في الحلي والطيب حتى أنه قال واصفًا لها:

لو دب زر فوق ضاحي جلدها لأبان من آثارهن حدور

فلو أن الذر اتصل بظاهر جسمها لظهرت فيه من آثاره كلوم وجروح وفي كل جانب من جوانب غزل عمر نجد أثر هذا النعيم بل قل أثر هذا الترف الشديد.

ومعنى ذلك أن صورة المرأة في غزل عمر صورة جديدة هي صورة امرأة منعمة مترفة تحف بها الجواري يسلينها ويعددن لها من أفانين اللهو واللعب ما تقطع قطعًا هنيئًا على هذا النحو الذي يصفه عمر.

ولقد قالت لجارات لها كالمها يلعبن في حجرتها

خذن عنى الظل لا يتبعني ومضت تسعى إلى قبتها

وهذا دلال أي دلال أن تطلب امرأة من جواريها يأخذن الظل عنها وأكبر الظن أنها لا ترمز بذلك إلى شيء سوى الظل نفسه ، فالحديث حديث دلال ولعب.

وهذه المرأة المدلله المترفة كما كانت تتسلى باللعب مع جواريها كانت تتسلى بلعب المغنين والمغنيات وما يلحنون على عيدانهم.

ومن هنا تأتي صلة عمر بها فقد كان يلزم المغنين يقدم لهم الشعر ويغنون فيه فطبيعي أن يتصل بسيداتهم من مثل الثريا مولاة الغريض وكان من أهم المغنين في عصره كما يتصل بغيرها ممن يزرنها ويجلسن معها للسماع- على حد قول د/ شوقي ضيف-

وكان الغريض الذي نشا في بيت الثريا وأعجبت بغنائه كما ورد في الأغاني أن الحارث بن خالد المخزومي بلغني أن الغريض خرج مع نسوة من أهل مكة من أهل الشرف ليلاً إلى بعض المتحدثات من نواحي مكة ، وكانت ليلة مقمرة فاشتقت إليهن وإلى مجالستهن وإلى حديثهن وكان عمر بن أبي ربيعة مني قريبًا فأتيته فقلت له إن فلانة وفلانة وفلانة –حتى سميتهن كلهن- قد بعثنني وهن يقرأن عليك السلام، وقلن: تشوقن إليك في ليلتنا هذه لصوت أنشدناه الغريض وكان الغريض

يغني هذا الصوت فيجيده ، وكان ابن أبي ربيعة بـه معجبًـا وكـان كثـيرًا مـا يسـأل الغريض أن يغنيه وهو قوله:

مسى بأسماء هذا القلـب معمـودًا إذا أقـول صـحا يعتـاده عيـدًا

فلما أخبرته الخبر قال: لقد أزعجتني في وقت كانت الدعة أحب فيه إلي ولكن صوت الغريض ، وحديث النسوة ليس له مترك ولا عنه محيص فدعا بثيابه فلبسـها وقال: امض فمضينا نمشي العجل حتى قربنا مـنهن، فقـال عمـر: خفـض عليـك مشيك ففعلت حتى وقفنا عليهن وهن في أطيب حـديث وأحسـن مجلـس فسـلمنا فتهيبننا وتخفرن منا، فقال الغريض: لا عليكن! هذا ابن أبي ربيعـة، والحـارث بـن خالد جاءا متشوقين إلى حديثكن وغنائي، فقالت فلانه: وعليك السلام يـا بـن أبي ربيعة، والله ما تم مجلسنا إلا بك أجلسا فجلسنا غير بعيد وأخذن عليهن جلابيـبهن وتقتنعن بأخمرتهن وأقبلن علينا بوجوههن... فلم نزل بأنعم ليلة وأطيبها حتى بـدأ القمر يغيب فقمنا جميعًا وأخذ النسوة طريقًا ونحن طريقًا وأخذ الغريض معنا.

فالناس شغلت بالغناء في البيوت والضواحي ، يلهثون وراء الوقت الممتـع ، والصوت العذب ، وكان الشاعر يبذل ويعطي مغنيه لأنه يذيع شعره بصوته، وكان عمر كريمًا مانحًا حتى إنه مثل مع بن شُريح والغريض جوقة جماعة مؤتلفة لا تـرى إلا معًا.

التجديد في غزله: الاكتشاف النفسي قرب عمر بن أبي ربيعة من عالم المـرأة سرًا وعلانية في الصغر مع أمه ثم في الكبر مع الغريض وابن سُريح، أو منفردًا مما جعلـه يفهمهن ... ما يسعدها وما يشقيها ... ما يثـير حنقهـا أو حسـدها أو يجلـب ودهـا ويتعرض للمحة نفسية وهي الحوار الذي يدور بين المرأة وأترابها حينما يُثني عليهـا من أحدهم ويتغنى بجمالها فقد تعمق في وصف المرأة أحاسيسها ونفسيتها.

إضافة إلى تغيير نفسية المجتمع وهو أمر طبيعي أن تحدث هزة في المجتمع بعد التغيرات، فالشاعر بدلاً من الذوبان في قبيلته كما أعتاد من قبل شعر بذاته، وحس بنفسه.

وعمر عبر عن هذا الاتجاه الجديد فوصف شعوره تجاه المرأة وإحساسها وشعورها تجاهه فتعمق التحليل وذاع وهو اتجاه داخلي جديد.

العاشق والمعشوق:قلب عمر الآية فصارت المرأة عاشقة طالبة وهو معشوق مطلوب تتفنن في إظهار ولهها، صده وقبولها، رفضه وخضوعها، وبذلك صار صاحب مدرسة هو رائدها وكل روادها ... فهذا الشذوذ والعاطفة المعكوسة لم توجد إلا لديه ولم يروج له إلا هو، لنشئته الناعمة وهيئته الجميلة وبيئته المتحضرة يقول:

قالت لترب لها تحدثها　　　لنفسدن الطواف في عمر

قومي تصدى له ليعرفنا　　　ثم اغمزيه يا أخت في خفر

قالت لها قد غمزته فأبى　　　ثم اسبطرت تسعى على أثرى

ليس هذا فحسب إن ابن أبي عتيق لامه وعنفه حينما غنى بالمفتونات به المتيمات بحبه ففي أخباره أنه أنشدا ابن أبي عتيق قوله:

بينما ينعتنن أبصرنن　　　دون قيد الميل يعو بي الأغر

قالت الكبرى أتعرفن الفتى　　　قالت الوسطى نعم هذا عمر

قالت الصغرى وقد تيمتها　　　قد عرفناه وهل يخفى القمر

فقال له ابن عتيق: "أنت لم تنسب بهاو أنما نسبت بنفسك كان ينبغي أن تقـول: قلت لها، فقالت لي، فوضعت خدي فوطئت عليه".

ومعنى ذلك أن معاصري ابن أبي ربيعـة كـانوا يعرفـون فيـه هـذا الضـعف العاطفي، وأنه مشغول في غزله لا بسيدات عصره وإنما بنفسه وكأنما حسنه وجمالـه هيأه لذلك فانقلب يتحدث عن نفسه وعشق السيدات والفتيات لـه حتـى ليجعـل زواجه مأتمًا لهن بل نارًا مستعرة في قلوبهن على – حد قول د/ شوقي ضيف-

ولكنه سار على منهجه يلهج بإعجاب النساء به وتدلهن في حبه يقول مصورًا صدمة النساء يوم زواجه:

خبروهـا بـأنني قـد تزوجـــ ـــت فظلـت تكـاتم الغـيظ سرًا

ثـم قالـت لأختهـا ولأخـرى جزعًـا ليتـه تـزوج عشرًـا

وأشـارت إلى نسـاء لـديها لا تـرى دونهـن للسرـ سـترًا

مـا لقلبـي كأنـه لـيس منـي وعظـامي إخـال فـيهن فـترا

مـن حـديث نمـى إلى فظيـع خلت في القلب من تلظيـه جمـرا

فعمر هو الذي يهجر، والنساء يقبلن محبين متلهفين يرسلن وراءه الرسل وكل ما في المرأة يصف نفسه به.

إن هنـدًا قـد أرسـلت وأخـو الشـوق مرسـل

أرسلتتسـتحثني وتفـدى وتعـذل

فهند وغير هن يرسـلن إليـه ، وهـو يتـأبى ويتمنـع ، وهـن لا يتريـثن ، ولا يتمهلن، بل يتولهن ، ويهمن ، ويرسلن بالرسل تلو الرسل فيلبيهن بعد طول الصـد والتمنع.

ويقول في موقف آخر:

عجبـــا لموقفنـــا وموقفهـــا　　وبســـمع تربيهـــا تراجعنـــا

ومقالهـــا سر ليلـــة معنـــا　　نعهـــد فـــإن البـــين فاجعنـــا

قلـــت العيـــون كثـــيرة معكـــم　　وأظـــن أن الســـير مـــا نعنـــا

فقد تمنع عن السير معها خوفًا من الرقباء فهـي جريئـة مقبلـة وهـو خجـول مدبر.فالمرأة تعيب استجابته للوشاة الذين يمشون بالنميمـة فينقطـع الـود وتتحـق أمنيتهم.

ولمـــا التقينـــا ســـلمت وتبســـمت　　وقالت كقول المعرض المتجنـب

أمـــن أجـــل واش كاشـــح بنميمـــة　　مشـــى بيننـــا صـــدقته لم تكـــذب

قطعت وصال الحبل منـا ومـن يطـع　　بذي وده قـــول المحـــرش يعتـــب

فالمراة في شعر عمر هي التي تشكو من الوشاة وهي التـي تطلـب إليـه أن لا يصدقهم وأن لا يقطع حبال الود والحب فيحقق لهم أمنيتهم.

وهذا جديد فهو مطلب نسوي بل أنه توسع فطلب مـن محبوبتـه سـتر اسـمه وعدم إذاعته قائلًا:

ألم تعلمي مـا كنـت أليـت فـيكم　　وأقسمت لا تحكي ذاكرة باسـمي

فقلب الغزل .. والعاشق صار معشوقًا وهو من مجلبات الحضارة الجديدة وهي تعلق بالنفسية ... نفسية المرأة المتحدث عنها بلسان خبير، وبيان فصيح، وإلمام شامل بخلجاتها...

ونفسية المتحدث الذي قرب من عالم النساء فهمهن وأحاط بنفسيتهن علمًا.

الحوار: شاع الحوار في غزله .. حوار بين أطراف متعددة بين المرأة وأترابها ... وبين المرأة وقيمها ... وبين المرأة والشاعر، وللمرأة في شعره خاصة فريدة فقد أتى بها لتنطق بلسانه تبس لواعج نفسها .. وخلجات شعورها، ووجدانات ذاتها.

فهن هائمات به مفتتنات بتمييزه وسحره فهو يتكلم بلسان غيره من الفتيات والنساء، لذا تميز غزله وتفرد ولا شك أن الحوار على تنوع أطرافه واختلاف حواراته أثرى غزله وصبغة بصبغة متفردة فيحكي كيف قضى الليل مع صاحبته حتى تنفس الصبح وخشيت أن يتهمها الناس.

فقامت كئيبا ليس في وجهها دم ... من الحزن تذرى عبرة تتحدر

فقامت لأختها حرتان عليهما ... كساءان من خزد مقس وأخضر

فقالت لأختها أعينًا على فتى ... أتى زائرًا والأمر للأمر يقدر

فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا ... أقلي عليك اللوم فالخطب أيسر

يقوم فيمشي بيننا متنكرًا ... فلا سرنا يفشوا ولا هو يظهر

فكان مجنى دون من كنت أتقى ... ثلاث شخوص كاعبان ومعصر

فلما أجزنا ساحة الحي قلن لي ... ألم تتق الأعداء والليل مقمر

وقلن أهذا دأبك الدهر سادرًا ... أما تستحي أو ترعوى أو تفكر

فهو يقص ما يتخيل ... أو يحدث ... بأسلوب فريد ربما لا يحوى كل عناصر العمل القصصي لكنه يحوي كثيرًا منها.

التجديد في الوزن: على شيوع الغناء وانتشاره لم يستطع المغنيون الذين ماجت بهم الساحة مثل ابن مسجح، ابن محرز، ابن سريج، الغريض، سميه، سلامة القس، يغنون الشعر القديم فهو لا يلبي الحاجة ولا ينفع الغلة، ولكن الشعر الأموي بأوزانه الخفيفة ... وشعر عمر بن أبي ربيعة واستخدامه أوزانًا خفيفة إلى الأذن كالرمل، الخفيف، السريع، المتقارب، الوافر وعنى بها عناءًا كبيرًا، وأخرج غزله في مقطوعات تلبي حاجة المغنيين الذين غمرهم بعطائه وقد أعطى بن سريح في تلحين قطعة له ثلاثمائة دينار، كما أعطى الغريض في تلحين أخرى خمسة آلاف درهم كما يحضر نوادى الغناء في المدينة، يهب من يغني المئات وقيل إنه أعطى الدلال في تلحين إحدى مقطوعاته مائة دينار وأعطى جميلة عشرة آلاف درهم.

واحتفظ في داره بجاريتين مغنيتين ...بغوم، أسماء، يقول:

قيـــل لهنـــد وتربهـــا　　　قبـل شـحط النـوى غـدًا

إن تجـــودى فطالمـــا　　　بـــت لـــيلي مســـهدًا

وهو من مجزوء الخفيف وقوله:

لقـــد أرســـلت جـــاريتي　　　وقـــت لهـــا: خـــذي حـــذرًا

وقـــولي في ملاطفـــة　　　لزينـــب: نـــولى عمـــرًا

وهو من مجزوء الوافر وقوله:

أصـــبح القلـــب مهيضـــا　　　راجـــح الحـــب الغريضـــا

وهو من مجزوء الرمل وتكثر هذه المجزوءات في شعر عمر كثرة مفرطة وهي مجزوءات نستطيع أن ننفذ منها إلى الظن بـأن تحريفـات كثـيرة حصـلت في الأوزان عنده تحت تأثير الغناء.

وكثرة في شعره الزحاف والعلل لذا ظهر ضرب من الشعر الشـعبي جديـد على الساحة خالي من التزام القواعـد والأسـس القديمـة شـعر قريـب مـن النـاس ولغتهم وفهمهم وتوفى بعد السبعين.